

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم: الثقافة الشعبية

تخصص: أعلام الشعر الشعبي الجزائري

المديح النبوي في شعر
سيدي لخضر بن خلوف
دراسة في الموضوعات والشكل

مذكرة لنيل شهادة الماجستير في أعلام الشعر الشعبي الجزائري

تحت إشراف:

الدكتور مقنونيف شعيب

إعداد الطالب:

حميان عبد الرحمن

لجنة المناقشة:

رئيسا	-	جامعة تلمسان	-	أستاذ التعليم العالي	الدكتور عبد الحق زويوح
مشرفا ومقررا	-	جامعة تلمسان	-	أستاذ محاضر	الدكتور شعيب مقنونيف
عضوا	-	جامعة تلمسان	-	أستاذ التعليم العالي	الدكتور مصطفى أوشاطر
عضوا	-	جامعة تلمسان	-	أستاذ محاضر	الدكتور عبد الرحمان فارسي

السنة الجامعية : 2010-2011

الإهداء

إلى أحق الناس بصحبتني
أمي.. وأبي

وإلى زوجتي المجاهدة
وإلى أبنائي: محمد، يونس، وفاطمة
أهدي ثمرة الجهد

كلمة لا بد منها

من لم يشكر الناس لم يشكر الله. نتقدم بالشكر لكل الأساتذة الذين نتشرف بمرافقتهم لنا في مسارنا الدراسي ودأبهم على نصحننا و توجيهنا، خاصة أستاذي المشرف، والأستاذ محمد سعيدي، والأستاذ عبد الحق زريوح.

ولكل من مد لنا يد العون من الأصدقاء والزملاء، خاصة مدير متقن بصغير لخضر السيد بلعباسي مصطفى والسيد الناظر غفور عبد اللطيف وكل أفراد عائلتي الثانية بالمتقن.

ومن الجحود أن أنكر فضل عائلتي التي أخذتُ من حقوقها الكثير، خاصة والداي اللذين أحتمي بدعواتهما، وأولادي، وزوجتي التي رافقتني في كل الأوقات وصبرت على ثوراتي المتكررة.

فالحمد لله الذي أحاطني بهذا الجمع من الأعوان.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

وبعد:

كان الشعر في الجاهلية علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه - على حد وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه - وهو في الوقت ذاته سلاح ينافح به الشاعر عن قبيلته ويرد عنها العدوان.

فلا غرابة إذا أن يفعل الشاعر ذلك في ظل الإسلام، ولا غرابة أيضا أن يُعجب الشعراء بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم فيحبّوه ويمدحوه في غير ما طلب رفاً أو إغداق عطايا.

ومنذ هذه الفترة، وعلى مدار الأربعة عشر قرناً، والشعراء قليلاً من الدهر ما يهجعون في مدح سيّد البرية.

ولمّا كان الشاعر الشعبي حلقة في هذه السلسلة الطويلة من الشعراء، لم يعدم أن يتغنى بحبّ النبيّ، واتصل هذا الحب بعقيدة الشاعر الإسلامية، فما وسعه إلا أن مدحه وهام في حبه.

ولعل الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف من أبرز الشعراء الشعبيين الجزائريين الذين فنّوا في حبّ النبي صلى الله عليه وسلم، فأفنوا حياتهم في مدحه. فما الموضوعات التي تناولها الشاعر في مديحه؟ وما مدى تأثير النصوص الدينية، من قرآن كريم وحديث نبوي شريف في القصيدة المدحية الخلوفية؟ وما هي الأشكال التعبيرية التي ارتضاها الشاعر في بناء نصه الشعري؟ ثم ما شكل القصائد التي اتخذها وعاء لهذا المديح؟

ويقينا منا بأهمية الموضوع وأحقيته بالدراسة، اتخذنا البحث فيه سبيلاً،

فوسمناه:

" المديح النبوي في شعر سيدي لخضر بن خلوف. دراسة في الموضوعات والشكل "

لقد خضنا غمار البحث يدفعنا في ذلك ميل كبير إلى المدائح النبوية، وتعلق شديد بالتراث الشعري الشعبي والسعي إلى بعثه وكشف ذخائره وكنوزه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف قد تناولته بعض الدراسات ولكنها لم تمط عنه اللثام بالقدر الكافي، لأنها لم تقف على شعره، خاصة المدائح النبوية، وقفة حقيقية تكشف عن الموضوعات التي تناولها في مدائحه، أو أخرى تكشف عن بعض الظواهر الشكلية التي تستدعي الوقوف عندها.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشاعر سيدي الأخضر بن خلوف هو غير الشاعر ابن الخلوف الفاسي الأصل، القسنطيني المولد، التونسي الدار، المولود في 1454م والمتوفى في 1526م، وهو ليس بشاعر شعبي. ومما يعيق البحث، قلة الدراسات التي تنير لنا الطريق أكثر في موضوع المديح النبوي في الشعر الشعبي، اللهم إلا بعض الرسائل الجامعية. أما المديح النبوي في الشعر الرسمي ففيه من الوفرة ما يسد الحاجة. وعن الخطة التي ارتأينا أنها تحتوي موضوعنا فقد عملنا على تقسيم البحث إلى أربعة فصول؛

أما الأول فخصصناه لمفهوم المديح النبوي ورواده، وفيه بيّنا أيضا موقف الإسلام من الشعر، باعتباره البداية الأولى للمدائح، كما أردفنا ببيان أثر شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في المديح، ثم انتقلنا إلى ظهور هذا اللون الشعري في الجزائر وملابساته.

وأما الثاني فوقفنا فيه على حياة الشاعر لنعرف أصله ونسبه، ومولده وأسرتة، ثم تكوينه وثقافته، مع ملامح من شخصيته وكيف تبوأ مكانة الولي الصالح ثم وفاته، كل ذلك من خلال شعره، هذا الشعر الذي أشرنا إلى أغراضه وإلى الديوان الذي جُمع فيه، ذلك بعد أن تحدثنا عن المكان والزمان اللذين عاش فيهما الشاعر.

وفي الفصل الثالث تعرضنا إلى الموضوعات اللاتي تناولها الشاعر في مديحه، مستشهدين على كل موضوع بشواهد شعرية، مغلّبين بعضها على بعض حسب كثرة ورودها في شعر ابن خلوف. وقد كانت هذه الموضوعات متنوعة بلغت أكثر من سبعة عشر موضوعا خدمت كلها غرض المدح.

أما الفصل الرابع فعنينا فيه بالدراسة الشكلية لمديح ابن خلوف، متخذين من إحدى قصائده نموذجا لهذه الدراسة التي قسمناها إلى ثلاث مستويات؛ شعرية اللغة، الصورة الشعرية، ثم الإيقاع الشعري.

تعاملنا في دراستنا هذه مع أمور تاريخية، ووقفنا على ما تحتويه الأشعار، إن على صعيد المضمون وإن على صعيد الشكل، فلهذه الدراسة إذن شقين، أحدهما تاريخي والثاني استقرائي وصفي، ففي الأول تفحصنا كل ما من شأنه أن يفيدنا في الدراسة و يقربنا من الشاعر، وفي الثاني اجتهدنا في كشف ما تحمله هذه الأشعار في ثناياها من ظواهر فنية وجمالية.

تراوحت المصادر والمراجع بين الدراسات التاريخية، والمصادر الدينية، والدراسات النقدية، وكذا بعض المذكرات الجامعية، وحرصنا في استعمالها على ألا يعيب بحثنا كثرة الاقتباسات ولا رغبة التأليف، كما حرصنا على الأمانة العلمية في ضبط المقتبسات.

أما المادة الشعرية فقد استقينها من ديوان سيدي الأخضر بن خلوف الذي جمعه الأستاذ محمد بخوشة.

وختمنا بخاتمة حوت أهم نتائج البحث التي توصلنا إليها، وكذا بعض التساؤلات التي تظل قائمة حول الشعر الملحون وقضاياها.

ولا ندعي، بعملنا هذا، حيازة سبق ولا استقامة عود، ولكن حسبنا من ذلك جدية في البحث، وإصرار في طلب الكمال، وإنصاف الرجال.

واعترافا بالجميل أنحني أمام السيد شعيب مقنونيف انحناءة شكر على
تحمله عناء الإشراف، وصبره في تقديم التوجيهات، وما كان لي أن أباشر هذا
العمل لولا تشجيعاته.
كما أتقدم بالشكر لجميع أعضاء لجنة المناقشة، وأخص بالذكر السيد
رئيس اللجنة.

عبد الرحمن حميان
تلمسان في: 27 جوان 2011

1 - موقف الإسلام من الشعر عامة:

كانت القبائل العربية في شبه الجزيرة غارقة في جاهليتها تتضوع نقع الوثنية وتسبح في غياهب العصبية في فضاء يعتريه الظلم وتعلوه الفوضى حتى جاء الدين الإسلامي، فأقر مبادئ وطرح مفاهيم تجمع ولا تفرق، وتبني ولا تهدم، ولكن هذه المبادئ وتلك المفاهيم أفضت مضاجع رؤوس الشرك، وحالت دون مصالحهم ونالت من سطوتهم، فأخذتهم العزة بالإثم، وقاموا يحاربون النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، فضيقوا عليه وعلى أصحابه، وعذبوهم وأنكروا عليهم دينهم. واشتد عنادهم، فراحوا ينعنون النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بشتى النعوت، فقالوا إنه ساحر وكاهن وشاعر ولكن القرآن الكريم تحداهم في كثير من الآيات على أن يأتوا بمثله في قوله تعالى:

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »¹

ثم إن العرب أعرف الناس بسجع السحرة والكهان، وأكثر دراية بالشعر وأصنافه، فهذا النضر بن الحارث* يعترف أمام جمع كبير من سادة قريش: " يا معشر قريش... قلتهم ساحر، لا والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتهم كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتهم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها، هزجه ورجزه.."²

1 - المصحف الشريف، برواية حفص عن نافع، سورة الإسراء، الآية 88.
* - النضر بن الحارث بن علقمة بن كعدة بن عبد مناف، عبد الدار بن قصي، سيرة ابن هشام، ج1، ص320
2 - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار القلم، بيروت، ج1، ص320.

وما كان الله ليذر نبيه حتى يرفع عنه صفة الشاعرية ويرد مزاعم المشركين، وافتراءاتهم، إذ جاء في القرآن الكريم ذكر الشعر على أوجه مختلفة تنفي كلها صفة الشاعرية عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن القرآن الكريم، قال تعالى: **بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ**¹.

وقال سبحانه وتعالى: **« وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا آهِنَنَا لِشَاعِرٍ بَجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ »**².

وقال تعالى: **« إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ، فَذَكَرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا بَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُرْتَبِّصِينَ »**³.
وقال تعالى: **« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ »**⁴.

وتغنيك الآيات من سورة الشعراء: **« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »**⁵، عن البحث في موقف القرآن من الشعر والشعراء، إذ ورد في التفسير " والشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ "، أنهم الكفار يتبعهم ضلالاً الإنس والجن⁶.

أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ قال الحس البصري: " قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها مرة في شتيمة فلان ومرة في مديحة فلان "⁷.

1- سورة الأنبياء، الآية 5.

2- سورة الصافات، الآية 36 و37.

3- سورة الطور من الآية 29 إلى 31.

4- سورة الحاقة، الآية 40 و41.

5- سورة الشعراء، من الآية 224 إلى 227.

6- ينظر، اسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، ج5، دار الثقافة، ط1، الجزائر 1990، ص130.

7- المصدر نفسه

وقال قتادة: " الشاعر يمدح قوما بباطل ويذم قوما بباطل "1، " وأنهم يقولون ما لا يفعلون " لأن الشعراء يتبحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم.2

ويستثني القرآن الكريم الشعراء الصالحين الذين ينافحون دون الأوطان، ويدعون إلى الفضائل والإصلاح، ويصورون عيوب المجتمع وسيئاته لرأب صدوعه، ويأتي هذا الاستثناء في قوله تعالى: «إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»

لما نزلت " والشعراء يتبعهم الغاؤون " جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون، قالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات"، قال: أنتم، " وذكروا الله كثيرا "، قال: أنتم، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، قال: أنتم.3

وعلى هذا فموقف القرآن من الشعر، موقف صريح واضح لا يحارب الشعر لذاته، فقبيحه قبيح، وحسنه حسن، والميزان الذي يوزن به هو ميزان الأخلاق، ما خالفها كان قبيحا مرفوضا وما وافقها كان جميلا، بل ومطلوبا أحيانا.

ولم يبرح موقف النبي من الشعر موقف القرآن الكريم، إذ كان صلى الله عليه وسلم يسمع أحسنه ويستعذبه، وقد طلب يوما من أحد أصحابه " هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء " فأنشده وأنشده حتى بلغ مائة بيت وقال عنه: " وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم. "4

1 - نفسه.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 131

4 - مسلم، صحيح مسلم، ج2، مكتبة الصفاء، ط1، القاهرة 2004، ص488.

وللنبي صلى الله عليه وسلم مواقف مع شاعر الدعوة حسان بن ثابت نورد

منها: قال حسان: " يا أبا هريرة، نشدتك الله، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا حسان، أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس. " قال أبو هريرة: نعم.¹ وعن البراء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان: " اهجم أو قال هاجهم وجبريل معك "²، فموقفه صلى الله عليه وسلم واضح أيضا إذ قال: " إن من الشعر حكمة "³، ذلك عن الشعر الجيد المطلوب. وقال صلى الله عليه وسلم في شاعر: " خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجل قيحا، خير له من أن يمتلئ شعرا "⁴، فيه من الافتراء على الله ورسوله.

فما خالف الطبع والذوق ونأى عن الحكمة من الشعر كان قرين اللغو في الحكم، وما وافق الطبع وسما بالذوق ونصر الحق كان رديف الحكمة وحليف الشرع.

أما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين فقد حفظوا الشعر واهتموا به ونظموه: " وقد قال الشعر كثير من الخلفاء الراشدين، الجلة من الصحابة والتابعين والفقهاء المشهورين "⁵ ولم يخرج أي من هؤلاء عن الحكمة والفضيلة.

1 - البخاري، صحيح البخاري، ج5، موفم للنشر/ دار الهدى، الجزائر1992، ص2279.

2 - المصدر نفسه.

3 - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص489.

4 - نفسه، ص488.

5 - الدرويش، محيي الدين، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد الخامس، دار الإمامة، دمشق/ دار ابن كثير، بيروت، ط3، ص469.

بعد هذه الوقفة المقتضبة عن موقف الإسلام، ثم موقف النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه من الشعر، والتي سقناها ليتضح لنا كيف تبنى شعراء المديح أبرز فنون الأدب العربي وهو الشعر، ليجعلوا منه وعاء مدائحهم بعد أن رضيه الله ورسوله، نخوض في مفهوم المديح النبوي ومميزاته.

2 مفهوم المديح النبوي ومميزاته:

إن من الأجناس الأدبية التي خصت جزء كبيرا من الشعر العربي واختلفت فيه منازع الشعراء وتمثلت فيه أهم خصائص الشعر العربي كله، هو غرض المدح.

ولم يكن الشاعر العربي في جاهليته يتكسب بالشعر، " وإنما ينظم أحدهم ما ينظمه شكرا على صنعة لا يستطيع أداء حقها، إعظاما لها.¹ ولكن سرعان ما خضعوا للملوك والأمراء، فأفاضوا في المدح حتى راجت تجارته وصار أوسع ميادين الشعر العربي.

وقد اقتصر المادحون على مدح الصفات النفسية وما اجتمع في ممدوحهم من فضائل كالعقل والشجاعة والعدل والعفة، وما يتصل بها من معرفة وحياء وبيان وعلم وحلم وقناعة ومهابة وسماحة وصبر ووفاء وسخاء وإيثار².. ولم يأبه هؤلاء الشعراء بالصفات الجسمية ولم يلتفتوا إليها أو يولوها اهتمامهم، وإن وجد ذلك فبصفة عارضة.

¹ - هلال، غنيمي، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، ط2، بيروت 1982، ص175.

² - ينظر المرجع السابق.

وكان من نباهة الشعراء وفطنتهم في مدائحهم، مراعاة شخصية الممدوح ومكانته، فتراهم يقصدون ما يتوافق معها من صفات، فيمدحون القائد مثلا، بالشجاعة والحزم والقوة.. ويمدحون القاضي بالقاضي بالعلم والرزانة والعدل والفطنة و هكذا¹.. حري صين في ذلك على حسن الابتداء وحسن التخلص، لأن هذا أول ما يقرع الأسماع، وذاك آخر ما تحفظه الأذهان، مجتريين لأنفسهم قدرا يظهرون فيه براعتهم وقوة بيانهم.

ومن شعراء المديح من التزم التمهيد، فوقف على الديار وحاور الرسوم ومنازل الأحباب، قبل الخوض في عرضه الرئيس الذي هو المدح.

ولئن كان المدح يجافي الحقيقة وبنال من مكانة الشاعر، لجريه وراء الكسب وطلب النيل والزلفى، فإنه على العكس من ذلك في المديح النبوي، كونه فن شعري " أذاعه التصوف"²، مناخه روعي يترجم فيض العاطفة الدينية في حب النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته.

ومدح النبي صلى الله عليه وسلم سواء في حياته أو بعد وفاته يسمى مديحا، لأنه صلى الله عليه وسلم " موصول الحياة"³ و أن الشعراء " يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء"⁴.

¹ - ينظر، خلدون بشير، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص143.

² - مبارك، زكي، المدائح النبوية في الأدب العربي، دار الشعب، القاهرة، ص14.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه.

وكما قال الشاعر العربي " بقاء الذكر في الأحياء للأموات عمر"¹ و لأنه حاضر بين أظهرنا بسنته الشريفة، ثم إن النبي صلى الله علي وسلم يقول: " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام"² والصلاة والتسليم على النبي لا ينقطعان، فهو موصول الحياة إذن، وحبنا له عبادة، ومدحنا له ضرب من الذكر، وإنما ذكرت بعض المدائح على أنها مرات لأن أصحابها عاصروا النبي صلى الله عليه وسلم فمدحوه في حياته وبعد وفاته، وسميت رثاء من قبيل التفريق الزمني فحسب،³ وأما الشعراء الذين ولدوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فأشعارهم كلها مدائح لا رثاء.⁴

ويعتمد شعراء المديح النبوي في مدحهم للنبي صلى الله عليه وسلم على: " تعداد صفاته الخلقية والخلقية وإظهار الشوق لرؤيته وزيارة قبره والأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية ونظم سيرته.. والإشادة بغزواته وصفاته المثلى والصلاة عليه."⁵

ويلتزم الشاعر في هذا الغرض الصدق والعفة ويطلب شرف المعنى، كما يتحاشى ما لا يليق بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم، وإذا خاض في الصفات حرص على أن تدور معانيها حول الدين الإسلامي وقيمه ولا يبرح هذه الدائرة إلا

1- الأصفهاني، الراغب أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، ج1، دار الأرقم، ط1، بيروت 1999، ص451.

2- النووي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، رياض الصالحين، دار ابن حزم، ط1، بيروت 2002، ص245.

3- ينظر مبارك، زكي، المدائح النبوية في الأدب العربي، ص14.

4- المرجع نفسه.

5- ابن صافي، آمال، المديح النبوي في شعر أحمد بن تريكي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2008/2007.

للبراء على تفریطه أو تقصيره مع التجمال في التشفع والتضرع، أو التوسل والدعاء.

إن أبرز سمة تميز شعر المديح النبوي هي الصدق في العاطفة، صدق تدفعه المحبة الخالصة للنبي صلى الله عليه وسلم، والرغبة في إظهار مناقبه لما بلغ من أثرها في النفوس، ذلك أنه لا مرأى في حب النبي صلى الله عليه وسلم، إذ هو شرط من شروط الإيمان؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فو الذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده."¹

كما لا شك في أن ما يرافق هذا الحب من الأحاسيس والمشاعر من أرقى وأنبل ما يجول في سريرة المحب، فتتهتز قريحته لتفيض هذه الأحاسيس على لسانه مدحا ينال به رضى الله في المقام الأول، ويمكن له شفاعته نبيه ثانياً.

إن هذه المرجعية الدينية للمديح النبوي تلتقي مع المرجعية الثقافية للشاعر ابن خلوف فكل وعاء بما فيه ينضح، وشاعرية سيدي لخضر طافحة بالثقافة الدينية، فكيف لا تتضح بمديح كالذي بين أيدينا.

ولنتقف عند شخصية النبي صلى الله عليه وسلم لنستبين كيف تأثر بها الشعراء فهاموا في حبه صلى الله عليه وسلم وأعجبوا بجماله أيما إعجاب.

3 أثر شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في المديح:

إن عرض صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخلقية والخلقية هي السبيل الأوضح الذي سيحيلنا إلى معرفة سبب تعلق مادحيه به، ووقف كثير من وقتهم، أو وقف حياتهم وشعرهم برمته لمدحه صلى الله عليه وسلم، كما فعل ابن خلوف

¹ - البخاري، صحيح البخاري، ج1، ص15

وغيره من الشعراء، وليس بينهم، ممن رضي بالإسلام ديناً، إلا وله في مدحه شيء، كيف لا، وفي نفس الشاعر من حب الجمال وطلب الكمال ما يحرك وجدانه ويدغدغ مشاعره.

فمن هو هذا الرجل الذي سلب العقول وملك القلوب، وهام كل من عرفه بحبه وتملك عليه فؤاده، وما هي الصفات التي جعلته صلى الله عليه وسلم، بهذا القدر من الجمال، وهذا الرفد من الرفعة و الوقار. كثير من هذه الصفات هي التي سنصادفها في مديح سيدي لخضر بن خلوف.

إن أبرز سمة في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم المتعددة الجوانب، أخلاقه، التي لا يجاريه فيها أحد، ولذلك حرص صلى الله عليه وسلم على بث هذه الأخلاق في نفوس أصحابه والمسلمين من حوله، وتحبيبها إليهم، حتى إنه ليحدد مهمة رسالته بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"¹

وتجتمع لديك صورة أخلاقه كاملة إذا أكرمك الله بفهم القرآن والسنة، إذ أخلاقه هي القرآن، كما قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: "كان خلقه القرآن"² اجتمعت في النبي صلى الله عليه وسلم عوالم الخير كلها، نذكر منها، تمثيلاً لا حصراً، أبرز الصفات:

فالحلم صفة بارزة يؤكدتها العفو عند المقدرة ويزيدها تأكيداً الاحتمال والصبر على المكاره، فهو الذي لا تزيده كثرة الأذى إلا صبراً، وإسراف الجاهلين

¹ - تفسير ابن كثير، ج7، ص45.

² - صحيح مسلم، ج1، ص361.

إلا حلما، وهو الذي يختار الأيسر بين اليسيرين، ولا يعرف الغضب إليه طريقا،
إلا عند انتهاك حرمت الله، وأسرع إلى الرضا منه إلى الغضب.

وهو شديد التواضع في وقار، ليس فيه شيء من الكبر ولا يحب أن يقوم له
أحد، كما يقومون للملوك والسلاطين، محب للمساكين، قائم على شؤونهم،
يجالس الفقراء، ويتصرف بينهم كأحدهم، وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها:
"كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان
بشرا من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه"¹.

أما عن الحياء فقد "كان أشد حياء من العذراء في خدرها، وإذا كره شيئا
عرف في وجهه"².

كما عرف عنه خفض الطرف، فلا يثبت نظره في وجه أحد، ومن كرم
نفسه وشدة حيائه لا يكلم أحدا بما يكره، ولا يشير إلى أحد، ولا يذكر اسم من بلغه
عنه شيء يكرهه، إلا قوله: "ما بال أقوام يصنعون كذا"³.

ومما شق على الأعداء أن يطعنوا فيه، صدقه وأمانته، فقد كان أصدقهم
لهجة، وأعظمهم أمانة، وقد شهد بذلك الخصوم والأتباع على السواء، وهو الذي
عرف بأمين قريش وصادقها في الجاهلية قبل الإسلام.

¹ - المباركفوري، صفي الرحمن، وإنك لعلی خلق عظیم، شركة كندة للإعلام والنشر، جدة 2006،
ص327.

² - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص515.

³ - ينظر، المباركفوري، ص326.

ما عرفت العرب، وهي ديار الكرم والجود، أجود ولا أطول يدا ممن كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، صلى الله عليه وسلم، وكان "أجود ما يكون في شهر رمضان"¹، فلا يرد سائلا ولا يمنع معروفا.

ولم يُحص للنبي صلى الله عليه وسلم أنه فر من زحف، أو أدبر عن قتال، بل كان الشجاع الذي يُحتمى به إذا حمي البأس، واشتد القتال، قال علي كرم الله وجهه: "كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه"².

وله في كتب السيرة من مواقف الشجاعة والنجدة والبأس والثبات ما يملأ صدره صلى الله عليه وسلم نياشين وأوسمة.

فاز النبي صلى الله عليه وسلم بفصاحة اللسان إذ أوتي جوامع الكلم، فانصاعت له لغة العرب، وأضحت في يده طيبة يصيب بها بلاغة القول في سلاسة طبع، وصحة مقصد وسلامة محتد، وكان يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، كل ذلك بتأييد رباني مدده الوحي.

كما اجتمعت له وفيه صفات أخرى تضافرت كلها لبناء شخصية نبي كريم، كالعدل والرحمة ولين الجانب، وسعة الصدر، وصلة الرحم، وحفظ اللسان عن قول الزور أو اللغو. وهيئات هيات أن نجمع صفاته في بليغ مقاله، أو نعدده محامده في عجالة، ولنا في قول ربنا: «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»³، أعظم شهادة وأبلغ وصف من الخالق سبحانه وتعالى إذ هو أعلم بالظواهر والبواطن.

¹ - صحيح مسلم، ج2، ص510.

² - المباركفوري، ص326.

³ - سورة القلم، الآية 4.

أما جمال الخِلقَة فهو ما وصفته صلى الله عليه وسلم به أم معبد الخزاعية

لزوجها، حين مر بخيمتها مهاجرا:

"ظاهر الوضاعة، أبلج الوجه، حسن الخلق، لم تعبهُ ثلجة، ولم تزره صلعة،

وسيم قسيم، في عينه دعج، وفي أشفاره وطف، وفي صوته صحل، وفي عنقه

سطح، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاه الوقار، وإن

تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنه وأحلاه من قريب، حلو

المنطق، فضل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقهُ خرزات نظمن يتحدرن، ربعة، لا

تقحمه عين من قصر، لا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنظر

الثلاثة منظرا، وأحسنهم قدرا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا له، وإذا أمر

بادروا إلى أمره، محفود، محشود، لا عابس ولا مفند. ¹*

ووصف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه النبي صلى الله عليه وسلم

فقال: "لم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم

يكن بالجعد القطط، ولا بالبسط، وكان جعدا رجلا، ولم يكن بالمطهم ولا بالمكثم،

وكان في الوجه تدوير، وكان أبيض مشربا، أدعج العينين، أهدب الأشفار، جليل

المشاش والكتد دقيق المسرية، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما

يمشي في صبيب، وإذا التفت معا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو خاتم النبيين. ²*

¹ - زاد المعاد، ج2، نقلا عن المباركفوري، وإنك لعلى خلق عظيم، ج1، ص32. *: الوضاعة: الجمال،

أبلج الوجه: مشرقة ومضيئة، الثلجة: كبر البطن أو كبر الرأس، لم تزره: لم تعبهُ، والصلعة: صغر الرأس، والوسيم القسيم: الحسن الجميل، والدعج: شدة سواد الحدقة، في أشفاره وطف: في شعر أجفانه طول، والصلح: بحة يسيرة، سطح: طول، أحور: شديد بياض العينين في شدة سوادهما، أزج: متقوس الحاجبين، أقرن: ملتقى الحاجبين بين العينين، لا نزر ولا هذر: لا قليل ولا كثير بل هو وسط الكلام، محفود: الذي يخدمه أصحابه ويسرعون إلى امتثال أمره، محشود: الذي يجتمع إليه الناس، لا مفند: أي لا يفند أحدا، أي يهجنه ولا يستقل عقله.

² - جامع الترمذي، نقلا عن المباركفوري، وإنك لعلى خلق عظيم، ج1، ص321.

وقال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: "كان بسيط الكفين، وقال كان أزهر اللون، ليس بأبيض أمهق، ولا آدم، قبض وليس في رأسه ولحيته إلا عشرون شعرة بيضاء."¹

لقد اجتمع الجمال كله والحسن في خلقته صلى الله عليه وسلم، وما وصفه وصاف ولا نعته نعات إلا قال عنه ما يجعل العين تتوق لرؤيته.²

فكيف لا يفتتن الشعراء بهذا الجمال النوراني والخلق الرباني، وهم أرق الناس قلوبا، فتفيض قرائحهم بالمديح الذي تدفعه مشاعر الحب والإعجاب معا. ولا شك أن للمديح بدايات أولى ومبدعين أوائل خاضوا فيه، واتخذ له مراحل عبر الزمن حتى اكتملت صورته.

4 رواده ومؤسسوه:

إن التأريخ لفن المديح النبوي وتقصي كل ما يتصل بهذا الفن، مجال يطول فيه الكلام ويتسع الحديث ويستنفذ الكثير من وقت الباحث وجهده، ولكن الوقوف عند المبدعين الأوائل فيه ضرورة ملحة لنتبين كيف بدأ هذا اللون الشعري في الظهور، وكيف سما كضرب من التعبير عن العواطف الدينية النبيلة المخلصة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم.

* - الممغط: المفرط في الطول، الجعد القطط: شديد الجعودة، وهي التواء وانقباض الشعر، والبسط: مسترسل الشعر، و المطهم: الممتلئ الجسم، والمكثم: شديد تدوير الوجه، أهدب الأشفار: طویل شعر الأذنان، جليل المشاش: عظيم رؤوس العظام مثل الركبتين والمرفقين والمنكبين، والكتد: الكاهل وما يليه من الجسد، المسربة: خط من اللبة إلى السرة، أجرد: خال من الشعر، الشثن: الغليظ، تطلع في مشيته: أي شديد المشي، الصبيب: ما انحدر من الأرض.

¹ - مسلم، صحيح مسلم، ج2، ص524. وفي صحيح البخاري أيضا.

² - لمزيد من الاطلاع، ينظر المباركفوري، وإنك لعلی خلق عظیم.

ويرى زكي مبارك¹ أن من أقدم القصائد التي ظهرت في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، قصيدة الأعشى التي مطلعها:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم مخلة مهددا²
إلى أن يقول لراحلته:³

فآليت لا أرثي لها من كلاله ولا من حفى حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون و ذكره أغار - لعمرى - في البلاد و أنجدا
له صدقات ما تغب و نائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقي من فواضله ندى

ولكن الأعشى بمدحه هذا وإن كان يقصد النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم على يديه، كان لا يزال يحمل في ثناياه من عصبية الجاهلية، ولم يتسق له بعد معرفة موقف الدين الجديد من ملذات الجاهلية وغلوائها وميعتها، فمدحه هذا " لم يكن إلا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يتكسبون بالمديح، وليست قصيدته أثرا لعاطفة دينية قوية حتى تلحف بالمدائح النبوية." ⁴

فمديح الأعشى على هذا يشوبه كدر الجاهلية وتعتريه صولتها، ويفتقر إلى صدق حبه لممدوحه وقوة عاطفته الدينية.

1- ينظر، مبارك زكي، المرجع السابق، ص16.

2- المرجع السابق.

3- نفسه.

4- المرجع السابق

وقريب من ذلك لامية كعب بن زهير الاعتذارية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، التي قالها تحت وطأة الخوف على نفسه، بعد أن أهدر النبي دمه، وهي واقعة في ثمانية وخمسين بيتا، والتي لم تشذ عن التقاليد الشعرية الجاهلية، إذ استهلها كعب بمقدمة غزلية، ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يجز مكبول

و ما سعاد غداة البين إذ رحلوا إلا أغنّ غضيض الطرق مكحول¹

إلى أن يقول في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول²

ولئن كانت هذه القصيدة محكمة السبك قوية البناء إلا أنها " تكاد تخلو من

روح الدين "³، لأن الشاعر رام بها النجاة من الموت، وفي هذه الحالة يغيب

العقل، فما بال الصدق، ناهيك أن إيمان الرجل لم يعرف إلى قلبه مسلكا، ولا

عرف حب النبي إلى فؤاده سييلا.

كل ذلك يحملنا إلى القول بأن قصيدة " بانت سعاد " ليست من المديح

النبوي الذي تتوقد فيه العاطفة، ويعتمل فيه الشوق، وتهفو فيه النفس، وتسمو فيه

الروح، بل يغلب عليها غرض الاعتذار، وشتان بين المديح والاعتذار.

إن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة وظرفها جعلها خلو من صدق

العاطفة لكن سبكها - كما ذكرنا - جعل المتقدمين يعيرونها انتباههم " فقد اهتموا

¹ - السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين بن عبد الله، شرح ديوان كعب بن زهير، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965، ص6.

² - نفسه، ص23.

³ - مبارك زكي، ص24.

بها اهتماما عظيما، وعدوها من أجلّ ما قيل في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وعنى بها الشعراء فشطّروها وخمّسوها وعارضوها، وأولع بشرحها فريق كبير من كبار الرجال "1" وهو ما رآه صاحب النفع " ولم يزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها ويقتدون بأقوالها، تبركا بمن أنشدت بين يديه ونسب مدحها إليه."2

ومهما قيل في لامية كعب فستبقى اللبنة الأولى في ظهور غرض المديح النبوي، وسيبقى لكعب فضل السبق في بعث هذا اللون الشعري.

ومثل ما فعل كعب في قصيدته كان دأب شعراء آخرين من المشركين هجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاءوا يعتذرون تائبين، منهم أنس بن زعيم* الذي قال في قصيدته:

وما حملت من ناقة فوق رحلها أبر و أوفى ذمة من محمد³

وكذلك أبو سفيان بن حارث بن عبد المطلب الذي خاض في عرض ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء تائبا، فأعرض عنه، ولا زال ببابه " حتى رق له النبي، فدخل عليه وأسلم وأنشده معتذرا "4 قصيدة منها:

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيل اللات خيل محمد

1 - المرجع السابق، ص25.

2 - المقرئ، نفع الطيب، نقلا عن المدائح النبوية، ص25.

* - هو أنس بن زعيم بن عمر عبد الله الكنانى، شاعر من الصحابة، هجا النبي فأهدر دمه، أسلم يوم الفتح.

3 - الهرفي، محمد بن علي، مدائح الرسول ومرائيه في عصره، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط2، القاهرة 2005، ص72.

4 - ينظر سيرة ابن هشام، ج4، ص43.

لكالمدلج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدي وأهتدي¹

وجاء عبد الله بن الزبيري* النبي تائباً يعلن إسلامه وأنشد حينها قصيدة طويلة يطلب فيها العفو ويشيد بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن ناصبه العداة وانتصر للمشركين ردحا من الزمن.

يقول الشاعر في إحدى قصائده:²

فاغفر فدى لك والديّ كلاهما زللي فإنك راحم مرحوم

وعليك من علم المليك علامة نور أغر وخاتم مختوم

ومن الشعراء الذين ناصبوا النبي صلى الله عليه وسلم العداة أيضاً ثم

قدموا إليه تائبين ومدحوه، ضرار بن الخطاب الذي قال:³

يانبي الهدى إليك لجا حي قريش ولات حين لجا

حين ضاقت عليهم سعة الأرض وعاداهم إله السماء

من هذا الباب دخل هؤلاء الشعراء ليتركوا بصماتهم في بناء صرح الإسلام

بعد أن تمكن الإسلام من قلوبهم، وغير حبههم للنبي صلى الله عليه وسلم

سلوكاتهم وحياتهم.

¹ - نفسه.

* - هو عبد الله بن الزبيري بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم الفهري القرشي، أسلم عام الفتح، ابن هشام، ج1، ص59.

² - نفسه، ج4، ص46.

³ - الهرفي، مدائح الرسول ومرآئيه في عصره، ص88.

ومن المشركين أيضا من مدح النبي صلى الله عليه وسلم ولما يزل على
شركه، كعمه أبو طالب الذي يقول:

حليم رشيد عادل غير طائش يوالي إله ليس عنه بغافل

فو الله لولا أن أجيئ بسنة تجر على أسيافنا في المحافل

لكننا اتبعناه على كل حالة من الدهر جدا غير قول التهازل¹

وكذلك فعل أبو عزة عمرو بن الجمح الذي فك النبي أسره في بدر فمدحه
بقوله:

من مبلغ عني الرسول محمدا بأنك حق و الملوك حميد

و أنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد²

وفي قصيدة لطالب بن أبي طالب مدح فيها ابن عمه النبي صلى الله عليه
وسلم بعد أن رثى قتلى بدر من قريش:

فما إن جنينا في قريش عظيمة سوى أن حمينا خير من وطئ الترابا

يطيف به العافون الغاشون بابه يؤمون نهرا لا نزورا ولا صربا³

ولما رجع سراقه بن مالك خائبا في اللحاق بالنبي لينال جائزة قريش،
غضب منه أبو جهل فقال يخاطبه:

أبا الحكم والله لو كنت شاهدا لأمر جوادي إذ تسوخ قوائمه

¹ - المرجع السابق، ص 91.

² - البداية والنهاية، نقلا عن الهرفي، مدائح الرسول ومرآته، ص 95.

³ - البداية والنهاية، نقلا عن الهرفي، مدائح الرسول ومرآته، ص 96.

عجبت ولم تشكك بأن محمدا رسول وبرهان فمن ذا يقاومه¹

ليس عجيبا إذا أن يعترف المشركون بعظمة النبي، فتساق ألسنتهم لمدحه والإشادة بمقامه وعلو شأنه وحمد سيرته.

كان هذا حال المشركين، فما حال الصحابة؟

لقد مدحه الصحابة رضي الله عنهم والشعر في تلك الربوع أرقى ضروب القول في التعبير والتغني بما تجود به المشاعر، وتترجمه الأحاسيس، وأكبر شعراء الرسول حينئذ حسان بن ثابت الذي انبرى للدفاع عن الدعوة الإسلامية في وجه شعراء المشركين هو وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة " وقد حظي هؤلاء الشعراء الثلاثة بمحبة رسول الله عليه وسلم وثقته بقدرتهم على مواجهة شعراء المشركين الذين آذوا النبي صلى الله عليه وسلم، كما آذوا المسلمين² فكان في معرض هجائهم المشركين والرد عن مزاعمهم، وافتخارهم بانتصارات المسلمين ووصف غزواتهم، ورتاء شهدائهم " كانوا في كل ذلك يمتدحون النبي صلى الله عليه وسلم ويشيدون بنبوته، ويبرزون سجاياه الحميدة وقيادته الشجاعة³.
ولكن الجدير بالذكر أن مدائح هؤلاء كانت تتخلل أغراض شعرية أخرى، نستثني حسان الذي كاد يفرد قصائد برمتها لمدح النبي صلى الله عليه وسلم، وأخرى لمدح آل بيته يقول في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

أغر عليه للنبوّة خاتم من الله مشهود و يشهد

1 - الهرفي، المرجع السابق، ص 97.

2 - المرجع السابق، ص 49.

3 - نفسه.

نبي أتانا بعد يأس و فترة من الرسل والأوثان في الأرض تعبد

فأمسى سراجا مستنيرا وهاديا يلوح كما لاح الصقيل المهند

وأندرنا نارا وبشر جنة وعلمنا الإسلام فالله نحمد¹

وقال يمدح أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

حليمة خير الناس دنيا ومنصبا نبي الهدى والمكرمات الفواضل

مهذبة قد طيب الله خيمها وطهرها من كل سوء وباطل²

وهذا الرجل كان أكبر شعراء الرسول ويمتاز بالصدق والإخلاص.³

ولولا الدافع الديني لهذا الصدق و الإخلاص، ما كان لحسان ذو الطبيعة

الشموس المتعالية أن يتصل من عصبيته لقومه فيمدح الرسول صلى الله عليه

وسلم وآل بيته ويفضله على جميع الناس "كان حسان في مديحه الرسول صلى

الله عليه وسلم يخضع لهذا الدافع الديني إذن، وهو الذي يضيف على الرسول

صفات تسمو به عن مستوى سائر الناس"⁴، والملاحظ في مدائح حسان أنها نأت

بجانبتها عن المدائح الجاهلية التي ينتقل فيها الشاعر من مقدمة غزلية إلى وصف

الأطلال ثم وصف الناقة، لينتهي أخيرا إلى الغرض الأساس في القصيدة، اللهم

إلا في عدد قليل من قصائده كهزيمته المشهورة التي يهجو فيها أبا سفيان بن

الحارث ويمدح النبي صلى الله عليه وسلم والتي منها:

1- النص، إحسان، حسان بن ثابت حياته وشعره، دار الفكر، ط3، دمشق 1985، ص241

2- الهرفي، ص50.

3- مبارك زكي، ص27.

4- النص، المرجع السابق، ص235.

أتهجوه ولست له بكفاء فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركا برا حنيفا أمين الله شيمته الوفاء¹

لقد كان حسان في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم يفرغ عليه من الصفات ما يليق بنبي كريم بعثه الله تعالى لهداية الناس كافة، فهو السيد الأمين الصادق، المعلم، المبارك السراج إلى غير ذلك من المعاني الإسلامية التي تكفل للنبي نشر دعوته وتبليغ رسالة ربه.

لقد استطاع حسان أن يبرز شخصيته النبي صلى الله عليه وسلم وذلك من خلال تصغير خصومه، من جهة ومدح النبي بصفات عظيمة اجتمعت فيه، من جهة أخرى، ليظهر بذلك غير قابل للمقارنة وليس أحسن ولا أبلغ من قول حسان - حسبنا - في مدح النبي صلى الله عليه وسلم:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء²

فحسان يعد بحق من مؤسسي هذا الاتجاه الشعري إذ اجتمع لديه جودة الصناعة وصدق العاطفة، إلى جانب - وبأقل درجة - كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة.

واستمر حب النبي صلى الله عليه وسلم وحب آل بيته في القلوب، واستمر معه المديح النبوي وبرز في فترة لاحقة الكميت بن زيد في قصائده " الهاشميات " ودعبل الخزاعي والفرزدق، هذا الأخير الذي حج في السبعين من عمره، وسئل

¹ - نفسه، ص240.

² - الهرفي، ص55.

عن رجل كان تتحى له الناس لاستلام الحجر الأسود¹، وكان عليا بن الحسين رضي الله عنه، فقال ميميته المشهورة مرتجلا ومطلعها:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرف والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله بجده الأنبياء قد ختموا²

ويبدو مديح الفرزدق للنبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته أبعد في الصدق من مدائح حسان، " ذلك بأن مدائح حسان وقعت في أيام كان مدح النبي فيها ينفع الشاعر ولا يضره، أما مدح النبي وأهله في أيام الفرزدق، فكان بابا من الشر يفتحه المادحون. "³

إن المتفحص لنشأة المديح وتطوره، يتنبه إلى أن الشعراء الذين جاءوا بعد كعب بن زهير وحسان بن ثابت والفرزدق ومن عاصرهم ممن مدحوا النبي وآل بيته، قد حذوا حذوهم في التعابير والصلوات و الثناء على آل البيت، بل وحتى التسميات وإن كانوا قد أضفوا عليها فيما بعد رؤى صوفية، كما احتفظوا بالمقدمة الغزلية، لكنهم التزموا فيها الحشمة والتأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ولا نبرح حتى نقف عند قصيدة البردة للبوصيري في القرن 7 هـ التي ذاع صيتها في الأقطار والأمصار حتى نسجت وحكيت حولها القصص والأساطير، والتي مطلعها:

1 - مبارك زكي، ص58.

2 - المرجع السابق، ص59.

3 - نفسه، ص63.

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من إضم¹

والبوصيري أيضا هو ناظم الهمزية المعروفة، والتي مطلعها:

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

لم يساووك وقد حا ل سنى منك دونهم وسناء²

وكلا القصيدتين عارضهما كثير من الشعراء اللاحقين، إلا أن البردة كانت

أسير في الناس من الهمزية وقد انبرى لشرحها كثير من النقاد كما غالى

الصوفيون في التبرك بها إلى حد الاستشفاء³.

ولعل ما زاد تعلق الصوفية بهذه القصيدة هو لما رأى الشاعر النبي في

المنام فأنشدها بين يديه، فكان يتمايل طربا كتمايل الأغضان⁴ فاعتقدوا أن

إنشادها، وما فيها من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم تمكّنهم من رؤيته

في منامهم.

ويرى زكي مبارك أن البوصيري استأنس بميمية ابن الفارض التي مطلعها:

هل نار ليلي بدت ليلا بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم⁵

لاشتراك الشاعرين في كثير من المعاني مع وحدة الوزن والقافية¹.

1- الغزي، بدر محمد، الزبدة في شرح البردة، تحقيق د. عمر موسى باشا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972، ص28.

2- الهاشمي أحمد، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، ج2، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان 2004، ص190.

3- ينظر مبارك زكي، ص197.

4- نفسه، ص199.

5- المرجع السابق، ص201.

لقد ملأت البردة الدنيا وشغلت الناس، فرددوها وطربوا لها، وسارت شرقا وغربا، واتفق أن سافر ابن جابر إلى بلاد مصر والشام "وقد افنتن ابن جابر بقصيدة البردة وظهر أثرها في شعره"² وعارضها، مبتكرا فنا جديدا هو " البديعيات " إذ لا يخلو بيت منها من لون بديعي³ وخاض في هذا النوع من النظم مادحا، ابن حجة الحموي (ت 837 هـ) وابن نباته المصري (ت 768 هـ).

كما استمرت المدائح النبوية في بلاد الأندلس رغم ما عرفه ذلك المجمع من مجالس لهو وطرب، فقد مدح كثير من الشعراء الذين تركوا الدنيا وهاموا في حب الله وحب نبيه صلى الله عليه وسلم، في شتى المدن الأندلسية، خاصة حاضرتي قرطبة وإشبيلية.

وقد ضمّن الوشاحون المديح النبوي فنهج الجديد، الموشحات، ومن بعده الأزجال، ولعل لهذه الموشحات والأزجال الدينية أثر كبير في الشعر الملحون الجزائري، خاصة في فترة الحكم العثماني للجزائر لما للحالتين الاجتماعية والسياسية في القطرين من تشابه.

يقول عبد الله ركيبي:⁴ " فقد شاعت الموشحات والأزجال الدينية منذ عصور قديمة ولا بد أنه كان لها أثرها في الشعر الملحون أثناء حكم الأتراك

1 - نفسه، ص 202.

2 - نفسه، ص 224.

3 - نفسه، ص 225.

4 - ركيبي عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ط 1، ص 369.

للجزائر فانتشرت القصائد من مديح، وتوسل، وتقرب إلى الله وابتهاال، وذكر الأولياء ووصف الخمرة الإلهية وما إليها " .

كان ابن عربي هو أول من استعمل الفلسفة الصوفية في الموشحات بينما أدخل الشوشتري التصوف في الزجل¹.

وبعد هذا التقفي لمسار شعر المديح النبوي، يحين لنا أن نتساءل: كيف ظهر هذا اللون الشعري في أرض الجزائر؟ وما هي الملابس التي أحاطت بهذا الظهور؟

5 ظهور المديح الديني في الجزائر وملابساته:

لا شك أن الإنسان لجأ إلى كثير من ضروب القول للتعبير عن مكنونات وجدانه، حتى اهتدى إلى أرقى هذه الضروب والأفانين، وهي الشعر، ولا تكاد تخلو المجتمعات الإنسانية، قديمها وحديثها، من الشعراء، والمجتمع الجزائري واحد من هذه المجتمعات قبل الفتح الإسلامي، فكيف الحال وقد حلت العربية بهذه الأرض والشعر عند العرب، يومئذ، لسان حال البيئة العربية وترجمان وجدان الشاعر العربي.

وقد كان للشعر الملحون في هذه الأرض تواجدا روج له ضعف الثقافة في العهد التركي، خاصة، ويمكن القول: "بأن الشعر غير المعرب جاء مع الفتح الإسلامي، ثم انتشر بصورة قوية واضحة بعد مجيء الهلاليين إلى الجزائر، حاملين معهم لهجاتهم المتعددة"² ، مساهمين في نشر اللغة العربية.

¹ - نفسه، ينظر الهامش.

² - نفسه، ص368

كانت الزحفة الهلالية بلهجاتها، بمثابة تحرير للشعر الملحون، أو غير
المعرب، حيث أصبح محل اهتمام من قبل الأوساط الشعبية، خاصة عندما
اكتنف الضعف الثقافة العربية في العهد التركي وبعده، أثناء الاحتلال الفرنسي.
كما ساعدت هذه الظروف على انتشار الشعر الديني بمختلف موضوعاته
ورواجه¹ "فظهر شعراء متصوفة أنشدوا قصائد ملحونة وموشحات وأزجالا في
المديح النبوي وفي الإشادة بالدين"².

ولا شك أن الظروف الاجتماعية والسياسية التي دفعت شعراء " الأدب
الرسمي " إلى المديح الديني، هي نفسها التي دفعت شعراء الملحون إلى النظم في
هذا الغرض، وإن اختلفت الديار والأزمان، "وهناك من الشعراء عن عناو عناية
خاصة بالشعر الديني الملحون أمثال "ابن مسايب " والمنداسي " الذي اشتهر
بقصائد في شعر المدائح والتشوق للكعبة والتصوف، والشاعر الأخضر بن خلوف
الذي كرس شعره كله، تقريبا، لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم."³.

لقد لاذ الناس في البلاد العربية، وكذلك حال الجزائر، بالدين واحتموا به
هروبا من المظالم التي سلطت عليهم، فكثر الزهد والتقشف، وانتشرت المدائح
النبوية بالفحصى والعامية،⁴ مؤرخين لغزوات النبي حينا، ومتحدثين عن معجزاته،
أو واصفين لجماله الظاهر والباطن، ومشيدين بنبوته وأخلاقه حينا آخر، ومكثرين

1 - ينظر، أخضري عيسى، المديح النبوي في الشعر الشعبي، شعراء قصر الشلالة نموذجا، رسالة
ماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان، 2004/2003، ص30.

2- ركيبي، المرجع السابق، ص368 وما يليها.

3- نفسه، ص369 وما يليها.

4- المرجع السابق، ص47.

من الصلاة والسلام عليه متوسلين به وبالصحابية والأولياء الصالحين أحيين
أخرى، لعلمهم يجدون عزاء لهم في هذه الظروف الحالكة.

ولعل تشجيع الأتراك لهذا الاتجاه كان مقصودا لإبعادهم عن التفكير في
واقعهم المؤلم، كما ضمن هذا الواقع لرجال الطرق والزوايا الإبقاء على مكانتهم
وخضوع الناس لنفوذهم.

ولنقترب أكثر من الظروف التي كثر فيها انتشار هذا الغرض، خاصة في
الشعر الملحون، نقف على حياة لخضر بن خلوف، وقبلها على عصره وحالاته
السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

1 مستغانم، المكان والزمان:

يتحتم على دارس الشخصيات الأدبية أن يقف على المنطقة التي ولد فيها الشاعر أو الأديب وتربى في كنفها وترعرع على ربوعها، وكذا الفترة الزمنية التي عايشها، ذلك أن الشاعر أو الأديب ابن بيئته، يتأثر بها ويؤثر فيها، وشاعرنا سيدي لخضر بن خلوف من منطقة مستغانم مولدا، وبالشقران تحديدا، كما أنه دفين منطقة سيدي لخضر. عايش فترة الحكم العثماني من بدايته إلى نهاية فترة حكم الباشوات، فكان لزاما علينا التعرف إلى المكان والزمان.

أ المكان وطبيعته:

كانت مدينة مستغانم من أكبر المدن في الناحية الغربية الجزائرية، وهي نتيجة توسع ونماء عمراني حول مركز حربي يدعى " برج الأمحال"، جمع محلة، وهي الفرقة الجنديّة¹ ابتناها يوسف بن تاشفين بمكان يدعى " مشتي غانم"، حيث عرفت المنطقة ازدهارا كبيرا في ظل حكم بني زيان، وبني مرين، وشيد فيها أبو الحسن المريني مسجده الكبير سنة 1340 م² الذي مازال إلى اليوم شاهدا على تلك الحقبة .

وبدخول الأتراك امتد عمرانها شرقا وغربا، فحصّنها خير الدين بربروس

تحصينا قويا إلى أن جاء الاحتلال الفرنسي، لكنه حافظ على المدينة³.

وفي العهد التركي كانت منطقة مستغانم عاصمة لبايليك الغرب ، لمدة

خمس سنوات، أحد البايليكات الأربع¹، وقد اتخذ الباي مصطفى بوشلاغم مدينة

¹ ينظر المدني، أحمد توفيق، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر 1984، ص 237

² نفسه.

³ نفسه.

مستغانم عاصمة له في هذه الفترة، إذ لم تكن حينها عاصمة البايليك مستقرة
بمكان واحد، ربما لأسباب سياسية، " شكلت مازونة عاصمة البايليك وتلمسان
قاعدته الهامة، ثم تغير الوضع السياسي وأصبحت معسكر العاصمة سنة 1701م،
ثم وهران في الفتح الأول 1708 م، ثم مستغانم سنة 1732 م، بعد ذلك عاد المقر
إلى معسكر سنة 1737م، وأخيرا انتقل إلى وهران بعد الفتح الثاني سنة 1792 م.²

وتعتبر مدينة مستغانم مدينة ساحلية، ذلك ما يؤهلها لأن تحتل موقعا
استراتيجيا، أضف إلى ذلك الطبيعة الخلابة التي يمتزج فيها سحر البحر مع
كثافة الغابات المحيطة بها إلى جانب خضرة بساتينها الدائمة، " والزائر للمنطقة
يلاحظ كثرة البساتين المنتظمة، والحقول المسقية، والغابات الكثيفة والمتنوعة،
منها المثمرة وغير المثمرة "،³ ساعد في كل ذلك مناخ البحر الأبيض المتوسط
الملائم.

اجتمعت هذه العوامل كلها لتجعل من هذه المنطقة تجمعا بشريا يعج
بالنشاط الاقتصادي والتجاري.

ويكشف لك عن هوية المكان، المعالم الأثرية التي تتوزع في ربوع المدينة
من أبواب ومساجد وأضرحة و"مقامات"، وكذا المعالم الأثرية المنتشرة في ضواحي
المدينة" وهذا إنما يدل على ثراء وغنى المنطقة بالتجمعات البشرية منذ أقدم
العصور. وتشير المعالم الأثرية إلى وجود آثار قبل الميلاد.⁴

¹ فركوس صالح، تاريخ الجزائر ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم، الجزائر 2005، ص
157 وما يليها.

² دواجي، جلول عبد القادر، الخطاب الشعري عند سيدي لخضر بن خلوف، رسالة لنيل شهادة
الماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان 2002/2003، ص4.

³ نفسه.

⁴ نفسه، ص 5.

هذه المعالم تدل على أن المنطقة ضاربة بجذورها في القدم، وتحمل
مخلفات الحضارات المتعددة كالبربرية والفينيقية والرومانية وآخرها الحضارة
العربية الإسلامية، وهذا - لعمرى - مجال خصب وحقل رحب للمؤرخين
والباحثين وعلماء الآثار، والفنانين والشعراء .

وإذا استتبقنا التاريخ وجدنا أن مستغانم " ذات أصول بربرية، اتسمت
بمستوى حضاري هام ، وانتعاش سكاني للأزمة القديمة ، كما عرفت مستغانم
الوجود الروماني، ومينائها الروماني الشهير يشهد على ذلك فالميناء يدعى "
مارستيكا " " MARUSTUGA" واشتهرت المنطقة بمراعيها الغنية. كانت مستغانم
تحت سيطرة مغراوة تراقب المدن الهامة الموجودة ما بين شرشال و مزگران.¹

وإضافة إلى سكانها البربر والعرب الذين وفدوا مع الفتح والهالبيين
والأتراك، فقد كانت الملجأ الآمن للعائلات المسلمة النازحة من الأندلس فرارا من
حقد الحملة الصليبية للأسبان ضد المسلمين، هؤلاء الأسبان الذين أغرتهم منطقة
مستغانم فحاولوا إخضاعها لهم، لكنهم لقوا ما لقوا من مقاومة وبسالة سكانها،
والتاريخ أكبر شاهد على دحر هؤلاء الغزاة وردّ عدوانهم، ومن أشهر المعارك "
معركة مزگران" بقيادة الجيش العثماني²، وقد خلّد شاعرنا أحداث هذه المعركة في
قصيدة شعرية تعرف بـ " قصة مزگران"³.

وحرى بنا أن نذكر النهضة الدينية التي عرفتتها المنطقة في بداية العهد
العثماني، " ومسلمو مستغانم على جانب عظيم من الفضل والصلاح، وإن كانت

1. المرجع السابق، ص 6.

2. ينظر، دواجي عبد القادر جلول ، ص 6.

3. ينظر بخوشة محمد، ديوان سيدي لخضر بن خلوف ، ص 182.

نهضتهم إلي اليوم لم تصل إلى المركز اللائق بهم¹، إذ كثرت الزوايا، وأشهرها الزاوية العلوية وقد أسس تلك الطريقة، التي هي فرع من الشاذلية، الشيخ سيدي أحمد بن عليوة².

وعلى بعد 50 كلم شمال شرق مدينة مستغانم عاصمة الولاية حاليا وعلى الطريق الوطني رقم "11" تقع منطقة سيدي لخضر التي ترعرع على أرضها الشاعر ابن خلوف، وهي واقعة جغرافيا بين خطي عرض 36،7 جنوبا و36،15 شمالا، وما بين دائرتي طول 0،33 شرقا و 0،20 غربا ، تبلغ مساحتها 60،139 كلم² ، وقد انبثقت عن التقسيم الإداري لسنة 1991 م.³

يحد منطقة سيدي لخضر شمالا البحر الأبيض المتوسط وبلدية حجاج غربا ، وبلديتي تازقايت وسيدي علي جنوبا وبلدية خضرة شرقا .

وتتميز الأرض التي بنيت عليها المدينة بالخصوبة لوفرة مياه منابعها وآبارها، لأنها تجمعت في بداية نشأتها حول مكان يدعى "العنصر" أو "عين الحمام"، وذلك ما راق المستعمرين الفرنسيين فاستوطنوها، واستقروا بها بعد حوالي ستة عقود من دخول الاحتلال، وسموها باسم الجنرال "لاباسي" "LA PASSET" ثم تغيرت التسمية بعد الاستقلال إلى سيدي لخضر نسبة إلى دفينها الولي الصالح سيدي لخضر بن خلوف الذي يقع ضريحه على بعد ثلاث "3" كلم جنوب المركز الإداري للبلدية.⁴

1. المدني، المرجع السابق، ص 238.

2. المرجع السابق.

3. دواجي، ص 7.

4. نفسه، ص 7.

ب - الزمان:

إن الوقوف على أشعار سيدي لخضر بن خلوف يستوجب علينا أولاً الوقوف على العصر الذي عاش فيه، ذلك أن الشاعر ابن بيئته، ومرآة عاكسة لحالها، ولا يستقيم سبر أغوار هذه الأشعار بمنأى عن الحيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي سنتعرف إليها لعلها تحملنا إلى تقاسم الرؤى مع الشاعر، فيسهل بذلك الفهم، ويتيسر التعامل مع النصوص الشعرية وتحليلها وكشف جمالياتها.

عاش الشاعر لخضر بن خلوف في القرن التاسع الهجري (9 هـ)¹، أي عهد الحكم العثماني في الجزائر وهي الفترة المشكّلة للإطار الزمني الذي سنبسط عليه الضوء.

• الحياة السياسية:

عرف نظام الحكم في ظل الخلافة العثمانية للجزائر تعاقب عدة أنظمة سياسية في فترات تاريخية محددة:

أولها فترة الباي لارباي أو "باي البايات" من 1518 م إلى 1588 م، وقد عرفت هذه الفترة استقراراً بفضل الأخوين عروج وخير الدين بربروس².
والفترة الثانية حكم الباشاوات التي دامت من 1588 م إلى 1659 م حكم كل واحد منهم ثلاث سنوات.

¹ جمعية آفاق، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، دار الغرب للنشر والتوزيع، ج 1، وهران 2006، ص 21.

² سعيدوني، ناصر الدين والشيخ المهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 14.

والفترة الثالثة حكم الأغوات من 1659 م إلى 1671 م التي رغم قصرها
عرفت اضطرابات وفوضى.

أما المرحلة الرابعة فهي فترة حكم الدايات 1671 م إلى 1830 م، وعرفت
فيها الجزائر مقومات السياسة، وتمتعت بالاستقلال الفعلي عن الدولة العثمانية¹.
تميزت الجزائر في ظل التعاقب على الحكم عن باقي أقاليم الإمبراطورية
بإدارة منظمة، وعاصمة قارة، ذلك أمر جعلها دولة مكتملة السيادة ذات كيان
سياسي مستقل.

أما الجهاز الإداري فقد عرف تطورا منذ استقرار الحكم التركي بالجزائر وقد
قسمت إيالة الجزائر إلى " إقليم دار السلطان بمدينة الجزائر وبايليك الشرق
وعاصمته قسنطينة، وبايليك الغرب ومركزه وهران 1792 م، بعد أن انتقل مركزه
من مازونة إلى مستغانم، ثم إلى معسكر، وبايليك التيطري ومركزه المدية"².
وكان داي الجزائر يعين على كل بايليك باي، وهذا الأخير مطلق
الصلاحية في مقاطعته في مجال جمع الضرائب وحفظ الأمن.

ولم يعرف بايليك الغرب عاصمة مستقرة شأن باقي البايليكات، فمن مازونة
سنة 1563 م إلى معسكر سنة 1701 م ثم إلى وهران سنة 1708 م، ثم مستغانم
1732 م، ثم عاد مقر العاصمة إلى معسكر ثانية في 1737 م، ثم انتقل إلى وهران
سنة 1792 م.³

¹ المرجع السابق.

² نفسه، ص 20.

³ ينظر دواجي، عبد القادر جلول، ص 12.

ويجدر بنا أن نشير إلى أن الباي مصطفى بوشلاغم له فضل في الجمع بين أطراف المقاطعة ، مازونة شرقا وتلمسان غربا، وأصبحت معسكر عاصمة بايليك الغرب¹ ، وهذا الرجل الذي قام بمناوشة الأسبان مرارا لتحرير وهران، فكان له ذلك، ولكن سرعا نما استردها الأسبان فرجع إلى مستغانم، حتى توفي ودفن بها في 1737م، وخلفه ابنه يوسف الذي كان دون أبيه في الحزم والقوة².

يتبين من هذا أن الحياة السياسية في ظل الحكم العثماني عرفت استقرارا وتنظيما إداريا محكما خدم مصلحة الدولة العثمانية وحافظ على الروابط الروحية، كما عكس نظام الحكم - الذي أولى الأهمية الكبرى للعنصر التركي - الوضع الاجتماعي³.

لم يؤثر النظام السياسي في التقاليد المحلية التي كانت متأصلة بالجزائر منذ الفترة الإسلامية السابقة.

ولعل مرونة وفاعلية الجهاز الإداري وما أتاحه من استقرار، هو الذي طبع الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية بنوع من الحركية والانتعاش.

• الحياة الاقتصادية:

تميز النشاط الاقتصادي الجزائري في الفترة العثمانية بالتطور في مجال الزراعة خاصة، والصناعة من حرف ومهن يدوية وكذلك المبادلات التجارية. جاء هذا التطور والانتعاش الاقتصادي، بعد التفهقر الذي عرفته البلاد أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وفي القرن السادس عشر، والنصف

¹ نفسه، ص 15.

² المرجع السابق.

³ سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص 21.

الأول من القرن السابع عشر، تحسنت الأوضاع، فكثر الإنتاج الزراعي وتعددت المصنوعات المحلية، ونشطت المبادلات التجارية.

وقد أسهم في هذا التطور الاقتصادي والعمراني الوفود المهاجرة من الأندلس والتي استقرت بالسواحل، فاستصلحت الأراضي وعمرت المدن والقرى " حتى غدت فحوص مدن الجزائر، ودّلس، وتنس، وشرشال، والقليلة، والبليدة، وعنابة، ووهران، وتلمسان، وأرزيو، ومستغانم، وقلعة بني راشد، تشهد بإنتاجها الوفير من الخضر والفواكه، وأصبحت بعض المدن كقلعة بني راشد، ومازونة، وتلمسان، وقسنطينة، والجزائر، تعج بالصناع والحرفيين الذين كانوا يزاولون مختلف المهن والصناعات في ورشاتهم ومشاكلهم"¹.

ولنقترب أكثر من هذه المقومات والأنشطة، ونبدأها بالزراعة، فالزراعة تأثرت بعوامل وظروف مختلفة، وتحكمت فيها طبيعة الملكية، من ملكيات خاصة وملكيات البايليك وغيرها.

تعد العائلات في هذه الفترة هي الوحدة الإنتاجية والاستهلاكية في آن واحد، مع بعض الاستثناء حيث يأتي إشباع حاجات أفراد العائلة أول الاهتمام، ثم الإنتاج من أجل التسويق، ويأتي في المرتبة الثانية، لتحسين الدخل النقدي، ولتوفير ما يجب دفعه من ضريبة نقدية، والتي أعيت كاهل الأسر الفقيرة.

اهتم سكان المناطق الجبلية وسكان أحواز المدينة بزراعة الخضر والفواكه وتربية الماشية، كما عنت بإنتاج زيت الزيتون بطرق تقليدية وكان يصدر إلى الخارج، وعملت الأسر بتجفيف العنب والتين كمدّخرات معيشية.

¹ - المرجع السابق، ص 49 .

وقد تميزت كل منطقة بإنتاج فلاحي معين " فكانت المنطقة الواقعة بين سطيف وقالمة، المنطقة الرئيسية للحبوب، وكانت ناحية وادي زناتي أخصبها، وكانت المنطقة الواقعة بين الأطلسين التلي والصحراوي وشط الحضنة والحدود المغربية هي المنطقة الرئيسية لتربية الماشية، خاصة الضأن منها"¹.

وكانت الماشية تصدّر إلى الخارج لجودتها، كما عمل سكان جنوب الأطلس الصحراوي بتربية الإبل وإنتاج التمور، وبهجرة الأندلسيين إلى المناطق الساحلية جلبوا معهم زراعة التبغ الذي كان ينتج في عنابة والجزائر، وزراعة القطن الذي كان ينتج في مستغانم والمتيجة، كذلك أدخل الأندلسيون تربية دودة القز وإنتاج الحرير.²

إن الفلاح الجزائري عانى ظروفًا قاسية، ولئن حاول الأتراك، خاصة البايات منهم، تحسين الفلاحة بهذه الإيالة فإن ذلك جاء متأخرا، ولم يكن غرضه سوى ضمان مدا خيل أوفر للخزينة.

أما الصناعة فكانت موزعة بين الريف والمدينة، فسكان الريف كانت صناعتهم المنسوجات الصوفية والخيام والزرابي، وكان سكان الجبال يصنعون الأدوات الفلاحية والأسلحة التقليدية .

وأما سكان المدن فكانت صناعتهم تلبي الحاجات الأساسية لسكان المدن، كصناعات غذائية (طواحين ومخابز)، ومجوهرات وكماليات الفئات المحظوظة،

¹ نفسه، ص 336 .

² المرجع السابق

إلى جانب ورشات صغيرة للنجارة والحدادة، وطرز السروج، وصناعة الصابون
والدباغة، وصناعة السفن.¹

كان هذا التقسيم الحرفي جغرافيا و قبليا وأحيانا عرقيا فرضته ودفعت إليه
ظروف اقتصادية معيشية.

وعن النشاط التجاري للجزائر في العهد العثماني فكان يتوزع "على المدن
الكبيرة والأسواق الأسبوعية والموسمية، فمن أهم المراكز التجارية، مدن الجزائر،
وقسنطينة، وتلمسان."²

فالجزائر كان بها شارعان رئيسيان ممتدان تختلف فيها البضائع وتتنوع
السلع وتكثر فيها التبادلات وصفقات البيع والشراء.

وقسنطينة ارتبطت بها قوافل تونس والصحراء، تستورد ما تحتاجه من أدوية
وعقاقير و عطور وآلات حديدية وأقمشة حريرية وتصدر الصوف والبرانس والجلود
والحياك والمواشي والحناء وغيرها.

أما تلمسان فاستقطبت تجارة المغرب الأقصى وما يجلب من جبل طارق
من توابل وأقمشة، والعاج وغيرها، مقابل تصدير الإنتاج المحلي من حبوب وزيت
وصوف ومصنوعات.³

كانت التجارة في معظمها ضعيفة تعكس ضعف اقتصاد البلاد، فالصادرات
مواد أساسية للسكان والواردات كماليات تلبى رغبة الفئات المحظوظة في البلاد.

¹ نفسه، ص 336 وما بعدها .

² سعيدوني ، ناصر الدين، المرجع السابق ، ص 71 .

³ لمزيد من التفاصيل، ينظر المرجع السابق.

ونشير هنا إلى أن الإدارة التركية كانت شديدة الحرص على الأموال العمومية بما فرضته من ضرائب ورسوم وغرامات على الفلاحين والحرفيين والتجار، يعكس كل ذلك ضعف مدا خيل النشاط الاقتصادي للبلاد¹، من جهة، ومن جهة أخرى، حرمان وشقاء وكثرة المظالم في هذه الأوساط الاجتماعية.

• الحياة الاجتماعية:

يوصف الوضع الاجتماعي للجزائر أثناء العهد العثماني بتمايز السكان حسب نمط معيشتهم وأسلوب حياتهم واختلاف مصادر رزقهم، وطبيعة علاقتهم بالحكام، أمر جعلهم يصنفون إلى عدة طوائف وجماعات موزعين على المدن والقرى والأرياف " ويؤكد المؤرخون أن حوالي 90% منهم كانوا ريفيين."² وتختلف العلاقات في المدن عنها في الأرياف، فالمدن نسيج اجتماعي تتألف فيه فئات مختلفة.

ومدينة مستغانم، تكونت من مزيج بين " الأتراك والكراغلة والجالية اليهودية وسكان الحضر إضافة إلى العرب"³، وكذلك باقي المدن خاصة الساحلية منها.

كانت الأقلية التركية وتتشكل في أغلبها من الجنود (الانكشارية)، كانوا يستقرون في الثكنات والحصون أو يتوزعون على حاميات المدن⁴ وكانوا يعيشون في عزلة " متمسكين بلغتهم التركية وبمذهبهم الحنفي."⁵

¹ - ينظر صالح عباد، المرجع السابق، ص 354.

² - نفسه.

³ - دواجي، عبد القادر جلول، المرجع السابق، ص 32.

⁴ - ينظر سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص 92

⁵ - عباد، صالح، المرجع السابق، ص 357.

ربما رغبه في المحافظة على امتيازات، أو اعتقادا منهم أنهم فئة ممتازة تتفوق على باقي العناصر السكانية الأخرى.

ورغم امتيازات الأتراك الكثيرة، فقد كانوا يكتفون بوظائفهم الإدارية، أو الاشتغال في دكاكينهم أو استغلال أملاكهم في المدن أو بساكنهم، ونظرا لانغلاقهم على أنفسهم لم يؤثر في البنية الاجتماعية لسكان المدن ولا في طريقة عيشهم وأسلوب حياتهم.¹

أما الكراغلة فهم جماعة تكونت نتيجة تزواج أفراد الجيش التركي (الانكشارية) بنساء البلاد " وظهرت في المدن التي تقيم بها الحاميات التركية وهي الجزائر وتلمسان ومعسكر وقلعة بني راشد ومستغانم ومازونة ومليانة والمدية والبليدة والقلية وبسكرة وقسنطينة وعنابة"² وقد احتلوا المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي وكانوا كطبقة وسطى أو كحلقة تجمع بين الأتراك والأهالي وشكلت في وقت لاحق قوة تخشاهما السلطة لكثرتها .

ثم الحضر وهم الطبقة التي سكنت المدن " والتي تعود في أصولها إلى الفترة الإسلامية، وما انظم إليها من أندلسيين وأشرف، وقد تميز الحضر بعباداتهم وتقاليدهم الخاصة وبوضعهم الاجتماعي المتميز، مما جعلهم يؤلفون طبقة اجتماعية ميسورة، ويشغل أفرادها في المهن الصناعية والأعمال التجارية ويتولون وظائف السلك القضائي والتعليمي، وقد ظهر في هذه الطبقة الصناع المهرة، والتجار النشيطون، والبحارة المغامرون، والفقهاء والعلماء الأفاضل"³.

¹ ينظر سعيدوني، المرجع السابق، ص 94.

² نفسه.

³ - سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص 97 .

ولم تول هذه الطبقة اهتماما بأمور السياسة وشؤون الحكم، بل اهتمت
بتنمية ثرواتها واستغلال أملاكها.

وقد كان لتواجد الجالية الأندلسية نتيجة الهجرة أثر في الازدهار الاقتصادي
والتطور العمراني والنمو البشري الذي عرفته بعض المدن وبعث مدن أخرى
مثل تنس ودلس وشرشال، وأنشئت مدن جديدة كالقليلة والبليدة في حين تطورت
مدن أخرى قديمة كتلمسان، وأرزيو، ومستغانم وعنابة¹.

يضاف إلى الأندلسيين جماعة الأشراف قليلة العدد التي تتميز عن باقي
الحضر بانتسابها لآل البيت، والتي اشتهر أغلب أفرادها بالورع والتقوى، مما
جعلهم محل احترام السكان والحكام على حد سواء، إلى درجة تخصيص بعض
الأوقاف لصالحهم من قبل بعض الدايات، كما ساهموا في بناء زواياهم².

والملاحظ أن تأثير العنصر الأندلسي في مجتمع المدن كان عميقا مس
مختلف أوجه الحياة ، كونهم كانوا أكثر ثقافة وتطورا من غيرهم ، فقد طوروا
المهن، وطرق الزراعة والسقي " وساعدوا على شيوع اللغة العربية في بعض
الجهات التي ظلت تستعمل لهجاتها المحلية كنواحي أرزيو، وتنس، وشرشال
ودلس وبجاية"³ كما تركوا بعض التأثيرات الأسبانية كاستخدام العملة الفضية
والذهبية وكذا استعمال بعض المفردات الأسبانية التي استعملها حتى بعض
الشعراء في أشعارهم.

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص 98 .

² - نفسه، ص 99

³ - المرجع السابق، ص 98.

وهناك فئة البرّانية وهي مجموعات سكانية وفدت إلى المدن الكبرى لممارسة نشاطات اقتصادية مختلفة حسب أصولها الجهوية، وهي تعمل تحت إشراف أمين منها يختاره البايليك ، ينوب عنها في أمور الشرطة والقضاء وغيرها.

ومن العناصر البشرية المهمة المشكلة لسكان المدن، اليهود الذين منهم المحليين ومنهم المهاجرين مع المسلمين من الأندلس، والذين اشتغلوا بالتجارة وتميزوا بالثقافة والعلم الواسعين.¹

كما شكلت العناصر الأجنبية فئة الدخلاء من تجار، والقناصل الأوربيين، ورجال البعثات الدينية والإرسالات التبشيرية والأسرى² الذين يؤثرون في البنية الاجتماعية بشكل أو بآخر.

أما سكان الأرياف وهم غالبية السكان فيمكن تصنيفهم حسب "لويس رين" إلى أربعة أصناف³ وهي قبائل الأجواد، قبائل المرابطين، قبائل المخزن، وقبائل الرعية.

فقبائل الأجواد هم النبلاء وذوو النفوذ والقوة بين القبائل، وأمام هذا الوضع اضطرت السلطة التركية للتعاون معهم في كثير من المناطق، كما استخدمتهم لجمع الضرائب وتحصيل الجبايات والغنائم.

ولكن قبائل المرابطين كانت أكثر قوة من قبائل الأجواد، وقوتهم تكمن في استعمال الدين، حيث "كان الجميع يخشاهم من الأفراد العاديين إلى رجال السلطة من الأتراك، كان المرابطون ورجال الطرق ينتقلون في طول البلاد وعرضها دون

¹ ينظر المرجع السابق ، ص 102.

² نفسه، ص 104 .

³ ينظر صالح عباد، المرجع السابق، ص 362.

خوف من هجوم اللصوص وقطاع الطرق وغيرهم وكان المسافرون يصطحبون معهم أحد المرابطين ليتقوا شر اللصوص إن السلطة نفسها قد استعانت بالمرابطين في نقل الأموال عبر الطرقات غير الآمنة.¹

وقد زاد عدد الطرق الدينية فبعد القادرية والشاذلية في بداية القرن السادس عشر الميلادي ظهرت الشيخية والتيجانية والرحمانية والراشدية وغيرها كثير.²

لقد كانت علاقة المرابطين والطرقية بالأتراك علاقة مصالح متبادلة، إذ يتوسط المرابطون بين السكان والسلطة لصالحها، كما لعب المرابطون دورا كبيرا في تجنيد المتطوعين لمحاربة الأسيان ومواجهة الحملات الأوربية على السواحل الجزائرية، وفي المقابل يقدم الأتراك للمرابطين امتيازات كثيرة مادية ومعنوية.³

ولم تختلف هذه الامتيازات عن تلك التي أعطيت لقبائل الأجواد، بل إن من الأجواد من كانوا مرابطين في الوقت نفسه، ونشير إلى أن أهم دور قام به المرابطون هو سيطرتهم على المنظومة التعليمية .

أما قبائل المخزن فهي مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية، وهي حلقة وصل بين الأهالي في الأرياف والحكام في المدن،

"وتستمد قبائل المخزن وظائفها الحربية والإدارية من تقاليد التبعية والولاء التي طبقتها الموحدون، واتبعتها فيما بعد الزيانيون بتلمسان، وبنو حفص ببجاية

¹ -المرجع السابق، ص 363.

² نفسه.

³ نفسه ، ص365.

وقسنطينة ، وقد عمل الأتراك على البقاء على هذا النوع من القبائل المتعاونة¹ لأهميتها في جمع الضرائب، والسهر على تنفيذ تعليمات البايليك ، كل ذلك مقابل امتيازات، كرفع الضرائب والتمتع بالأمن والحرية عن سائر سكان الأرياف . وأما قبائل الرعية فقد عانت الاضطهاد والاستغلال المستمر ولم تحظ بأي امتياز من السلطة، وهي التي كانت تدفع الضرائب والرسوم المختلفة ، كما كانت تفرض عليها أعمال السخرة " وحتى لا تفلت قبائل الرعية هذه من قبضة رجال البايليك وضع على رأس القبائل الكبيرة منها قياد من الأتراك والكراغلة وشيوخ من العائلات المتعاملة مع البايات"² وقد أدت هذه الضغوطات إلى تفكك هذه القبائل وتشتتها .

وعن الحالة الصحية، كان المجتمع الجزائري يعاني من تعرضه لكثير من النكسات الصحية نتيجة " انتقال العدوى وانتشار الأمراض من الأقطار المجاورة، وذلك لصلة الجزائر بعالم البحر المتوسط، وانفتاحها على أقاليم السودان، وعلاقتها بالبلاد الأوربية و ارتباطها بالمشرق العربي."³

فمن هذه المناطق انتقلت أمراض الكوليرا، التيفوس، الجدري، والطاعون، والسل وغيرها. ومما ساعد على انتشار هذه الأمراض الموسمية ، كثرة المستنقعات بالسهول الساحلية وحول المدن الكبرى وانعدام الأدوية والعقاقير والمصحات، إلى جانب عدم التزام السكان بالقواعد الصحية⁴.

1 سعيديوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص 106 .

2 نفسه، ص 107 ومايليها.

3 نفسه، ص 88.

4 نفسه.

ولم يتخذ الحكام أمام هذا الوضع أي إجراء وقائي أو استشفائي، لعدم مبالاتهم. كما تعرضت البلاد إلى نكبات مثل زلزال مدينتي الجزائر والمدينة عام 1632¹، إضافة إلى ما اجتاح البلاد من قحط وجفاف وجراد، وصاحب ذلك ضغط عسكري ومالي، على الأرياف خاصة، جرّاء غلاء الأسعار وسوء الحالة المعيشية للسكان.

تُرى ما كان وضع الثقافة في هذه الفترة وفي هذه الربوع وفي هذه الظروف؟ سؤال نجيب عنه في تعرضنا للحياة الثقافية التي عايشها سيدي لخضر بن خلوف.

• الحياة الثقافية:

الحياة الثقافية هي المرآة العاكسة للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، لما لها من تأثير، فالاضطرابات السياسية وسوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية هي الوبال الذي يحل على الحياة الثقافية، ويقف حائلاً دون التطور الثقافي والحركة العلمية في جميع الأزمان وسائر المجتمعات.

إن الثقافة في البلدان الإسلامية كانت مرتكزة على العلوم الدينية من تفسير وفقه وعقيدة وحديث وسيرة نبوية، وقد امتازت الجزائر في العهد التركي بأن أضيف إلى هذه الثقافة انتشار الطرق الصوفية شرق البلاد وغربها، وكان جل الشيوخ وأتباع هذه الطرق من حفظة القرآن، وعلى دراية واسعة بالفقه والحديث مما ميزهم عن العوام من بني جلدتهم².

¹ - المرجع السابق، ص 89.

² - ينظر سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص 137.

ونركز على القطاع الغربي باعتباره يهمننا أكثر لقربه من مدينة مستغانم،
مسقط رأس الشاعر .

لقد كان بهذه المنطقة كتلمسان، مستغانم، معسكر، ومازونة مدارس
وكتاتيب اعتبرت مراكز علمية وثقافية أنعشت الحركة الثقافية ونشطت التعليم في
المغرب الإسلامي ككل، " تنافست مدن الغرب الجزائري كمازونة وتلمسان
وندرومة ومستغانم على التدريس والفتوى، ومن بين العلوم التي كان لها رواج،
الفقه المالكي.¹

ولاشك أن الوافدين من بلاد الأندلس من مسلمين ويهود أثروا على الحياة
الثقافية في المدن الساحلية التي حلّوا بها، بما جلبوا من عادات وصناعات وثقافة
كالموسيقى الأندلسية.²

أما التعليم ، فكان شبه مستقل عن الإدارة الحاكمة، وبقي على حاله لم
يتأثر بالتقلبات السياسية والحروب المستمرة، بل اهتم الأتراك " بالقضايا ذات
الطابع الديني، مثل بناء المساجد، وتنافسوا فيها أحيانا، وكذلك وقف الأملاك
على المشاريع الخيرية.³

وكان هذا التعليم ذو طابع ديني محض، مقسم إلى مستويات من الكتاتيب
إلى الزوايا " فالابتدائي للقرآن والكتابة ، والثانوي لعلوم اللغة والحساب ومبادئ
الدين، والكلي للأدب والفقه والجغرافيا والهندسة"⁴ وقد اشتهرت من هذه المدارس

1- دواجي، عبد القادر جلول، المرجع السابق، ص 27.

2- ينظر، صالح عباد، المرجع السابق، ص 19.

3- التلي، بن الشيخ ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830م/1945م ، الشركة الوطنية للنشر
والتوزيع، الجزائر 1983، ص13

4- بخوشة محمد، ديوان سيدي لخضر بن خلوف، نشر ابن خلدون، تلمسان 2001، ص38.

مدرستي المسجد الكبير وابني الإمام بتلمسان، ومدرسة مازونة شرق مستغانم، وعرفت معسكر التعليم من خلال مدارسها ومساجدها في عهد الباي محمد الكبير أما مدينتي ندرومة ومستغانم فلم تكن بهما مدارس مشهورة، لكن لعبت المساجد وملاحقها دورا هاما في الحياة الثقافية على المستوى المحلي.¹

واشتهرت تلمسان، التي كانت عاصمة دولة بني زيان قرابة ثلاثة قرون، بتخريج نفر كثير من المتعلمين والفقهاء.

أما مازونة ، فتعد قطبا معرفيا قصده طلاب العلم من داخل وخارج الوطن إضافة إلى أنها كانت مهد الحركة السنوسية ومنطلقها، وكانت تدرس مدرسة مازونة الفقه والحديث وعلم الكلام ،كما كانت منتدى يلتقي فيه العلماء والطلبة، ونظرا لأن شيوخ مازونة شاركوا الأتراك في حربهم ضد الأسبان فقد جددوا بناء المدرسة مرات عديدة عرفانا منهم بصنيع شيوخ هذه المدرسة ، وقد قال عنها أبو القاسم سعد الله² : " أما مدرسة مازونة فقد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في النواحي الغربية من البلاد، وكان لها نظام راسخ وتقاليد متينة استمدها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، وهي أيضا من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني، وقد اشتهرت بالخصوص في علم الفقه والحديث وعلم الكلام، واستمرت المدرسة تشع بالمعرفة حتى بعد انتقال العاصمة الإقليمية من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، وكانت مقصد طلاب النواحي الغربية،

¹ - دواجي، عبد القادر جلول، المرجع السابق، ص28.

² - سعد الله، أبو قاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص285 و ما يليها.

ولاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران، ومن أبرز خريجها، أبوراس
الناصر*.

ونضيف إلى نشاط الحركة الثقافية، مساجد معسكر كمنابر للعلم ومنابع
للتقافة، خاصة بعد مجيء الباي محمد الكبير الذي اتخذها مقر العاصمة
البايليك¹، وكذلك الحال بالنسبة لمساجد مستغانم وندرومة.

لقد كان للمساجد والزوايا الفضل الكبير في الحفاظ على الثقافة الإسلامية،
من جهة، واللغة العربية وثقافتها، من جهة أخرى، إلى جانب المكتبات التي
احتوتها هذه المساجد والزوايا.

فالملاحظ إذن أن السيادة في العهد العثماني عموما كانت للعلوم الدينية²
من تفسير وقرآيات وحديث إلى جانب علم الكلام والتصوف والمنطق، وفي علوم
اللغة والنحو والبلاغة والعروض وبعض فنون النثر كالرسائل والخطابة، ومن
العلماء والفقهاء المشهورين في هذه الفترة، أبوراس الناصر (ت 1238م) وقد كتب
في التاريخ، من كتبه "فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته" و"الحلل
السندسية"³، وأبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني صاحب "حلية
المسافر" و"ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار"، وأبو زكريا يحيى بن
أبي عمران المغيلي (ت 1478 م) صاحب "الدر المكنون في نوازل مازونة"⁴
وغيرهم كثير في الشرق والغرب.

* - هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن الناصر الجليلي.

1- دواجي، عبد القادر جلول، المرجع السابق، ص30.

2- ينظر أبو قاسم سعد الله، المرجع السابق، ص299.

3- نفسه، ج2، ص394.

4- ينظر دواجي، عبد القادر جلول، ص29.

لقد سيطرت روح التصوف على الحياة العلمية والثقافية والاجتماعية في الفترة العثمانية بالجزائر، فأكثر إنتاج العلماء والأدباء كان في هذا الميدان، إذ نجد الكثير من الكتب والرسائل والأشعار¹ التي تتناول التصوف من قريب أو بعيد كالأذكار والأوراد، الردود، المناقب، والمواعظ، والحكم، والشروح الخاصة بقصائد الصوفية والمدائح النبوية التي تنظر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته نظرة صوفية روحانية¹، ولم يكن العصر عصر فقه ونظر عقلي.

أما عن حالة الشعر وأغراضه فقد كان مزدهرا نسبيا في الدين والسياسة، والاجتماعيات والشعر الذاتي أيضا، وشاع الشعر الملحون لظروف أدت إلى انتشاره وشيوعه حتى "أصبح لسان كثير من الناس".² ومن أشهر شعراء هذه الفترة، والذين لهم دواوين شعر؛ المنداسي ابن علي، ابن عمار، المقرئ، ابن حمادوش، المانجلاتي، ابن سحنون، ابن الشاهد، وغيرهم، ولم تنتشر دواوينهم إلى اليوم ما عدا المنداسي.³

إن الدافع الديني كان من أهم بواعث الشعر، إذ يسجل الشاعر فيه مشاعره في المواسم الدينية كالحج والمولد النبوي الشريف، وإلى جانب الباعث الديني هناك الباعث السياسي المتمثل في الدعوة إلى الجهاد وتمجيد النصر في المعارك ضد الأتراك، ولكن الشعر الديني هو الغالب، خصوصا المدائح النبوية. ومن قصيدة نادرة للشاعر الصوفي أبو محمد عبد الله بن عمر البسكري الذي عاش في القرن الثاني عشر الميلادي في مدح المدينة المنورة:⁴

1- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص117 وما يليها.

2- نفسه، ص247.

3 ينظر المرجع السابق، الصفحة نفسها.

4- نفسه، ص253 وما يليها.

دار الحبيب أحق أن تهواها ونحن من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون متى هممت بزورة يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
فلأنت أنت إذا حلت بطيبة وظللت ترتع في ظلال رباها
معنى الجمال من الخواطر والتي سلبت عقول العاشقين حلاها
لا تحسب المسك الذكي كثر بها هيهات أين المسك من رباها
طابت فإن تبغ التطيب يا فتى فأدم على الساعات لثم تراها

وفي نفس الغرض قصيدة لمحمد بن محمد العطار الجزائري، ولعبد الكريم

الفكون أيضا ديوان شعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم.¹

وهكذا فالشوق إلى البقاع المقدسة والحنين إلى زيارتها، ومدح الرسول صلى

الله عليه وسلم أغراض قديمة عند الشعراء الجزائريين.

وقد اشتهر إلى جانب شعراء العربية الرسمية شعراء الملحون في شتى

الأغراض الشعرية مثل سيدي لخضر بن خلوف - محل دراستنا - وأبو عبد الله

محمد المغوفل، اللذان ذكرهما الدكتور أبو القاسم سعد الله:² "ومن شعراء المديح

النبوي أيضا لكحل ابن خلوف وأبو عبد الله محمد المغوفل، وكلاهما اشتهر في

هذا الباب ولا سيما الأول حتى أصبحت قصائده تغنى وتروى على مختلف

العصور، وكلاهما أيضا من رجال التصوف وقد أشاد بوراس بن الناصر بالأول،

فقال إنه من اشتهر بمدح النبي صلى الله عليه وسلم شهرة ابن عروس بتونس.³

¹ - ينظر المرجع السابق، ص254.

² - نفسه ، ص257.

³ - نفسه ، ص257.

كما قد خلد في أقدم قصائد الملحون ذكر المعركة التي دارت بمرسى مستغانم بين المسلمين والأسبان المعروفة " بوقعة مزهران" * التي شارك فيها كجندي، وقد بدأ قصيدته بقوله:

يا سايئني عن طراد الروم قصة مزهران معلومة¹

وبعد تعرضنا في هذا المدخل للمكان والزمان اللذين عاش فيهما الشاعر وأسهبنا في الحديث عن الحياة الثقافية التي سبقت وواكبت شاعرنا لأهميتها، ننتقل إلى التعريف بالشاعر وشعره.

2 - الشاعر:

أ - حياته:

• أصله ونسبه:

هو سيدي "لخضر" أو "لكحل" بن عبد الله بن عيسى الشريف الإدريسي المغراوي نسبةً، كما بيّن ذلك محمد بخوشة في مقدمة ديوانه الشعري؛ " فهو شريف إدريسي، أما مغراوة، فإنها بلاد نشأته، وقد صرح التاريخ بأن مغراوة بطن من زناتة."² أما عن المولى إدريس الأكبر فيقول جامع الديوان: " يرجع نسب سيدي لخضر بن خلوف إلى مولى إدريس الأكبر - رضي الله عنه - فهو مغراوي الأصل شريف النسب، يلتحق بجده عيسى الذي انتقل إلى (الشقران) ، من ناحية مستغانم، وإليك سلسلة حسب ما ذكرها الإمام السيوطي - رضي الله

* - وقعت المعركة في عام 965 م.

1 - المرجع السابق ، ص326.

2 - بخوشة محمد، ص113.

عنه - وهو عيسى بن الحسن بن يعقوب الشريف بن عبد الله بن عمران بن صفوان بن يسار بن موسى بن سليمان بن يحيى بن موسى بن عيسى بن إدريس الولد بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن البسيط بن علي كرم الله وجهه، نعم إن سيدي لخضر مغراوي الأصل شريف النسب¹ وقد ذكر الإمام علي في شعره وأشاد به في غير ما موضع كقوله:

ابن عم النبي صواب الأمير علي ارضاه ربي واعطى له²

وقوله:

اللهم ارضى عن المكنى حيضة اسمه عبد الإله ثم الأمير علي³

¹ - نفسه، ص 24.

² - نفسه، قصيدة "إلا وجه الحبيب غاب"، ص 113.

³ - نفسه، قصيدة "ألف استمثلوا كلامي"، ص 60.

وقوله:

بجاه سيف مصقول تقهر به الاعداء وجاه الإمام حيضر هزام الكفار¹

فأي شرف كهذا يرقى بالشاعر إلى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر ذلك في شعره بعد أن ذكر اسم والده:

الله يرحم قائل لبيات لكحل واسم باباه عبد الله

مشهور اسمه في الأنعام مغراوي جده رسول الله²

ثم ذكر اسم والدته ونسبها في كثير من المواضع:

وأمه من بيت محسنات اليعقوبية لالا كله³

كما وقد خص أمه " كله " أو " خوله " بقصيدة يترحم فيها عليها، ومنها:

رضعت ثديها وشفيت بالأبصار وخدمتها بكل مسالة

بحسان دعوتها كافاني القهار ارحم اعظام أمي كلة

يا رب نرغبك بحوادث لجفار ارحم أعظام أمي كلة⁴

وهكذا فنسبه شريف يعود إلى عترة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. أما عن تسميته مرة بلكحل وأخرى بالأخضر فإن الذاكرة الشعبية لجأت إلى ما توارثته الأجيال، أو ربما كان من نسج خيال العامة، ومؤدى ذلك أنه مر على زواج أبيه

1- المرجع السابق، قصيدة " قم صلي "، ص172

2- نفسه، قصيدة " قصة مزگران "، ص187

3- نفسه، ص187.

4- جمعية آفاق، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، ج1، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران

2006، ص70

عبد الله بكلة ردحا من الزمن ولم يرزقا بمولود يؤنس وحشتها، فأنابت المرأة إلى ربها وأسلمت له، وأخلصت الدعاء فاستجاب لها ربها ولم يخيب ظنها¹ يقول الشاعر في ذلك:

قبل الصيام راني وارث وقعدت في أحداب الظهرة
منهم جدود ثم سبقت واليوم تزعزعت يا حضرة
العباد من الأسلاف رحلت وأمي تهولت بالعشرة
دعات الكريم المولى رفعت كفوفها للحي القهار
ودعات ما دعاوا الرسلا ما خاب ظنها مرفوعة الأقدار²

وذات يوم ذهبت لزيارة رجل صالح يدعى سيدي محمد لكل تبركا به كرجل صالح تقي، عرف بورعه، فنذرت إن رزقها الله مولودا أن تسميه باسم هذا الرجل التقي " لكل " ليكون مثله في صلاحه وورعه، وما هي إلا أيام مضت حتى بدت عليها علامات الحمل، فحمدت الله على ما وهبها، وحدث أن رأت في منامها أن حزاما أخضر مرصع بقطع ذهبية يطوقها، فأفتاها من حولها بأنها سترزق بمولود يكون ذا شأن بين الناس فرغبت في تسميته الأخضر، فكان مولودا باسمين لكل والأخضر، وكلاهما يرمز إلى لونين متناظرين، فالأخضر للتفاؤل، والأكل للتشاؤم، كما ذكر أنه كان وحيد أمه، وخوفا عليه سمته لكل لتدفع عنه شرالعين والحسد.³

¹ - ينظر المرجع نفسه، ص22 وما يليها

² - المرجع السابق، ص71

³ - نفسه، ص23

وتختلف الروايات في هذه التسمية على السنة العامة خاصة في المحافل،
كمهرجان سيدي لخضر الذي يقام في المنطقة كل صائفة.

أما الغالب عند الطبقة الشعبية فهي تسمية الأخضر، وقد ارتبط هذا اللون
بالأولياء الصالحين وطلاء أضرحتهم، وغطاء قبورهم، وكذلك بعض المساجد،
ولون أفرشتها وكان هذا اللون مرتبطا بالعبادة، أو بالآخرة، وربما تقاؤلا بخضرة
الجنة ونعيمها¹، وقد تكون تسمية لكحل راجعة إلى أن ابن خلوف كان أكحل
العينين، أو يعلوا مواضع الكحل في عينيه سواد، فسمي بالأكحل² من قبيل
تسمية الكل بالجزء.

أما عن أصل تسمية ابن خلدون فلم نعثر لها على شيء يذكر، وقد وردت
في شعره بأشكال مختلفة، فمرة، ابن خلوف، ومرة ولد خلوف وأخرى الخلوفي أو
ابن خلوفي ونحن نعتقد أنها كنيته أو كنية أبيه أو كنية أسرته.

• مولده ونشأته:

لم يثبت في ترجمة لسيدي لخضر بن خلوف تاريخا محددًا للولادة، ربما
لعدم اكتراث الناس بثبت تاريخ الميلاد، وإن كان هناك تقييد، فبالسمة المميزة لفترة
ما، أو حادث مشهور، كما فعل العرب قديما فقالوا: "عام الفيل" أو "عام الرمادة"
أو ربما بتقادم الزمن يذهب الثبت طي النسيان، ولعل ما وصلنا من شعر الرجل
كفيل بأن يحيلنا إلى تاريخ الميلاد، أو يجعلنا نقرب منه قليلا، حيث يقول في

¹ - دواجي، عبد القادر جلول، ص42
² - ينظر، ابن منظور، لسان العرب، دار الفكر، ط1، بيروت 2008، مادة كحل

قصيدة مشهورة له تنعت بـ: " بقاوا بالسلامة " ¹ أو "الوصية"² أو عند عامة الناس
" بالوفاة":³

من قرن الثمانية اديت سنين وزايح والايام هاملة والجالب مجلوب

بفضل النبي تميت القرن التاسع والفلك ينثنى والحاسب محسوب⁴

فمولده على هذا يكون في أواخر القرن الثامن الهجري، وعاش القرن

التاسع الهجري كله، لتوافيه المنية في أوائل القرن العاشر.⁵

وقد عمر الشاعر طويلا كما يبين ذلك في هذا البيت:

جوزت ميا وخمسة وعشرين حساب وتميت من ورا سني ست اشهور⁶

فالملاحظ أنه عاش ما يزيد عن مائة وخمسة وعشرين سنة قمرية، أي ما

يعادل مائة وواحد وعشرين سنة شمسية، إذا اعتبرنا أن السنة القمرية تنقص

بحوالي أحد عشر يوما في السنة.⁷

وإذا اعتبرنا لفظة "تميت" في البيت السالف الذكر، بمعنى لم يزد عليها،

أي أتم ستة أشهر بعد مائة وخمسة وعشرين عاما وحضر أجله، واعتبرنا لفظة "

تميت" في البيت الذي سبق:

1- بخوشة محمد، الديوان، ص24.

2- جمعية آفاق، المرجع السابق، ص 21.

3- نفسه .

4- هكذا في الديوان، وفي المرجع السابق:

من قرن الثمانية عديت سنين وزايح والايام ماضية والحاسب محسوب

تميت بهمة القرشي القرن التاسع والفلك ينثنى والجالب مجلوب

5- جمعية آفاق، ص21.

6- بخوشة، قصيدة " أبقاوا بالسلامة"، ص 193 .

7- ينظر كتاب، جمعية آفاق، ص 22 .

بفضل النبي " تميت " القرن التاسع والفلك ينثنى والحاسب محسوب

تحمل نفس المعنى، تبين لنا أنه توفي في سنة 900هـ وعليه يكون ميلاده في عام 775هـ، خاصة إذا علمنا أن البيتين من نفس القصيدة نظمها وهو على فراش الموت يوصي أولاده وهي قصيدة " ابقاوا بالسلامة " .

أما عن نشأته فقد نشأ في جبال مغراوة الجزائرية، ويقول جامع ديوان محمد بخوشة: " نشأ سيدي لخضر بن خلوف في ناحية من جبال مغراوة الجزائرية، في وسط كريم مشهور بخصال العرب، عندئذ كان أول عصر الاحتلال التركي، ويمتاز زمانه بانحطاط السياسة الداخلية، مع وجود ثقافة عربية إسلامية ذات بال¹، ولعل هذه الثقافة العربية الإسلامية التي نشأ عليها هي التي تجلت في أشعاره فيما بعد، وأضفت عليها روحا إسلامية وفيضا ربانيا.

هذه المنطقة من جبال مغراوة هي مزگران التي قضى فيها شبابه مع عائلته حيث الخضرة الدائمة والماء والأمان، يقول في قصيدة "بقاوا بالسلامة" ما يؤكد ذلك :

حصراه وين نجع الظهرة من فايت منهم قبيلتي وأهلي والعشران

حصراه على الدنيا كلّي ما كانت عديت شبوب صغري في مزگران²

وما إن شب عوده واستقام، حتى وجد من حوله الغزاة الأسبان، يريدون مد نفوذهم وبسط سيطرتهم على أرضه الطيبة ، فنقلد سيفه مثل أقرانه، بقيادة

¹ - بخوشة، الديوان ، ص23 .

² - جمعية آفاق، ص111.

الأتراك، يذب عن الوطن والدين، ويرد كيد الكائدين، وقد خلد هذا النصر المظفر
في قصيدة " قصة مزگران " التي مطلعها :

يا فارس من ثم جيت اليوم عيد أخبار الصبح معلومة

يا سايلني عن طراد الروم قصة مزگران معلومة¹

ولما بلغ أشده وبلغ أربعين سنة، ضرب صفحا عن حياة الشباب، وعكف
زاهدا عن الدنيا وملذاتها، شُغله مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شغل له
غيره، يقول مبينا ذلك:

جوزت ميا وخمسة وعشرين حساب وتميت من ورا سني ست أشهر

منها مشات أربعين سنة مثل السراب واللي بقا مشا في مدح المبرور²

وظل في تلك الربوع وعلى هذه الحال يمدح النبي صلى الله عليه وسلم،
حتى لقب بشاعر الرسول أو مداح الرسول.

• أسرته:

لم يمنع زهد سيدي لخضر وانصرافه عن الدنيا من أن تكون له زوجة وأولاد
وخادم، ذكرهم كلهم في معرض وصيته لأولاده في قصيدة " بقاوا بالسلامة " التي

¹ - نفسه.

² - بخوشة، الديوان، ص193.

تعتبر سيرة ذاتية في قالب شعري ختم بها حياته كإنسان وكشاعر، فقد ذكر زوجته في شعره ودعا لها ولأمه، فزوجته اسمها "قنو" وأمها "كله"، يقول:

يا رب العرش جود عليا بالدعا وارحم "قنو" زوجتي وأمي "كله"

بجاه حرم الخميس لثنين والجمعة وبحرم السادات كلهم جوف وقبله¹

"وقد تزوج سيدي لخضر "بقنو" بنت سيدي عفيف الذي يوجد ضريحه غرب مدينة سيدي علي، ويقال إن "قنو" هي ابنة عم أمه "كله"، على أن سيدي عفيف هذا أخ سيدي يعقوب الشريف.²

أنجبت له هذه الزوجة خمسة أولاد، أربعة منهم ذكور والخامسة أنثى، وهم محمد، أحمد، الحبيب، بلقاسم، والبنت حفصة، وقد جاء ذكرهم في قصيدة "بقاوا بالسلامة" حين اجتمعوا حوله ليوصيهم إذ يقول:

انت يا محمد اتهلّى في خيمتي انت كبير داري وانت مولاها

وانت يا احمد خوذ ادي سبحتي بها تتفكرني وقت ان تقرأها

وانت يا بلقاسم عمم بعمامتي تكون لك هيبة للي يراها

وانت يا الحبيب نطفة من الكبدة خود ادي شملتني وبرانيس الصوف³

ثم ذكر حفصة وأوصى بها إخوتها خيرا:

1 - جمعية آفاق، ص 29 .

2 - نفسه، ص 28

3 - نفسه، ص 29.

بروا يا ولادي باختكم هجالة حفصة المكنية بنت مداح البشير

البنت ياك تنهان بلا رجالة انتوما رجالها يا نسب طيب الخير¹

والملاحظ أنه سمى أولاده بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم وكنيته، لتجد في أدق أعمال شاعرنا أثر حبه للنبي صلى الله عليه وسلم، لعله ينال بذلك الشفاعة ، يقول الشاعر في ذلك :

يامحمد عليك سميت اولادي بلقاسم والحبيب هما ولاة

احمد ومحمد ذخيرتي وزادي بهم نفوز في نهار الشفاعة

وبنتي حفصة نعمة من كبادي ربيت الولف عليها من الرضاعة²

كما كان لسيدي لخضر خادما ، قدم سبعين عاما من حياته لخدمته ليل نهار، وقد ذكره واستوصى به خيرا أيضا، يقول الشاعر في ذلك :

إرفعوا خديمي بالعز الظاهر أصله عزافري من جبل الصرصار*

سبعين سنا عداها لي شاكر جاري في خدمتي في كل ليلة ونهار³

يتجلى من خلال الأبيات التي سقناها من قصيدة " ابقاوا بالسلامة " أو

"الوصية"، أن الأسرة كانت على جانب كبير من الصلاح، تبر الوالد، وتقيم

شعائر الدين ، وعلى هذا فهو في وصيته لم يورثهم مالا ولا جاها، بل أورثهم قيما

1 - المرجع السابق

2 - نفسه.

* - جبل الصرصار قرب مدينة عين تموشنت

3 - نفسه، ص 110 .

أخلاقية ومثلا عاليا ، وكانت القسمة بينهم تركة الزاهد: " عمامة " و"سبحة" و" شملة" و"برانيس الصوف".

وهكذا كان الشاعر رغم ورعه وزهده يعيش حياة عادية كعمامة الناس في زمانه، إلا أنه فاقهم في أن اجتمع فيه إلى جانب الزهد والصلاح، سعة الثقافة والاطلاع، ورحابة الأفق المعرفي، خاصة بعلوم الدين من قرآن وسنة مطهرة.

• تكوينه وثقافته:

عرفت المنطقة التي عاش فيها الشاعر تنافسا في مجال التدريس والفتوى على غرار مدن الغرب الجزائري، وراج الفقه المالكي، خاصة في مدرسة " مازونة"¹ فانتشرت الكتاتيب، والزوايا، وأقيمت الحلق في المساجد، وكما جرت العادة كان أول ما يبدأ به الصبية تعلمهم هو حفظ القرآن الكريم .

لم يشذ شاعرنا عن هذه التقاليد، فقد بدأ تعليمه الأول " في الكتاتيب، على يد أكثر من "درار"* بدءً بسيدي امحمد لكحل، ثم سيدي بولحيه، المعروف عند أهل المنطقة بسيدي بوحية، والذي يوجد له مقام في دوار أولاد غازي 600م جنوب قبة سيدي لخضر، أين دفنت أمه وزوجته."² كما جاء في شعره ذكر مرحلته التعليمية الأولى هذه:

اسمع انحدثك ادي مني فايده قندوز عند درار يقرا في صحوف

بالترجمان والقاضي والمشاهدة نوريك مادرك لكحل ولد خلوف³

¹ - ينظر، دواجي عبد القادر جلول، الخطاب الشعري، ص 29

* - درار: أي معلم صبية.

² - جمعية آفاق، ص 26.

³ - نفسه.

ولسرعة حفظ الشاعر واستعداده الفطري تسنى له " حفظ القرآن عن شئخة
وصهره، في نفس الوقت، سيدي عفيف، الذي رأى فيه الخلال الحميدة وحسن
الخلق فبادر إلى أن يزوجه ابنته "قنو"، فتزوجها الشاعر طاعة لشيخه وإرضاء
له.¹

أهلت الفطنة المبكرة والذكاء المتوقد سيدي لخضر لتحصيل العلم الذي
أخذه " عن مجموعة من المشايخ والفقهاء والعلماء من بينهم " سيدي بلقاسم
بوعسرية " و كان من النجباء والطلبة المشهورين وتتلذذ كذلك على يد أستاذه"
سيدي محمد بن شاعة العالم الفقيه .²

تبوأ سيدي لخضر مكانة مرموقة في الأوساط الشعبية في عصره، وكان
محل احترام وتبجيل لسعة علمه وتقواه، حتى عرف بالشيخ والفييه والإمام، " ولقد
كان في زمانه يسمونه، شيخ الشيوخ، وفييه الفقهاء، وإمام الأئمة لسعة علمه
وسرعة الحفظ ، وقوة الإقناع بالحجة والبرهان والدليل.³

وكان من نتائج تحصيل العلم، وحياسة الثقافة الواسعة، أن تفتقت شاعرية
سيدي لخضر، فجاء بشعر مرصع بالذهب يلمع في دنيا الناس :

لخضر يقول كلمة بميزانها مرصع بالذهب شعره وقادي⁴

1- دواجي عبد القادر جلول ، المرجع السابق ، ص 41.

2- المرجع السابق.

3- نفسه، ص 41

4- بخوشة ، الديوان، ص 106.

ولأدل على كلامنا تواتر هذا الكم الهائل من القصائد، حتى وصلنا رغم بعد الفترة الزمنية وتوالي الأحداث بأيامها ولياليها الحالكات، وهو اليوم محفوظ في ديوان تتناقله الألسن وتتغنى به الحناجر، فتطرب له الآذان وترق له القلوب.

• ملامح من شخصيته :

نحاول رسم بعض الملامح التي تبرز شخصية سيدي لخضر من خلال أشعاره، فقد اجتمعت في شخصه خصال متميزة جعلت منه رجلا صالحا، محمود السيرة في عصره وبين أهله، ومن أهم السمات البارزة في شخصيته، إخلاصه في طاعة الله وخاصة في حب نبيه، فهو الموحد الواقف عند حدود الله، الذاكر العارف بسر التوحيد، المعرض عما يشوب توحيده الخالص من تعلق بالدنيا وزينتها، ويكفيك دليلا قوله:

لا إله إلا الله بالنفي والثبات الثبات إلى الله والنفي لغيره

لا إله إلا الله توحيدها بيات في ضمير المرید المستجيره

لا إله إلا الله مادامت الحياة نذكر اسم القادر المقتديره

لا إله إلا الله من سرها غرام جالبة أهل الخلوة سالبة عقولها

تمتج في الجسد والروح والعظام نافية شغل الدنيا و جميع موالها¹

ويمتج حب الله ، في قلب ابن خلوف ، بحب النبي صلى الله عليه وسلم:

حبك في سلطان جسدي ما اعزك يا عين وحدا *²

¹ - بخوشة، الديوان، ص 161.

* - عين وحدة، تعبير عند العامة بمنى ثمرة الفوائد، أو قررة العين.

² - نفسه، ص 41 .

وقد أفضى هذا الحب النوراني بالشاعر إلى رؤية حبيبه صلى الله عليه وسلم في منامة مرات عديدة، يحدوه في ذلك يقين صادق وصفاء في النية متواصلين لا يخيب صاحبهما:

يكفيني صدقي و نية لخضر كيف يكون خاطي

تسعة وتسعين روية و العاطي مازال يعطي¹

كيف يخيب وهو الذي اتخذ من مدح النبي صلى الله عليه وسلم حرفة له:

الناس لكل واحد حرفة وأنا حرفتي العدناني²

ومن سماته البارزة أيضا تواضعه في حق ربه، فهو الحافظ للقرآن الكريم

العامل به:

فضل الله كتابه عندي يكفيني قوتي وغدا³

وهو المقيم لشعائر الدين من صلاة وصيام وقيام ومع ذلك فهو الجاني:

اغفر لابن خلوف الجاني أواه ابن خلوف المداح اليوم غاب⁴

وهو يرى نفسه أهون خلق الله إذ يقول:

لا غيرك شافع يشفع من هو عرّة بحالي⁵

ولم يقدم من العمل إلا الذنوب و المعاصي:

1 - جمعية آفاق، ص 92

2 - بخوشة، الديوان، ص 142.

3 - نفسه، ص 42.

4 - المرجع السابق، ص 146 .

5 - نفسه ، ص 44 .

ما قدمت إلا ذنوبي هب لي يا مولاي توبا¹

لملح آخر بارز عند ابن خلوف، هو الشجاعة، فقد أبلى البلاء الحسن في جهاده ضد الكفار الغزاة في يوم مشهود، هو يوم معركة مزگران، إذ يقول مشيدا بشجاعته :

سيفي مجرد وأنا نضرب في العدا والناس دالجة من زجري بالخوف

خلفي وعلى يميني الجماجم راقدة والخلق طايحة تنحسب بالألوف²

يضاف إلى هذه السمات سمات أخرى، كالجود والكرم والإيثار، والتمتع بسعة المعرفة، خاصة منها الدينية، وكلها مبنوثة في أشعاره تبوح بشخصية عربية تتضح بالأنفة والفحولة، وانظر إلى هذين البيتين في الكرم وما بلغه من جود جعل الحداة يتغنون به :

الضيف إذا طلب تكون لو مكافة سايل عند الباب واقف طالب

مكافية الأجواد ما هيشي عيافة تمثيل بزيل صاق بيها الحادي³

هذه الملامح كلها مجتمعة شكلت شخصية ابن خلوف الرجل الصوفي، وأما الشاعرية فتلك ترجمان وجدان يتنزي دررا وبقايتا.

• جهاده:

لم يكن سيدي لخضر ذلك العابد الزاهد في محرابة بمعزل عن أمر المسلمين من حوله، بل كان يهتم أيضا بأمر وطنه، مثل ما اهتم بأمر دينه،

¹ - نفسه ، ص 43.

² - جمعية آفاق، ص 111.

³ - نفسه، ص 224 .

والشاهد على ذلك مشاركته في الجهاد لرد العدوان، والذود عن ترابه وأرضه، فقد وصلنا من أشعاره ما يثبت ذلك في قصيدتين، سجل فيهما أحداث معركتين شارك فيهما وأبلى بلاء الأبطال البواسل.

أما المعركة الأولى فهي "معركة شرشال، وهي المسيرة مابين الجزائر العاصمة ومستغانم ومزران، مروراً بالبليدة، الشلف، المرجى، ومقام سيدي عابد وسيدي بوعبد الله قرب وادي رهيو".¹

وهي معركة شارك فيها الشاعر كقائد شجاع يعي مسؤولياته، يقول فيها وقد هاله العدد والعدة :

شاب راسي من قوة ليعة الحمال مسطرين الفرسان ماشية وجاية
والخلوفي ينده ويسايس في الأبطال والعرب بسناجق والقوم غازية
في جبل شرشال حطينا للقتال يحق في ذلك اليوم امرا باكية²
وقد عينه خير الدين بربروس في منصب "باشا خيال" إذ يخبرنا بذلك هو
عن نفسه فيقول :

باشا خيال كنت نهاتي من العرب في حكمة خير الدين العادل الأصيل
راكب على فرسي نسوق لشهب هنا وغادي بقربصوني يميل
إذا نعبر سيفي من شافني رهب ولتراك تهاتي بيا في كل جيل³

¹ - المرجع السابق، ص 31 .

² - دواجي، عبد القادر جلول، الخطاب الشعري، قصيدة "ليلة الهجوم"، الملحق الشعري، ص 276

³ - نفسه.

فاقت شجاعة الرجل وبسالته كل وصف، بشهادة من شهد الواقعة، وفي هذين البيتين عرض لأحوال المعركة :

ماصرا ذلك اليوم على المجاهدة كل فارس ملتهى في دمو يعوم

مئة وخمسين كافر والناس شاهدة قتلتها من شنضاض وثرابة الروم¹

ومهما شكك مشكك في صدق هذا الخبر، فقد كان الرجل مؤمنا بقضيته، صادقا في جهاده، وذلك حال من يطلب إحدى الحسنين، إما الشهادة أو النصر، خاصة إذا علمنا أنه القائل:

يا الله، يامدور لفلاك بالقدار بجاه نبيك وعرشك ميتي شهيد²

وأما المعركة الثانية فهي " وقعة مزگران " التي تناولها كثير من المؤرخين، فهذا أبو القاسم سعد الله يقول: " ولعل من أقدم القصائد الشعبية الموالية للعثمانيين والتي سجل صاحبها، وهو الأكل بن خلوف (المشهور بلخضر)، المعركة التي دارت بمرسى مستغانم بين المسلمين والأسبان، وهي المعروفة "بوقعة مزگران " والجدير بالذكر أن ابن خلوف قد ربط بين جهاد المسلمين في الجزائر، وجهادهم في غرناطة، ثم فصل القول بما جرى بين جيش المسلمين بقيادة حسن باشا وجيش الأسبان بقيادة الكونت "دالكادوت" ، وكان الشاعر متحمسا لأن المسلمين انتصروا وقد بدأها بقوله :

يا سايني عن طراد الروم قصة مزگران معلومة³

¹ - المرجع السابق، ص 277.

² - جمعية آفاق ، قصيدة " يالساني المودي " ص 245.

³ - أبوا القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 2 ، ص 326 .

وقد جرد ابن خلوف سيفه في هذه المعركة وكله ثقة في أن النصر حليفه، فكان له ذلك، إذ انتصر جيش المسلمين ولقي القائد الأسباني حتفه إلى جانب آلاف من جنوده، يقول الشاعر في ذلك :

سيفي مجرده وأنا نضرب في العدا والناس ضاجة من زجري بالخوف

يمني وعن شمالي الجماجم راقدة والخلق طايحة تنحسب بالألوف¹

ويقول في قتل القائد :

اقتلنا من كان قايدهم واصحابه بالكثرة باقوا ثما²

وهكذا تحمل روح ابن خلوف صفة الرجل الصوفي الورع ، المحب للنبي صلى الله عليه وسلم ، وصفة المجاهد الذي تحركه الحمية للدفاع عن الوطن وحمائته، وصفة الشاعر المتأجج الشاعرية، وهي صفات قلّ ما تجتمع في رجل واحد ، إلا أن يكون ولياً من أولياء الله الصالحين.

• الولي الصالح:

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: « أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»³ ولكي تثبت الولاية لشخص ما عرف بالصلاح والتقوى، لا بد أن يحظى بكرامة، أو كرامات تبدي علوّ شأنه ورفع مقامه، وهي من ربّانيّ، وتأييد إلهي في شكل أمر خارق للواقع برعاية من المولى عز وجل.

¹ - بخوشة ، الديوان، ص191

² - نفسه، ص186

³ - سورة يونس، الآية 62.

وعادة ما تكون هذه الكرامات خفية لا يصادفها العامة من الناس، وإذا صادف أن اطلعوا عليها زادوا من نسج خيالهم حولها، وقد علمنا من هذه الكرامات ما يعكس سذاجة أصحابها لغرض في أنفسهم بدعوى عصبية، فيها كثير من الجاهلية الجهلاء.

وأما ما اجتمع في رجل مثل سيدي لخضر بن خلوف من صلاح الحال، وصدق المقال، ونبل الفعال، فليس ما ذكر عنه من كرامات ببعيد المنال. وسنورد ما توارثته الذاكرة الشعبية من كرامات عرفت عن الرجل، وسنجدد في صياغتها لنضفي عليها صيغة تليق بمقام ابن خلوف الولي الصالح والمجاهد الباسل والشاعر الحاذق.

تعرف الكرامة الأولى " بالأمانة"¹ عند العامة، ومؤداها أنه، اتفق أن رأى سيدي لخضر في منامه سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم، ورؤيا النبي حق، لقوله صلى الله عليه وسلم: " من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي."² متفق عليه. يقول ابن خلوف في ذلك:

في السند تصح كل رواية دنا مني وقال مول الفرقاني
ما يتمثل خبيث ليا من شاهدني في أمتي فقد راني³

¹ - جمعية آفاق، ص 40.

² - النووي، يحيى بن شرف، رياض الصالحين، دار ابن حزم، ط1، بيروت 2002، ص169.

³ - جمعية آفاق، ص 80.

وبهذا تغيرت حياة الشاعر، خاصة عندما أذن له النبي في منامه بالذهاب إلى سيدي بومدين شعيب* دفين تلمسان" ليسلمه الأمانة، وهي كتاب يحتوي على أسرار المتصوفة وممارساتهم، ورغم أن سيدي بومدين كان قد توفي بثلاث قرون خلت¹ إلا أن الشاعر سافر إليه وأقام عنده وتبادلا الحديث، واستلم منه ذلك الكتاب ثم قفل راجعا، مرورا بالأولياء الصالحين الذين صادفهم في طريقه إلى أن بلغ دياره أين وجد زوجته في انتظاره، وقد ذكر كل ذلك في شعره².

وبعد هذه الرحلة انغمس في العبادة والزهد والتصوف، وهو بين الفينة والأخرى يطلع على ذلك الكتاب فيزداد زهده وانقطاعه عن الدنيا، وتزداد خلوته، فضاقت زوجته بذلك ذرعا، فبادرت إلى تمزيق ذلك الكتاب في غيابه ورمته به بعيدا، وبعد عودته طلب منها إحضار الكتاب، فوجلت وترددت، واتجهت نحو مكانه متظاهرة بالعزم على إحضاره، فإذا الكتاب بمكانة لم يمسه سوء، فاندهشت لغرابية ما رأت، وأيقنت أنها لن تكون إلا أمام كرامة خص الله بها زوجها الصالح، الصادق، فقصت عليه القصة وما كان من أمرها.

وأما الكرامة الثانية فهي قصة الجمجمة التي اصطحبها الشاعر في يوم جمعة كان خرج للصيد، فلم تتل قوسه شيئا، وداهمه وقت الصلاة فرجع مسرعا لحضورها، وفي طريقه صادف جمجمة بشرية فحملها معه على أن يدفنها في مكان ما بعيدا عن متناول الأيدي، حفظا لكرامة الإنسان، بعد الصلاة، وبينما الجمجمة في كيس ابن خلوف اكتشفتها الزوجة، وكان نسي أن يخبرها، فاحتارت

* - هو أبو مدين شعيب بن الحسن الأنصاري، الغوث، أصله من إشبيلية بالأندلس، رحل إلى بلاد المغرب وهو من كبار رجال الصوفية

1 - ينظر، دواجي، عبد القادر جلول، الخطاب الشعري، ص 53.

2 - لمزيد من الاطلاع تنظر قصيدة " محمد الفضيل " من كتاب سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، لجمعية آفاق، ج1، ص 177.

لأمرها، ودعت جارة لها عجوزا، فوسوست لها أن تلك الجمجمة هي لزوجته السابقة قد حنَّ إليها، وغالبه الشوق إليها، فنالت منها، وأشارت عليها بحرقها، وما إن بادرت بالحرق حتى حضر الزوج فانهاالت عليه بالعتاب واللوم ولما بلغ الأمر غايته، تحاكما إلى قاض. فرجا الشاعر تلك الجمجمة أن تكشف براءته، وقد صاغ ذلك في قصيدة جميلة بعنوان " راس المحنة " فكان من كرامة الله أن نطقت وبرأت الشاعر¹.

ولسنا نعرض هذه القصص لغرض الإمتاع أو المؤانسة، ولكن لنبين كيف تنبأ سيدي لخضر بن خلوف مكانته في الأوساط الشعبية كرجل صالح أولا، وكشاعر كلف بمدح سيد البرية صلى الله عليه وسلم ثانيا.

• وفاته ووصاياه:

تعتبر قصيدة ابقاوا بالسلامة أو " الجوهرة " أو " الوصية " ترجمة ذاتية لحياة ابن خلوف، ضمّنها فترة ميلاده، كما ضمّنها فترة وفاته، وأملى فيها وصاياه على أبنائه بعد أن بلغ من الكبر عتيا:

جوزت مية وخمسة وعشرين حساب وتميت من ورا سني ست شهور²

وعلى ما يبدو إن ابن خلوف أحس بدنوّ أجله فجمع أبناءه يوصيهم وصية مودّع، وإلا كيف تسنّى له لولا هذا الإحساس أن يحدّد تاريخ وفاته بنفسه في هذا البيت.

¹ - ينظر، دواجي، الملحق الشعري، ص 309.

² - بخوشة، الديوان، ص 193.

إن من يعيش مثل هذا الامتداد من الزمن لجدير بأن تجتمع عليه بنات
الدهر وصروفه، فتبري جسده، وتضعف بصره، بعد أن انحنى ظهره واشتعل
رأسه شيئا، يقول في ذلك:

انهزموا جوارحي وقل شوف الهداب قوسي انحنى وشيبي ولا مظفور¹

ولعله فقد بصره بعد هذا العمر الطويل:

ذاتي من التزعزع مثلوجة وباردة انغلق البصر من عيني بعد الشوف²

ولم يساور شاعرنا شك في أن الموت حق لا ريب فيها ولا مرأ:

الموت لا غنى تدركني صح الخبر بلا شك ولا ارتياب³

وهو المكثر من ذكرها تأسيا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أكثروا ذكر

هادم اللذات " يعني الموت، رواه الترميذي⁴. كما يكثر من ذكر القبر وأحواله إذ
يقول:

إذا صفات روعي مني بالماء يغسلوني ويلقوا عني الثياب

ما اعظم فراق أهلي وابني وما اعظم ركوب نعاشي ورواحي للتراب⁵

وعند دنو أجله، وهو على فراشه، يدعو الله في ثبات أن يسهل عليه خروج

الروح:

1 - جمعية آفاق، ص 106.

2 - نفسه، ص 107.

3 - نفسه، ص 138.

4 - النووي، رياض الصالحين، ص 129.

5 - بخوشة، ص 139.

الوحش صادني وادركني في غابة يا ربي سهل عليا خروج الروح¹

ويدعو من شهد وفاته أن يشهد له بالخير ويجمل في الصبر والبكاء:

اشهدوا شهادة الخير لي نافذة وصبروا من ابكا لكحل ولد خلوف²

وقد أوصي أولاده وهم مجتمعون، بأن يكون قبره عند نخلة متميزة ذكرها في

شعره:

النخلة المثبتة تلقح من بعد اليبوس احذاها يكون قبري يا مسلمين³

كما قسم تركته عليهم، وهي حصاد أزيد من قرن وربع من الجمع، تركة زاهد لم تتعد خيمة، وعمامة، "وسبحة"، "وشملة" و"برانيس الصوف" كما سبق ذكر ذلك.

وهكذا توفي سيدي لخضر في أوائل القرن العاشر الهجري، ودفن عند النخلة العجيبة المنظر التي أوصى بها و"تعتبر هذه النخلة الرمز المميز لضريح سيدي لخضر بن خلوف، حتى لقبه البعض "بمول النخلة" أي صاحب النخلة.

4

ومنذ ذلك الحين إلى يوم الناس هذا وسيدي لخضر محل احترام أهل المنطقة، ويقام له في كل صائفة مهرجان ثقافي منذ سنة 1985م يخلد ذكراه ويحيي مآثره، كما يتبارى فيه الشعراء فيما بينهم⁵.

1 - جمعية آفاق، ص 109.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص 106.

4 - نفسه، ص 51.

5 - المرجع السابق، ص 57.

لقد رحل الشاعر وخذ لنا قصائد شعرية متنوعة أكثرها في مدح النبي
صلى الله عليه وسلم، فرحم الله سيدي لخضر بن خلوف وبلغه مقصده.

ب - شعره:

أما وقد ترجمنا لحياة الشاعر ابن خلوف، تستوجب الدراسة لشعره، الوقوف
عند أغراض هذا الشعر، وبيان خصائصه، وموقف أهل الأدب منه.

إن الدارس لشعر سيدي لخضر يلاحظ بادئ الأمر أن مرحلة الصبا خالية
من النظم، فابن خلوف خلاف كثير من شعراء الملحون الذين يقسم شعرهم غالبا
إلى مرحلة الصبا أو الشباب وما يتناسب مع هذه المرحلة من أغراض، مثل:
الغزل والتشبيب وذكر مجالس الأصحاب ثم مرحلة ما بعد الشباب حيث ينزوي
الشاعر عن الدنيا وملذاتها ويعلن توبته، فيذكر الشيب، ويعلن التقصير في حق
نفسه، كما يلوذ إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر البقاع المقدسة وشوقه
لزيارتها، والإكثار من الوعظ والحكمة وكل ما يتناسب مع العقل والدين ويوافقهما.

ويرجع الأمر في ذلك - في منظورنا - لسببين اثنين:

إما أن يكون هناك إنتاج شعري لابن خلوف ضاع مع تقادم الزمن أو كفره
شعر المديح الغزير، فذهب الأول أدراج الرياح لعوامل منها أن المجتمع كان
يغلب عليه طابع الصوفية والزهد في الحياة، لظروف سياسية واجتماعية معروفة،
فالشاعر قد اعتبر أربعين سنة مضت من عمره سرايا:

منها مشات أربعين سنة مثل السراب واللي بقى مشى في مدح المبرور¹ وإما
أن رؤيا الشاعر للنبي صلى الله عليه وسلم، غيرت حياته وبلغ من حبه له أن

¹ - دواجي، المرجع السابق، ص55.

تفتقت موهبته الشعرية في سن متأخرة، خاصة إذا علمنا أن النبوغ في الشعر قديم ومعروف عند العرب.

• الديوان:

إن الموروث الشعري الكبير الذي خلفه ابن خلوف، لم يكتب له أن يُجمع في ديوان واحد، ذلك أن عملية الجمع تفرض علينا الصبر والأناة، والامتساع من الوقت لضبطه وتمحيصه لأن منه المحفوظ في الذاكرة الشعبية، وهو المتوارث مشافهة، ومنه المحفوظ في الكنائش والمخطوطات التي قلّ ما يوجد بها أصحابها حرصاً منهم على الحفاظ عليها وصونها.

ونحن في حديثنا هذا لا ننكر على الناس جهودهم فقد جمع له محمد بخوشة اثنين وثلاثين قصيدة، في ديوان قدّم له، وشرح ما فيه، وذيله بأرائه، وطبع سنة 1985¹.

كما تهتم جمعية (آفاق مستغانم، أزور azure) الثقافية بمستغانم بالتراث العريق للمدينة، ومن ثمار أعمالها أن جمعت ثمانية وأربعين قصيدة في كتاب بعنوان " سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده"²، بمساهمة مجموعة من الأعضاء، أضافوا قصائد جديدة، دون شرح ولا تعليق على القصائد، ولكن عمل الجمعيات يغلب عليه الاندفاعية والحماس ويظل يفتقر إلى الطابع الأكاديمي العلمي المنظم.

ولم يعرف كل من ديوان بخوشة ولا كتاب الجمعية المذكورة في جمعهم للأشعار أي نوع من الترتيب، ترتيب القصائد، ترتيباً زمنياً، لعدم وجود قرائن تدل

¹ - بخوشة، المرجع السابق.

² - ينظر الكتاب وهو من إصدار دار الغرب للنشر، ظهر منه الجزء الأول سنة 2006

على تاريخ القصيدة إلا قصيدتين أو ثلاثاً، ولا ترتيباً ألفائياً للقافية بسبب تنوعها وتعددتها في القصيدة الواحدة، إضافة إلى اختلاف عناوين القصائد من كتاب إلى آخر وكذلك الاختلاف في طول القصيدة الواحدة.

و" هناك ديوان آخر لنفس الشاعر تحت الطبع، جمع قصائده الحاج محمد الحبيب حشلاف، ويحتوي على ستة وخمسين قصيدة موزعة على مائة وخمسة وأربعين صفحة".¹

إن شاعراً من جنس سيدي لخضر، عمّر طويلاً ويملك رصيذاً معرفياً وافراً، إضافة إلى شاعرية متوقدة لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يسجل له هذا العدد القليل من القصائد مقارنة بما ذكرنا، بقي على الباحثين والمهتمين بذل مزيد من الجهد، وتحمل المزيد من المشقة للكشف عن الكنوز المغمورة بين الرفوف وداخل الخزانات.

• أغراض شعره:

ألفنا عند شعراء الأدب الرسمي، كما عند شعراء الملحون التنويع في الأغراض الشعرية، مع تغليب أحدها عادة، ولكن لخضر بن خلوف يتميز عن غيره بأنه طرق غرض المدح وحده، وقد أعلن ذلك بنفسه إذ قال:

منها مشات أربعين سنة مثل السراب واللي بقي مشى في مدح المبرور²

فقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من خمسة وثمانين عاماً وما مسّه من لغوب، ولكن هذا المدح تتخلله موضوعات مختلفة تخدم كلها الغرض ولا يليق

¹ - دواجي، الخطاب الشعري، المرجع السابق، ص 55.

² - بخوشة، الديوان، ص 26.

بنا أن نسميها أغراضاً لأنها جاءت في معرض المدح ولم تأت مستقلة في قصائد بعينها، سنجليها مفصلة في الفصل الثالث.

وإلى جانب المدح وموضوعاته، نجد قصائد مستقلة في غرض الوصف، كقصيدة " قصة مزگران " ¹ التي يصف فيها هذه المعركة ويذكر فيها أسماء الأشخاص والأماكن، وكذلك فعل في قصيدة " يا لله سلكننا في ليلة الهجوم " ².
وطالما سنقف على غرض المدح وموضوعاته في الفصل الموالي، لا بأس أن نقف عند اعتزاز الشاعر بوطنيته وفخره بنفسه وشجاعته وحماسه، في هذا الفصل لنبرز الجانب الآخر من أغراض شعره.

عرف العرب قديماً الكر والفر، ولعل ذلك عرق في جسد كل عربي، لم يخبُ نبضه حيناً من الدهر، يصاحبه في ذلك الفخر والحماسة، ولما كان سيدي لخضر قد شارك في معارك مع الأتراك ضد الغزاة الأسبان، وأشهرها معركة مزگران، ومعركة شرشال، فقد دون هذه الأحداث في قصيدتين تشعان بالبطولات والملحمية، فيها من الفخر والحماسة ما يعكس إخلاص الشاعر في حب وطنه، والذود عن حياضه بكل بسالة، ويشهد بذلك من حضر المعركة ويثني على شجاعته وبراعته في القتال.

يقول ابن خلوف محمّساً لبني قبيلته، مشيداً بمجدهم:

منكم خلفت سلاطين وجواد

يا مغراوة اتحزموا للكيد

لمن جاهد جنة الميعاد ¹

يا تيجان الحرب ليس بعيد

¹ - المرجع السابق، ص 182.

² - دواجي، المرجع السابق، الملحق الشعري.

ويقول مفتخرا بمكانته في الجيش، وهو أحق بها وأهلها، ومنوها بذيع
صيته، وسبقه على الناس:

باش خيال كنت نهاتي من العرب في حكم خير الدين العادل الأصيل

راكب على فرسي نسوق لشهب هنا وغادي بقربصولو يميل

إذا نعبر سيفي من شافني رهب و لتراك تهاتي بيا في كل جيل

فايز على القوم والناس شاهدة من وطن سيد الثعالبي رايس العلوم

الجزائر خيار مدينة الهدا درت فيها ديوان كبير في الرسوم²

ويحصي الشاعر المجاهد عدد القتلى الذين لقوا مصرعهم على يده مفتخرا

مزهوا بنفسه يحدوه في ذلك النصر المؤزر:

ما صرى ذاك اليوم على المجاهدة كل فارس ملتهي في دمه يعوم

ميا وخمسين كافر والناس شاهدة اقتلتها من شنضااض وثرابة الروم³

إن القصيدتين المذكورتين، زاخرتان بالبطولات، فهما سجلّ لأحداث

العصر، وفيهما كثير من الاعتزاز بالنفس والاعتداد بما حققه ابن خلوف مع

أقرانه من نصر.

¹ - بخوشة، الديوان، ص 184.

² - دواجي، الخطاب الشعري، قصيدة "ليلة الهجوم"، ص 276.

³ - نفسه، ص 277.

ويلاحظ أن حب الشاعر للنبي صلى الله عليه وسلم، قد ترك فيه ميسما واضح المعالم، فهو لم يغفل عن مدحه ومدح آل بيته حتى وهو في ساحة الوغى، إذ يذكر حبيبه:

الجهاد لغينا على سيد فاطمة سيدنا محمد الهاشمي الرسول¹

ولا غرابة في ذلك فقد عُرف ابن خُلف " بمداح الرسول " فكانت التسمية والكنية دالة على الرجل. وسنقوم بعملية مسح لديوان الشاعر نُظهر من خلالها الموضوعات التي طرقها في غرض المدح مع ذكر بعض النماذج الشعرية من المدونة.

¹ - جمعية آفاق، المرجع السابق، ص 182.

اتخذ الشاعر سيدي لخضر بن خلوف من الدين الإسلامي مرجعية ثقافية له، ذلك أنه تربي في كنف مجتمع يزخر بمعالم الدين، فشأن الصبية في ذلك العصر، وفي تلك الربوع، أن يحضوا بحفظ القرآن، "قالآباء كانوا حريصين على إرسال أبنائهم إلى الكتّاب وتعلّم المبادئ العامة وحفظ القرآن"¹، شاحذين ملكة الحفظ، لينتهي بذلك كل واحد منهم لملء وطابه بما شاء من مناحي العلوم الدينية التي كانت السيادة لها بما احتوته المكتبات من كتب في هذا المجال، يقول أبو القاسم سعد الله: "ولما كانت السيادة في العهد العثماني للعلوم الدينية فإن محتوى المكتبات كان أغلبه لا يخرج عن هذه العلوم، فكثرتها كانت من كتب التفاسير والقراءات، والأحاديث النبوية وشروحيها، وكتب الفقه والأصول والتوحيد ونحو ذلك"².

فلا غرو إذن أن ينهل الشاعر من ثقافة عصره، وينفخ هذه الروح الطيبة في شعره، لتدور معاني المديح كلها في فلك معاني الدين والقرآن الكريم. إن تنوع الموضوعات في مديح ابن خلوف نابع من تأثره بأسلوب القرآن في طرح القضايا والانتقال من موضوع إلى آخر، وهو في معرض مدحه، يوحد الله ويحمده ويسبح له، ويصلي على النبي ويدعو للصلاة عليه، ويورد في مدحه له صفاته الخلقية والخلقية، ويذكر أسماءه وينعته بكل خير، وقد يورد رؤيته في منامه، ويطوف بالحديث عن معجزاته، كما يذكر أصحابه، والبقاع المقدسة، مكة والمدينة، أو يناجي حبيبه أو يتضرع له، وكثير في شعره طلبُ الشفاعة والتوسل، كما قد يركن إلى الوعظ وذكر ما علّمته الحياة في حكم بالغة، وله موقف من

¹ - سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، من ق10 هـ إلى ق14 هـ، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص317.

² - نفسه، ص317.

الدنيا، فلا يذكرها إلا ومعها الآخرة بجننتها ونارها، ويبيدي تقصيره وتفريطه، فيلوذ إلى الدعاء، كما يذكر الشيب والهزم وقرب الأجل.

وله موضوعات أخرى تضمنها المديح، وإن كانت بأقل درجة من سابقتها، كذكر بعض النسب النبوي، وذكر القرآن الكريم، وله في القصص الديني أكثر من قصيدة.

وسنقترب من هذه الموضوعات من خلال إيرادها تباعا.

1 - موضوع التوحيد:

ألف شعراء الملحون أن يذكروا اسم الله ابتداء، ثم يصلوا على النبي في مطالع قصائدهم، حتى لا يكون عملهم ونظمهم أبترا، ومنهم من يختم بنفس ما بدأ به.

ولكن ابن خلوف يؤثر في بعض قصائده أن يبدأها بكلمة التوحيد "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، كما فعل في قصيدة "نبتدا الكلمة" التي مطلعها:

نبتدا الكلمة مفتاح النظام فاز من عظمها وأكرم نزولها

لا إله إلا الله سلطنة الكلام متني يا ربي مسلم نقولها¹

ويرى ابن خلوف في كلمة التوحيد أنها الحصن الحصين الذي يؤمن روعته ولا يورثه خزيا ولا ندما، ثم إنها لمن عمل بمقتضاها جنة من النار ورحيمها، يقول في ذلك:

لا إله إلا الله حصني من الجحيم من دخل حصن الله لا خوف لا ندم

¹ - بخوشة، الديوان، ص 160

لا إله إلا الله حصن الله الحصين من يعمل بها ينجي من العذاب¹

¹ - نفسه.

وهي لمن وعى كُنْهها، أكثر من حصن، فهي مفتاح كل باب:

لا إله إلا الله كنز الموحدين لا إله إلا الله مفتاح كل باب¹

ولا يكتفي الشاعر بذكر كلمة التوحيد وترديدها، بل يمجده بذكر أسمائه

الحسنى، لما وقر في قلبه من علم راسخ بمعناها، ويقين جازم بمدلولها:

لا إله إلا الله الواحد العظيم الأولى في الآزال الموصوف بالقدم

لا إله إلا الله الرحمن الرحيم الدائم ما يفنى وما يلحقه عدم²

وهو في علمه بمعناها ويقينه بمدلولها يستجيب لقول ربه: « فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا اللَّهُ »³.

وترغيبا من الشاعر في كلمة التوحيد يعرض ثوابها وأجرها فيقول:

لا إله إلا الله من قالها مائة ألف حسنة بها تصح له

يزيد ألف سيئة بفضلها متحات وألف درجة في طول منزله⁴

أما من أراد أن يحيا قرير العين، لا يخاف بخسا ولا رهقا، فما عليه إلا أن

يهل بها دهره:

من يهل بها عن ساير الحياة ما يصيبه وسواس ولا يهؤله⁵

1- نفس المرجع السابق.

2- نفسه.

3- سورة محمد، الآية 19.

4- بخوشة، الديوان، ص 160 وما يليها.

5- نفسه.

ولا يفوت سيدي لخضر أن يغتتم فضل " لا إله إلا الله " فيدعو الله أن
يَحُطَّ بها وزره فيقول:

لمتى يا ربي وأنا نقول حِطَّ تَحُطُّ وزري بها بجاهك الرفيع¹

¹ - نفسه ، ص162

كما يدعو الله أن يجعله من أهلها لتكون له نورا ورحمة في الدنيا والآخرة:

لا إله إلا الله عن ساير الدوام يا عظيم الجود جعلنا من أهلها

في الحياة يقضنا بها من المنام في الممات ارحمنا بجاه نورها¹

كيف لا تحمل هذا الفضل وهي مفتاح الجنة كما صرح بذلك الشاعر:

لا إله إلا الله مفتاح الجنان جنة الخلد الفردوس تسمى²

وهي كلمة الإخلاص التي يَعْصِمُ بها العبدُ مَالَهُ وَدَمَهُ فيصبح مسلما:

لا إله إلا الله مشرفة يا عيان كلمة الإخلاص هي المنعمة³

وقد يورد كلمة الإخلاص في بداية قصيدته بصيغة سورة الإخلاص كما

فعل في قصيدته "اختارك الواحد الأحد" إذ يقول:

اختارك الواحد الأحد سبحانه الجليل الفرد الصمد

لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد⁴

ويختتم ابن خلوف في قصيدته "بما في علمك القديم" بتوحيد الله فيقول:

نختم قولي بلا إله إلا الله تحضر لي ليلة الممات

وتمام القول الشفيع رسول الله من بعد النفي والثبات⁵

1 - المرجع السابق، ص165.

2 - نفسه، ص164.

3 - نفسه، ص74.

4 - نفسه.

5 - نفسه، ص159.

لقد كان ابن خلوف يعي تماما حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه: " من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء. " ¹

أليس في قوله:

شارحة للخاطر أهل الدين والصيام يتفسحوا في الجنة عرضها وطولها ²

قرائن لمعرفة بثوابها وجزائها؟

لأجل ذلك أقحم هذا الموضوع في مدحه، ولأجل أن يصح بها إيمانه أيضا.

أليس هو القائل:

لا إله إلا الله تحقق الذنوب تصح بها الإيمان ولا بغيرها ³

وإلى جانب التوحيد كان سيدي لخضر يؤثر التحميد والتسبيح، وهو الولي الصالح، في مدائحه للنبي صلى الله عليه وسلم، إذ تخللت أشعاره، فكانت عنوانا لشكر النعم وبوء بها.

2 - موضوع التحميد والتسبيح:

ما كان ابن خلوف ليحدد نعم ربه وهو العارف بالله العالم بحدوده، الواقف دونها، ولعل أجل ما يحمد عليه ربه هو العلم الذي مكنه منه:

نحمد رب السما والأرض راوي عن الأقطاب جملا ¹

¹ - صحيح مسلم، ج1، ص27.

² - بخوشة، الديوان، ص160.

³ - نفسه، ص165.

في رسوله راني نمجد نشرب ويلذ لي بروده
بويا وأمي معا جدودي واللي عشقوا وكل تايب
وجميع الجالسين عندي محشرهم في الجنان طيب¹

وهو يقرن في كثير من المواطن بين الحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما فعل في البيتين التاليين:

الحمد لله بالدوام واجب الشكر للذي ماله ثاني
ثم الصلاة والسلام على محمد الشفيح المداني²

كما يقرن الحمد بالتسبيح، وكلاهما ذكر، فلا يفتر لسان ابن خلوف، بل لا يزال رطبا بذكر الله وتمجيده:

إذا تحيرت من ذنوبي نستغفر وإله نذكر
الستار يستر لي عيوبي نحمده ولا بد نشكر
يا مالك الملك ربي سبحان الدائم المدبر³

وللتسبيح حظ بين موضوعات المديح، إذ التسبيح تبرئة وتنزيه لذات الله من كل ما لا يليق بجلاله، وقد دعانا ربنا إلى تسبيحه في كثير من الآيات، وابن خلوف عابد، زاهد، لا يخلو كلامه من تحميد أو تهليل أو تسبيح، فها هو يسبح ربه في يقين صادق:

¹ - بخوشة، الديوان، ص137.

² - نفسه، ص156

³ - نفس المرجع السابق، ص179.

العالم بالغيوب ربي سبحانه فيه ما نكذب¹

وله تسبيح يعظم فيه قدرة ربه، يقول فيه:

سبحانه خالقي خلقتي وجميع الكائنات خلقها

سبحانه رازقي رزقتي وجميع الكائنات رزقها

سبحانه باعثي بعثتي والارواح الفانية احيها²

ويسبح ربه الذي خلقه من ضعف:

سبحانه خالقي خلقتي من صلب أبي أنزلت كالما

من نطفة ميتة انشأني وبعدها علق ودما³

¹ - نفسه، ص 137.

² - نفسه، ص 134.

³ - نفسه، ص 134 وما يليها.

ثم صيّرهُ إلى قوة في مراحل تستحقّ التسبيح:

تسعة الشهور كاملة عددي واهدفت أنا مثيل غريب¹

في الأول كنت بالقمّاطة لبدا مطروح في احجرها

تم حالي بديت نقعد وبعدها رجعت نحبو

ترعاني حتى ضحيت نفرز بويا وأخواتي من أما²

فسبحان الذي خلقه من ضعف فصيره إلى قوة، وفي ذلك آية للعالمين،

هكذا يقول الشاعر:

سبحان من خلقتي نطفة نفسي وجسدي وعظامي

وأضحيت آية لا تخفى على اليقين و الإسلامي³

وبين الخوف والرجاء، وهي صفة المؤمن العابد لربه، يسبّح سيدي لخضر

ربه بعد توحيده فيقول:

واحد فريد ماله ثاني سبحان قابل التوبة شديد العقاب⁴

وإلى جانب التوحيد والتحميد والتسبيح، جعل ابن خلوف من الصلاة على

النبي ديدنا له إذ يكثر من الصلاة ويدعو إلى ذلك.

3 -موضوع الصلاة على النبي والدعوة إليها:

¹ المرجع السابق، ص135.

² - نفسه ، ص135.

³ - نفسه، ص141.

⁴ - نفسه، 146.

أوجب الإسلام محبة النبي صلى الله عليه وسلم، بل جعلها ركناً من أركان الإيمان إذ ورد في نص الحديث: " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين"¹، كما صلى عليه رب العزة وأوجب علينا أيضاً الصلاة عليه بقوله « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»².

وللمسلم في الصلاة على النبي أجر عظيم، إذ الصلاة الواحدة بعشر حسنات، لما جاء في الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه أتاني جبريل (عليه السلام) آنفاً فقال: يا محمد من صلى عليك مرة، أو قال واحدة، كتب الله، عزوجل، له بها عشر حسنات"³

من هذه النصوص وغيرها، اغتتم ابن خلوف، في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم هذا الفضل، فأثبت هذه الصلوات في جل مدائحه لتعبقها بأريج المحبة والبركة، وتضفي عليها حلاوة الذكر وطيب الأنس.

لا يكتفي الخلوفي بالصلاة على النبي كسائر الذاكرين، بل يصلي عليه قدر كل ما خلق الله من أحياء وجمادات، لعله يترجم قليلاً مما يكنه قلبه من محبة النبي صلى الله عليه وسلم، ولأدلل على ذلك قصيدة " قدر ما في بحر الظلام"⁴، والتي منها:

قدر ما في بحر الظلام من هوايش وحياتان بلا قدر عايشين

مع الموجات بلا زمام وعدد الرملة والاحجار اللي كاينين

¹ - صحيح مسلم، ج1، ص34.
² - سورة الأحزاب، الآية 56.
³ - أبو الحسن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري، تحقيق د. عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي، ج1، مكتبة الفلاح، الكويت 1985، ص1059.
⁴ - بخوشة، محمد، الديوان، ص49

الصلاة والسلام

صلى الله على صاحب المقام الرفيع

والسلام على الطاهر الحبيب الشفيق

قدر الداعي والمدعي ومن هو سميع¹

قدر الشاري في السوق ومن جا يبيع

قدر الطابع للحق راه في أمره سميع

قدر الحنفة والدوم والزرع والربيع

قدر الأنوار فتحوا الأكمام زهرت في الرياض تبارك الله السنين

كي نشروا فيها العلام افتح من كل ألوان الياس والياسمين

الصلاة والسلام²

وهكذا يلتفت الشاعر يمينا وشمالا ليشرك كل ما حوله مما وقعت عليه حواسه من كائنات حية وجمادات: (الفضة، النحاس، الذهب، الحديد، الأمطار، الريش، الشعر، الرياح، الطيور، الوحوش، الأموات، الأحياء، السجود، البرق، الملائكة، النجوم، النخيل، الكروم، القرى، المدن، الخيل، الجنود، البدو، الحضر، الشعاب، الجبال، الجمال، الظباء، النحل، الدود، الدموع، الكنوز...)³، لتتوب هذه

¹ - نفسه

² - المرجع السابق.

³ - نفسه، ينظر القصيدة، ص49.

العوالم عن الأرقام في قدرها وعددها ويضمنها أدواره وأقفاله، وملتزمًا بلازمة
يصرّح فيها بالصلاة والسلام على النبي وهي " الصلاة والسلام " .

وهو لا يصلي عليه ويدعو إلى الصلاة عليه قدر ما خلق من أحياء
وجمادات فحسب، بل يتعدى ذلك إلى الصلاة عليه قدر كل حرف من حروف
الهجاء، ويُلزم نفسه بذكر كل الحروف في قصيدة "ألف استمثلوا كلامي"¹ والتي
منها:

¹ - نفسه، ص56.

صلى الله عليه قدر حروف ألف محمد الشفيح اسمه المفضل

صلى الله عليه قدرحروف البا ابوالطاهرتاج الأنبياء سيد الثقلين

صلى الله عليه قدرحروف التا محمد سيد البشر واتاه القول

وكذلك فعل بالحروف الهجائية في كل القصيدة.

ويتجاوز الصلاة عليه قدر الأحياء والجمادات والمطر واللوح والملائكة

والحروف إلى تناول الزمن وقدسيته من أيام وليال وأعياد وساعات، وصيف

وخريف وربيع وشتاء:

قدر الليل وما يليه من النهار يا سامعين¹

وعدد الساعات من المساء للصباح²

ويقول في قصيدة أخرى:

صلى الله عليك قدرفضل الجمعة وفضل عاشوراءوالعيد يمضي ويأتي

مادامت الايام والليالي تبوعة صيفية وخريف والربيع وشتاتي

والاحد والاثنين والثلاثة والاربعة وخميس وجمعة وفي نهار السبتوتي³

ويقول أيضا:

صلى الله عليه قدر نبات حشيش وعدد الاعوام والشهور ليلا ويوم⁴

1 - المرجع السابق، ص51.

2 - نفسه، ص53.

3 - نفسه، ص66.

4 - نفسه، ص109.

هكذا أراد ابن خلوف هذا التعداد والإحصاء للتعبير عن الكثرة المطلقة التي تكبر في نفسه من الصلوات على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو على هذا لا يقف عند حد، بل يتخذ من الصلاة على النبي دينا وديننا ما دام في عمره بقية
حياة:

الصلاة والسلام هذا ما يعمل ابن خلوف في كل حين

الشهور مع الاعوام ما دامت عمره في الدنيا طول السنين¹

ويتغنى بها بلغات العالم، مزهوا في كل حين:

لو كنت من أهل العقول نفني شبابي بالصلاة على الرسول في كل حين

بالعبرانية وباللسان العربي والكف مع الدف والرباب الحنين²

ويدعو مداح الرسول غيره للصلاة على النبي، وتعلوه الغبطة بالشفاعة

فينادي في الناس بكثرة الصلاة والسلام عليه قائلا:

يا كل من حضر قم بشر الغايب بالحوض والشفاعة لسيد الأرسال

يا كهل يا صبي يا شاب يا شايب صل على النبي بالغدو والآصال³

وترغيبا من الشاعر في الإكثار من الصلاة على النبي يبين فضلها وأجرها

فيقول:

يا ماذا من خير باسط في الصلاة على الرسول

وإذا كان الامر ساخط يتأمل بها القبول

هي اسرع من قوس رامي وانفذ من كل سهام

كنز ما كنزوه اكرامي في الصلاة والسلام⁴

1- المرجع السابق، ص55.

2- نفسه، ص65.

3- نفسه، ص98.

4- نفسه، ص85.

ويقول في فضلها ومضاعفة أجرها:

ربحوا بلا شقا الملايكة حضرا العشرة بالميا تنكتب دينار

وإذا كملت عشرة بميا فضل اخرى والميا بالالاف في صلاة المختار¹

ويقول في نفس المعنى:

صل عليه مرة تجيبك عشرة وإذا كملت عشرة فضلها ميا توجد²

ويقول أيضا:

المصلي عليك مرة، له عشرة والعشرة بالميا من الكنز الغالي

والميا ترجع ألف موزونة حمرا ماذا من ربح في صلاة المرسالي³

ومن فضل تلك الصلوات الظفر بالطمأنينة، كالذي حيزت له الدنيا
بحذافيرها، وانشراح الصدور، والبرء من الأسقام بأشكالها، وكذا نيل أممي الدنيا
والآخرة:

صلوا على النبي تظفروا بالأكوان وتنشرح صدوركم من جميع الاضرار

الأمن، الاجر يا عباد كفاني هذا ما اوجدت في صحيح الأخبار⁴

ولا يفوت ابن خلوف أن يبشر الذاكرين:

سعد القايل اللي يقول الله الله والصلاة على الشريف العربي¹

1- نفسه، ص87.

2- المرجع السابق، ص88.

3- نفسه، ص56.

4- نفسه، ص98.

كيف لا نصلي عليه ونكثر وهو صاحب الفضل الكبير على أمته وحامل

لوائها:

عليك الصلاة يا سيد الرسلا المطبوع في البر والسما والتلول والصحرا

في الأرض والسما يا المصطفى مسموع اعتقتها من الشرك خليتها حرا

من همتك يا صديق اضحى البلا مرفوع المسخ والغراق مابقات له جرا²

ويؤكد ابن خلوف أن الصلاة على النبي والافتداء به تفضي حتما إلى

الشفاعة يوم يخزي الله أهل الكفر:

¹ - نفسه، ص112.

² - نفسه، ص87.

صلى على النبي لن يرضى من بعدها بأمره اقتدي

وإذا رضى عليك مهني محمد الذي عزه مالك الرقاب

يقبل شفاعته في الحين تم اليهود الخزيا يصيروا جداب¹

والملاحظ أنه كلما صلى ابن خلوف على النبي، أو دعا إلى الصلاة عليه إلا وذكر الشفاعة، كأنه يريد القول: إن الصلاة على النبي من موجبات الشفاعة، أو إنها شرط لها:

والصلاة على سيدها الرسول طه شفيغنا محمد يوم الطويل معلوم²

وقوله:

صلوا وسلموا على طيب الأذكار صاحب الشفاعة المداني³

وقوله أيضا:

صلى الله عليك يا المضلل بالغمامة يا مولى أحمد شفيغ عرب المعاصي⁴

وفي مقابل كل هذا ينكر الشاعر على من جهل قدر الصلاة على النبي

ويتبرأ منه، وأما تاركها فهو في مصف المشركين:

جاهلها خاطي النسب ما هو منا والتاركها من النصارى المشركين⁵

1- المرجع السابق، 139.

2- نفسه، ص 168.

3- نفسه، ص 131.

4- نفسه، ص 65.

5- نفسه، ص 108.

كما ينعت من لا يصلي على النبي بفاسد العقل، فَوَّتَ على نفسه الخير
الكثير، إذ الصلاة والسلام على النبي هي أسباب الخير كله:

من لا صلى عليه في عقله مفسود الصلاة عليه والسلام أسباب الخير¹

ويُخرج سيدي لخضر نفسه من هذه الدائرة ببيانه ما ناله من نخر بالصلاة
على النبي:

الجنة والجنان عندي وعيوننا كالسحب تلمع

المنطق والبيان وردي ليس تقطع وليس تمنع

اسعد بالرسول سعدي خلا فيه القلوب تشفع

وانكسرت وقفة العشية ومشى في الليل كل ظامي روياني

وأصبحت يا أهل العقول خبية ومليت من الحبيب حملي سلطاني²

وقد رضي بهذا النول، كالذي جادت عليه الأرض بخصبها فملاً من

خيراتها كل أحماله، فانتشى قلبه فرحاً، وعلا شأنه في الناس:

خرجت اصلاح بالفضل وبالفتاح جات الصابة مليت جميع احمالي

راني فارح بالنبي طيب الأرواح نريج أنا وكل من يسغى لي

طيب الارواح زاد لي همة وشباح نفتخر به سيد الارسالي³

¹ - نفسه، 109

² - المرجع السابق، ص95.

³ - نفسه، ص105.

وتتيح الثقافة الدينية الواسعة لابن خلوف أن يتخير الزمن المناسب للصلاة على النبي، وهو يوم الجمعة لموافقة الحديث النبوي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ"¹ رواه أبو داود.

يقول ابن خلوف مبينا ذلك:

والصلاة على سيد الخلق والسلام ليلة الجمعة مع صباح يومها²

الختام بالصلاة على النبي في قصائده الملحون، صفة يجتمع عليها الكثير من الشعراء، منها عند ابن خلوف:

نختم بالصلاة على طه الهادي شريف النسب المظلل بالغمامة³

وقد يختم بالصلاة عليه ويطلب جواره في مناجاة حبيب لحبيبه:

نختمها بالصلاة على ابن يا مينة ونقول لا إله إلا الله الواحد

ونثني بالصلاة على مفتاح الجنة محمد نجاوروه في دار الخلد⁴

وهكذا فاز ابن خلوف من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالفضل العظيم، والخير العميم، بعد أن أحبه ملء جنبيه، فراح يمدحه بصفاته الخلقية والخلقية.

4 - موضوع مدحه بصفاته الخلقية والخلقية:

1 - النووي، رياض الصالحين، ص213.

2 - بخوشة، ص160.

3 - بخوشة، ص175.

4 - نفسه، ص125.

لا شك أن حاجة الناس إلى الرسل ملحة، كما لا شك أن الله أودع فيهم معالم يُعرفون بها، ولا يساورنا ريب في أن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ظهرت فيه معالم الرسل مجتمعة، جليّة الكمالات التي لا يلحقه بمجموعها رسول، ناهيك عن عامة الناس، إذ لا يجتمع هذا الجمال والكمال والجلال والشمول إلا في رسول تفرّد بها في عظمة تناسب الرسالة التي كلفه الله بحملها ونشرها.

أما عن جمال خلقته "فإن أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله صلى الله عليه وسلم يشعر أنه أمام جمال مدهش لا مثيل له، ومظهر يوحي بثقة مطلقة لا حدّ لها، وهذا ما انعقد عليه إجماع من شاهده عليه الصلاة والسلام"¹.

كان النبي صلى الله عليه وسلم مقادان في إرسان، ففيه من الحسن والوضاءة ما يسرّ النظر، ويأسر العين، وفيه من الوقار والعظمة ورفعة الأدب ودمائة الأخلاق، وسهولة المعشر ما يملك الفؤاد وتقرّ له العين.

وكان من حظّ ابن خلوف أن نهل من سيرته صلى الله عليه وسلم ، ومواقفه العظيمة ما يحقّق له تلك المحبة وذلك الشغف به، واكتملت عنده الصورة بعد معرفة سيرته برؤيته في منامه مرات عديدة، فكان من ذلك كله أن جادت قريحته بذكر صفاته الخلقية والخلقية في مدحه.

فمن خلقه النبي صلى الله عليه وسلم يقول واصفا الوجه والجبين والخدين ووضاءتهما، وسواد العينين، وسعة المنكبين، واجتماع لحم الكتفين، وكذا ربة القدّ وسعة الكفين، وإسبال الشّعْر، كل ذلك بعد أن يصلي عليه:

صلى الله عليك قدرحروف الكاف كامل الوصف أشم الأنف وأقتى العرنين

¹ - حوى، سعيد، الرسول صلى الله عليه وسلم، الشهاب، الجزائر 1990، ص19.

واسع المنكبين مجع الأكتاف مرشوش الخد والجبين كحل العينين

مربوع القد معتدل شنت الأكتاف اسبل الشعر مستدل من غير دهين¹

ويصف اعتدال طوله:

ليس قصير بقصر عادم ليس طويل علا²

ويشبهه بالشمس في إرساء ضوئها وهو يبتسم، زاده تفلج لطيف في ثناياه

حُسنًا مع بهاء الوجه:

افلج الاسنان مبتسم باهي الغرة كأنها شمس من جبينه تضوي لي³

وقريب من ذلك قوله:

من كفك المسك والغناب وشعاع الشمس من جبينه يتلألوا⁴

وعن طلاقة وجهه وبهاء غرته أيضا يقول:

يا منير الغرة والخد يا شفيع الأركان الستا⁵

ويدير إعجابه حول المعاني نفسها في قوله:

باهي السر وباهي المبسم كحيل النجلة⁶

1 - بخوشة، الديوان، ص60.

2 - نفسه، ص128.

3 - نفسه، ص60.

4 - نفسه، ص108. يتلألوا: تتلألأ.

5 - المرجع السابق، ص149.

6 - نفسه، ص127. النجلة: العين الواسعة.

كما يستبشر ابن خلوف بالنظر في وجهه صلى الله عليه وسلم ويدّخر

ذلك زادا:

الزاد معاك راه ظاهر النظرة فيك تزيد بشرا¹

ويصف شاعرنا بعض هيئاته صلى الله عليه وسلم وأحواله، فيقول في مشيئته كيف أنها لا تترك أثرا على التراب رغم أنه يمشي في قوة وثبات:

أقدامه الغالية تغاور ولا توضع في التراب جرة²

وعن مظهره، يصف سيدي لخضر ثوبه المتواضع الذي هو وسط بين ميسور الحال من الناس وعامتهم فيقول:

ما تعني في البسط ناعته وألا في الجهد في الملبس ماطويل ثوبه نصف الساق³

ولا يسع الشاعر إلا أن يسبح الله تعظيما لما رأى من جمال سيد الخلق:

انظرت اليوم في شمايل محمد سبحان الله ما انشا فيه الخلاق

اهذب الأشفار معتدل مربع القد أفلج الاسنان زنج الحواجب والارماق⁴

ويلتمس سيدي لخضر العذر لمن لم ير النبي صلى الله عليه وسلم:

زينك أحسن وأبهى يا راكب النجيب معذور من لا شافك عينه مغمضة⁵

1 - نفسه، ص 95.

2 - نفسه. جرة: أثر

3 - نفسه، ص 107.

4 - نفسه.

5 - نفسه، ص 101.

وأما عن رفعة أخلاقه فليس أعظم من شهادة الخالق بذلك بصيغة المدح في سورة القلم: « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ »¹، ذلك ما أقرّ به ابن خلوف في أكثر من موضع، إذ يقول:

أشرف من شرفه كتاب في سورة نون عظمه جل جلاله²

ويقول في موضع آخر:

محمد راحة القلوب عظيم الجاه في سورة نون والقلم مدحه ربي

من زانه بالرسالة واحسن بهاه صلى الله عليه منذ كان صبي³

ويقول عن صفاء سريرته وكيف طهره الله من الغلّ والحقد والحسد وهيأه

للرسالة:

مغسول القلب من سواد ومن حمرا لا حقد ولا حسد من الغش زلالي⁴

وعن سعة صدره وعلوّ شأنه وأنه لا يردّ سائلا يقول:

واسع الصدر المفخم ما يبخل صيلة⁵

ويقطع ابن خلوف أن جود النبي صلى الله عليه وسلم عديم النظير في

عظمته، أمر يجعله يعوّل عليه في طلب الشفاعة:

عليك تكلي يا محمد يا عظيم الجود البتا

1- سورة القلم، الآية 4.

2- المرجع السابق، ص 107.

3- نفسه، ص 112.

4- نفسه، ص 60.

5- نفسه، ص 128.

يا منير الغرة والخد يا شفيع الأركان الستا¹

وللنبي صلى الله عليه وسلم ميزات خصّه الله بها، منها: خاتم النبوة، القرآن الكريم، مقامه في الجنة، الشفاعة، وحسن في وقار، فكان بذلك أفضل الخلق طرّاً:

وفضل العدناني عن ساير الانام خاتم الأنبياء مع ارسالها

فضله بالتنزيل وخصه بالمقام والشفاعة الكبرى وحسن البها² و
لنتبين فيما يلي النعوت والصفات التي ركن إليها الشاعر في مدحه، وطبيعتها
ومن أين استقاها.

5 -موضوع ذكر أسمائه ونعته بكل خير:

يخص ابن خروف النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء وصفات و نعوت تليق
بمقامه، منها ما هو من الكتاب والسنة والأثر، ومنها نعوت شعبية تعارف عليها
العامة، وأخرى من ابتكارالشاعر³ أتاحتها له مرونة العامية ومطواعيتها في يده،
فجلب منها ما يريد لتأتي متنوعة.

قد يورد سيدي لخضر هذه الأسماء والنعوت تباعا في القصيدة الواحدة كما
فعل في قصيدة " قدر ما في بحر الظلام"⁴ مثلا، من ذلك قوله في بعض
الأدوار من القصيدة:

صلى الله على صاحب المقام الرفيع

1 - نفسه، ص149.

2 - المرجع السابق، ص162.

3 - سنضع لها جدولا نبينها فيه حسب هذه التقسيمات الثلاث.

4 - نفس المرجع السابق ، ص61.

والسلام على الطاهر الحبيب الشفيق

صلى الله على فارس الوغى الوكيد

صلى الله على من عناه ربي النصر

صلى الله على صاحب الوفا والكمال

صلى الله على الهاشمي في جميع الصلوات

صلى الله على المصطفى مليح الملاح

صلى الله على المبعوث رحمة للعباد

وكذلك فعل في قصيدة " ألف استمثلوا كلامي " ¹ إذ يقول:

صلى الله عليه قدر حروف الميم محمد مصطفى مدثر مزمل

مغفور الذنب ما بقات عنه وزرة مرفوع الذكر في السما اسمه عالي

وقد يذكر أسماءه وصفاته في بيت من الشعر حتى تبلغ الثمانية في البيت الواحد:

مطهر، مجتبي، مشفع، معظم، مؤيد، متقي، مقدم، مفضل

ممجد، مرتضى، مذكر، معلم، محذر، مقتفي، محرم، محل ²

ويقول في بيت آخر:

المفضل، السخي، كرام الضيف أحمد، محمد، المصطفى، طه، محمود ³

¹ - المرجع السابق، ص 61.

² - نفسه.

³ - نفسه، 109.

ويذكر كنية النبي صلى الله عليه وسلم " أبو القاسم " واسمه "أحمد" مقترنين في بيت واحد:

اسمه في الجنة بو القاسم وأحمد في الأعلى¹

ويفضله عن سائر الأنبياء والرسل بعد أن يحصي عددهم:

يا سيد ميا وأربعة وعشرين ألف نابي ثلاث ميا وأربعة وعشرين منهم مرسلين

اختلفوا في خمسة وعشرين أهل الكتب هذا هو المشهور عند الأولين²

ويذكر الحروف المكوّنة لاسم محمد صلى الله عليه وسلم معجبا بترتيبها

ونسقها:

مقرون اسمك مع الواحد الحا بحرف الميم ابدا

دال بعد ميم المشدد ميمين في تلك الشدا³

ويُظهر حبه للنبي صلى الله عليه وسلم في ذكر هذه النعوت وينسبها

لنفسه، وهي في تتاليها توحى كأنه يضم حبيبه في غبطة فتتدافع هذه النعوت مع أنفاسه:

نُخري ومنيّتي وعزي ومرادي الهاشمي القرشي زين التبسامة⁴

نورد فيما يلي جدول بيان مصدر النعوت التي استعملها الشاعر في مدحه

للنبي صلى الله عليه وسلم:

1 - نفسه، ص127.

2 - نفسه، ص69

3 - المرجع السابق ، ص80.

4 - نفسه، ص175.

نعوت من الكتاب والسنة والأثر	نعوت من المخيال الشعبي	نعوت من ابتكار الشاعر
محمد، أحمد، المصطفى، سيد الثقلين الهادي، سيد الناس، خير الوري، أمين، الصادق، الحبيب، الماحي، كريم، بشير، نذير، الهاشمي، القرشي، مفتاح الخير، النبي العربي، نبي رحمة، خير الأنام.	بورقية، سراج الدهر، تاج الكرام، سيد الأسياد مسلك الغارق، بوخاتم، صاحب الغمامة، ظريف العمامة، باهي السر، كحيل النجلة، ابن أمينة، دليل الخيرات، جد الحسنين، العدناني، جد الشرفاء، سيد المهاجرين، سيد الأنصار، فارس الوحي، تاج الرسلا، زين البشرية.	كلاّب الضرس، حجاب القرينة، فكاك المحجول ، عمارة مكة، سباب الخير، الرشيد مصباحي، ونيس الخاطر، ترياق السم، طبيب العلايل، نقمة الأعداء، مطوع الجاهل، معدن الجود، دمار الكفر، نذير الأعراب، شجرة الرضى، محمود الاسم، ثمرة الفؤاد، راحة العباد.

هذه أغلب النعوت الواردة في النصوص الشعرية، و نلاحظ أن ابن خلوف

أدلى بدلوه فجاءت نعوته مركبة من اسمين (ونيس خاطر - ترياق السم -
طبيب العلايل.....)

6 - موضوع رؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم في المنام:

إن مما زاد في حب ابن خلوف للنبي صلى الله عليه وسلم أنه رآه في

منامه، وعدة مرات، ورؤيا النبي صادقه يقينية لقوله صلى الله عليه وسلم: "من

رأني في المنام فقد رأني فإن الشيطان لا يتمثل بي¹ ويقول أيضا: "أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا"².

ولعل صدق ابن خلوف وإخلاص نيته هو ما حدا به إلى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في منامه أكثر من مرة، كما يبين ذلك في قوله:

يكفيني صدقي ونية الاخضر كيف يكون خاطي

تسعة وتسعين روية والعاطي مازال يعطي³

ويقطع الشك باليقين في رؤية النبي حقا لما ورد في كتب الحديث فيقول:

في المسند تصح كل روية داني مني وقال مول الفرقاني

ما يتمثل خبيث ليا من شاهدي في أمتي فقد راني⁴

ويشبهه ابن خلوف نفسه بالطلل البالي، حتى إذا ما رأى النبي صلى الله عليه وسلم انبعث النور في نفسه ودبت الحياة في تلك الأطلال، إذ يقول:

هبت رياحي واحيات النور العظيم في كل اطلالي⁵

وهو يودع الشقاء برؤيته للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

بعيني شفت المدثر من شافه ما يشوف غلبا⁶

¹ - صحيح مسلم، ج 2، ص 493.

² - نفسه.

³ - بخوشة، الديوان، ص 46.

⁴ - نفسه، ص 93.

⁵ - نفسه، ص 91.

⁶ - المرجع السابق، ص 93.

ثم يشرح الشاعر تفاصيل الرؤيا وكيف رأى النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، ثم تقدم ناحيته وغسل وجهه بيده الشريفة بعد طول غياب:

شفيع الخلق بورقية البارح في المنام ريت العدناني

البارح في المنام رايته واصحابه حاضرين جملا

مدة لي ما رمقته أهلا بالمصطفى و سهلا

تقدم لشواري بذاته واغسل وجهي بزین غسل¹ ويأمل سيدي

لخضر في عفو ربه كما يأمل في أن يكرمه برؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة في جنة الخلد:

قال لخضر مداح المصطفى نبينا ابن الخلوفي الأكل يعفو الله عنه

ما يرى باذن الله لا شر لا غيبنة ويشاهد في اليقظة الحبيب يزيد يراه²

ويغالبه الشوق في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم فيبوح بشوقه في توجع:

اعلاش بطا علي عنايتي سيد رقية شافع الخلق توحشوه رماقي³

ويطلب رؤيته لعل في ذلك ترياق لما يعانيه من حرقة الشوق:

طالب روية في وجه خاتم الانبيا طبيب لدايا وعنده ترياق⁴

1- نفسه. لشواري: أي في اتجاهي.

2- نفسه، ص102.

3- نفسه، ص105.

4- نفسه.

لقد دأب شعراء الملحون قبل وبعد ابن خلوف على طلب رؤية النبي في منامهم، ونقف عند شاعر من القرن العشرين وهو أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي وهو يرصد طيف النبي في منامه بعد ما مدحه حتى حضي برؤيته:

بعد المدح بقيت نراصد في النوم نراعيك

حتى ريتك يا سيد أحمد الله يجازيك¹

وكثير غيره من الشعراء يضمّنون أشعارهم هذا المعنى لا يتسع لنا المجال لذكرهم نكتفي بهذا المثال وننتقل إلى موضوع آخر ضمّنه ابن خلوف مدائحه وهو ذكر المعجزات.

7 - موضوع ذكر معجزاته:

المعجزة حجة على صحة دعوى الرسالة، وما من رسول بعثه الله إلا وأظهر معه آثار قدرته، كخوارق لعادات الكون وقوانينه تبهت البشر وتقوم قدراتهم فيعترفون بذلك أن هذا الإنسان البشري رسول تجلت فيه قدرة الله، "وتقوم بذلك حجة الله على خلقه بأنه أرسل رسولا، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق في دعوى الرسالة، ولا يكون لأحد عذر في عدم متابعة الرسول بعد ذلك"².

وأعظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم، كلام الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

¹ - ابن دعاماش، عبد القادر، المهم في ديوان الشعر الملحون، ج1، موفم للنشر، الجزائر 2008، ص68.

² - سعيد حوى، الرسول صلى الله عليه وسلم، ص311.

ولم يغفل ابن خلوف أن يشير إلى هذه المعجزة بعد أن يصلى على النبي:

صلى الله عليه قدر حروف الصاد صاحب المعجزات منها الفرقان¹

وقد خصه ربه بالقرآن عن طريق الأمين جبريل أمرا إياه بطلب العلم:

¹ - بخوشة، الديوان، ص 61.

ليك انزل القرآن مع الأمين جبريل قال يا محمد خذ الكتاب واقرا¹

فكان للنبي الكريم الفضل بهذا الكتاب إلى جانب ما خصه به من الفضائل

الأخرى:

فضله بالتنزيل وخصه بالمقام والشفاعة الكبرى وحسن البها²

إلى جانب معجزات أخرى منها، الناقة التي اشتكت لرسول الله سوء معاملة

صاحبها لها فيقول:

إليك الأنياق حنت ما ذي إلهمة عظيمة³

لما جاء المشركون يطلبون من الرسول معجزة فانشق القمر، وهذا وارد في

حديث رواه البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه (إن أهل مكة سألوا رسول

الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقين حتى رأوا حراء

بينهما.)⁴ يقول ابن خلوف في هذه المعجزة :

طلع البدر ودخل في كُمه وتقسم شطرين⁵

وعن معجزة الماء الذي ينبع بين أصابعه الشريفة والواردة في الحديث:

أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه

كانوا بالزوراء فدعا بقدر فيه ماء فوضع كفه فيه فجعل الماء ينبع من بين

1- المرجع السابق، 101.

2- نفسه، ص162.

3- نفسه، ص45.

4- سعيد حوى، المرجع السابق، ص319.

5- بخوشة، الديوان، ص127.

أصابه وأطراف أصابعه فتوضأ أصحابه به جميعا، قلت لأنس كم كانوا قال:
زهاء ثلاث مائة¹.

يقول ابن خلوف:

انشق القمر، وانهمر من كفه واد واسقى جيش كثير من قدره ثاني²

هكذا يدمج الشاعر المعجزتين في بيت واحد، كما فعل في هذين البيتين، إذ
جمع بين معجزة النخلة التي جاءت النبي فدعا لها بالخصب، ومعجزة الماء
المذكورة.

ليك جات النخلة المجدبة واحياة من كفك روات العرب يارسول البيت

أحلا من العسل في مناسج النحلات وأبيض من اللبن قلها تقول رويت³

ويذكر في بيت آخر معجزة العنكبوت التي سدّت الغار والظبية التي شهدت
للنبي بالرسالة:

من معجزاتك العنكبوت سد الغار والظبي يا سيد العباد ليك شهد⁴

وتتكرر ظاهرة جمع ذكر المعجزتين في البيت الواحد في قوله أيضا:

ملك الملوك خصه بالمعجزات على الأنبياء الناشئة من طباعه

نطق للصادق الأمين ذراع الشاة محمدا انهمرت العيون من اصباعه⁵

1- سعيد حوى، المرجع السابق، ص313.

2- بخوشة، الديوان، 88.

3- نفسه، ص 61.

4- نفسه.

5- نفسه، ص107.

وهي معجزة الشاة المسمومة التي قدمتها المرأة اليهودية للنبي صلى الله عليه وسلم فنطقت له ذراعها، ومعجزة الماء المنهمر من أصابعه المذكورة.

معجزة أخرى تحدّث عنها سيدي لخضر وهي من أعظم المعجزات هي معجزة الإسراء والمعراج التي فرضت فيها الصلاة حيث يقول فيها:

صلى الله عليك قدر حروف القاف قاب قوسين كان بالقرب أو ادنى

انصب جبريل للنبي المعراج وطاف أتانا بالخمس الفريض والسنى¹

وذكر أن النبي تكلم في الشهر الرابع بعد ولادته صلى الله عليه وسلم وقال: " الله أكبر"، يقول الشاعر في ذلك:

في الرابع لأمه تكلم وعظم المولى²

هكذا كانت هذه المعجزات وغيرها كثير، دالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته، مُظهرة لقدرة الله وقوّته سبحانه وتعالى.

كما يصح القول إن الله سبحانه قيّض لدعوته رجالا يسندون ظهر النبي صلى الله عليه وسلم، ويكونون له العون والنصير، هؤلاء هم أصحابه الذين ذكرهم ابن خلوف في معرض مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم ومدّحهم هم أيضا.

8 موضوع ذكر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم:

¹ - نفسه، ص62.

² - المرجع السابق، ص127

لقد قدّر الله تعالى لدعوة محمد صلى الله عليه وسلم أسبابا لتتجح وتأخذ طريقها التي أرادها لها سبحانه، ومن هذه الأسباب، وأهمها، الرجال الذين كانوا حول الرسول، فعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، فكان أن التصق ذكركم بذكر النبي صلى الله عليه وسلم. وفي مدح ابن خلوف للنبي يورد ذكركم، ومن أكثر أصحابه وآل بيته ذكرا في قصائد شاعرنا، علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، الذي إضافة إلى أنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وصهره، وكذا محبته له، وأبو سبطي النبي صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين، فهو البطل المغوار والمجاهد الباسل، الذي بلغ من بطولته وشجاعته في المعارك والغزوات أن جاوز المخيال الشعبي كل هذه الحقائق لينسج حول سيفه أساطير وخوارق تصنفه ضمن أبطال الملاحم الأقرب إلى الأساطير منه إلى صحابي جليل، وشاعرنا ابن بيئة تقدّر الموروث الشعبي وتقدّسه، ولعل كثرة ذكره لعلي كرم الله وجهه، من هذا الباب أكثر من غيره.

يقول ابن خلوف في ذكر علي:

وعلي الفارس الهمام من طوع الكفار بالله المعين¹

ومن أثر الموروث الشعبي وقوة تأثيره يقلب ابن خلوف الموازين فيلحق

الأصل بالفرع فيقول:

أنت صديق الأمير علي أنت هلاك بن المرة²

¹ - بخوشة، الديوان، ص 51.

² - نفسه، 81.

إذ جعل الرسول صلى الله عليه وسلم صديق علي رضي الله عنه، والأصل أن علياً هو صديق الرسول.

ويقرن ذكر السيف، سيف علي المتميّز، بذكر علي في دعوة عينه للبكاء، بعد فقدها لهذا الصحابي الجليل وبطل الملاحم الأشوس:

لاش بعد علي زين السيف ترقيدي لاش بعد الستة ما تمطري الخدود¹

ويستريح سيدي لخضر لكنية علي "حيضرة" ويأنس لها لارتباطها بالقوة والشجاعة إذ "الحيدرة" من أسماء الأسد، "عن سلمة بن الأكوع: أن علياً رضي الله عنهما، لما بارز مرحبا الخيبري قال علي رضي الله عنه: أنا الذي سمنتي أمي حيدرة"².

فيوردها في كثير من أشعاره كما في قوله:

اللهم أرضى عن المكنى حيضرة اسمه عبد الإله ثم الأمير علي³

ويتوسل إلى الله به في دعائه:

اللهم آمين، قولوا يا حضرة بجاه الأمير حيضرة اسمه علي⁴

ويتوسل بفاطمة و أبيها الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجها فيقول:

دخيل لك بفاطمة مع باباها وزوجها حيضر أعطاه الله الهادي

الحسن والحسين نعم أولادها بنت المصطفى الرسول محمدي¹

¹ - نفسه، ص164.

² - النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، كتاب الأذكار، مؤسسة الرسالة، ط1، د.ب، 2006، ص337.

³ - بخوشة، الديوان، ص60.

⁴ - المرجع السابق، ص63.

ويزهّد في الدنيا وكيف هي دار فناء، فيذكر مآل أصحاب النبي وأعمامه
أهل الفضل:

واين هم السادة اعمام حيضرة واين هم ابن عم الصادق الأمين

واين هو العباس وحمزة القيصرا فاين ابن جعفر الحادق الوزين²

وفي نفس السياق يقول ذاكرنا بقية الخلفاء:

واينهم الخلفاء مع الاصحاب سيادي بوبكر وعمر وعثمان في اللحد³

ويجمع ذكر الخلفاء والمهاجرين في هذه الأبيات فيقول:

لا بد من الرضى عن أصحابه الكرام وعن المهاجرين الأبطال السادات

اللهم ارض عن المكنى حيضرة اسمه عبد الإله ثم الأمير علي

ثم بوبكر وعثمان وعمر واجعلنا كلنا في منزل عالي⁴

كما يدعو بالرضى لأهل النبي صلى الله عليه وسلم ويخص بالذكر أبا بكر

والسبطين:

والرضى على أهله الكرام بوبكر الصديق والحسن والحسين⁵

1 - نفسه، ص104.

2 - نفسه، ص162.

3 - نفسه، ص164.

4 - نفسه، ص60.

5 - نفسه، ص51.

ويذكر فضل أم النبي عن سائر النساء وبعدها حليلة السعدية مرضعته،
وفضل أمنا خديجة، إذ كانت أول من آمن به ونصره، وبعدها أبو بكر، وكلا وعد
الله الحسنى :

ما ولدت في النساء مثل بنت وهب وامه من بعدها حليلة السعدية

خادجة فائزة على النسوة في الزين أول ما صدقت رسول الله هي

وقيل بوبكر وقيل باثنين واختالفوا قال ذلك من قبله هي¹

كما ذكر أصحاب النبي العشرة المبشرين بالجنة في غير ما موضع:

صل على الرسول وسلم وارضا على اصحابه العشرة²

وقال في موضع آخر:

نرغبك بعظيم الجود والاصحاب العشرة الابرار، يا المختار³

ومن ذكر أصحابه إلى ذكر الأماكن المقدسة، وأقدسها جميعا مكة والمدينة

المنورة.

9 موضوع ذكر مكة والمدينة وشوقه لزيارتهما:

لم تقع هذه البقاع في نفس ابن خلوف، وربما سائر شعراء الملحون محل
قداسة مرتبطة بالدين وطقوسه التعبدية بخلفية عقيدية فكرية، بل ارتبطت قدسيتها
بما وقر في قلوب الشعراء من حب النبي صلى الله عليه وسلم، وبتعبير آخر،
فإن الخلفية العاطفية الوجدانية هي التي أضفت على تلك البقاع قدسيتها في

¹ - المرجع السابق، ص118

² - نفسه، ص146

³ - نفسه، ص150.

نفوس الشعراء، تماما كما يقدر أهل الطرق والزوايا الأماكن التي درج عليها شيخهم فيبنون عليها القباب، ويتعهدون زيارتها والتبرك بها، وقريب من ذلك وقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال ومحاوره الرسوم، وليس لنا أن نخوض في علوم النفس ومزالقها، ولكننا أردنا أن نوضح أن العاطفة تأخذ اتجاهها واحدا وما يشفع للشاعر إلا حبه الصادق للنبي صلى الله عليه وسلم، وما الشوق الذي يحمله لزيارة هذه الأماكن إلا أكبر دليل على حبه للنبي وإخلاصه في مدحه.

هذا ابن خلوف يرغب في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يدركه أجله، في حرقه شوق، بدموع غريب هجر النوم أجفانه:

بغى نرور مالي طاقة مكة ضحاحات فرض عليا

الاركاب غاديين رفاقة يبلغوا لسيد رقية

الموت لا غنا لحاقة خايف الا تقصر بيا

نبكي بكى الغريب موحد ناري اقدات في الجوف بغير ارتاد

بغى نرور قبر الامجد مالي منام ولا نستلد عليه رقاد¹

ويسأل الله متضرعا أن يكرمه بإجابة دعوة واحدة؛ هي زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم:

من سيل عرقك طاب الورد يا الله راغبك في وحدة

زورة لقبر المجد الهاشمي زين البردة¹

¹ - المرجع السابق، ص77.

ويتمنى على الله الوسيلة التي تقله إلى ربوع حبه صلى الله عليه وسلم

فيقول:

من صاب لي عمهوج أحمر يسوى من اليبيريز ميا

معلوم يخلي ويعمر للهاشمي يسرع بيا

مقطوع من عرجون تمر محصود عند الوسيمة

بالراكبة يدنا للبعد للرسول مزواق يفدا

عراد من ظله يشرد عوام بحر المهمودا²

هذه صفات جواد سريع كسرعة البرق يطوي الأرض طيا، وما هذا التصوير

لسرعة الراحلة إلا أبلغ دليل على شدة شوقه وتلهفه لزيارة قبر النبي صلى الله

عليه وسلم، ويدعوه بأسمائه وصفاته أنه راغب في زيارته:

محمد الهادي ياخير الأنام ليك باغي زيارة³

ولكن لا راحلة له ولا زاد، ولو تسنى له ذلك لأسرع وما تواني وما تقاعس:

¹ - نفسه، ص79.

² - المرجع السابق، ص79.

³ - نفسه، ص91.

لا رحيل لا زاد لو كان الزاد لي عديت للشرق غارا¹

لأنها غايته و مقصده:

غايتي و مركاحي زيارة سيد الخلق ليه وجهت سوالي²

ولو تيسر له الأمر لقدم لزيارته بمعية أهله أجمعين:

لو صبت يا عديد التمد نقدم لعندك بالزوجة والاولاد³

وقد يتوسل بمكة كما يتوسل بشيخ من مشايخه، كما في قوله:

بجاه مكة وحرمة اللي زارها ويجابه شيخ المشايخ البغدادي⁴

ويضرب بها الأمثال في فضلها هي والمدينة عن سائر بقاع الأرض فيقول:

لا إله إلا الله أساس للجهاد فضل أهل التوحيد و الشهادة

كيف فضل مكة عن ساير البلاد والمدينة الخضراء، دار السعادة⁵

وكم يحلوا لابن خلوف أن يتضرع لربه بنبيه ويناقيه، هذا ما نكشفه في

موضوع المناجاة والتضرع.

10 - موضوع المناجاة والتضرع:

المناجاة من الفعل ناجى بمعنى سار⁶، أو أودع سرا، وهي من الحميمة،

إذ المناجاة تكون للخليل وما أشبه فلا يسار أحد عدوه، إلا إن كان من قبيل

1 - نفسه.

2 - نفسه.

3 - نفسه، ص78.

4 - نفسه، ص104

5 - المرجع السابق، ص 162

6 - الزاوي، الطاهر أحمد، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، 1983، حرف النون، ص595.

التهكم والاستمالة، وقد تكون المناجاة بين الأخلاء بالإثم والعدوان، وقد تكون بالبر والتقوى، كما نهى وأمر الشارع في الآية: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى »¹. وأما التضرع فتكاد تجمع قواميس اللغة على تعريف واحد، ففي القاموس المحيط للفيروزآبادي²، جاءت مادة ضرع إليه ضراعة بمعنى خضع وذل واستكان، وتضرع إلى الله تعالى ابتهل وتذلل أو تعرض بطلب الحاجة. وبنفس المعنى جاءت في مختار القاموس³ وفي أساس البلاغة⁴ وغيرها من قواميس اللغة. وجاءت في معجم ألفاظ القرآن الكريم⁵ لمجمع اللغة العربية بمعنى تضرع: جاء يطلب حاجة فتذلل وإلى الله ابتهل.

ويلتقي المعنى اللغوي والديني في الخضوع والتذلل والانكسار لمن عنده الحضوة وله القدرة، وقد وردت في آي القرآن بهذا المعنى، في مثل قوله تعالى: « قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لِّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ »⁶

إن مديح سيدي لخضر مليء بالمناجاة والتضرع، أنظر كيف يتضرع إلى الله بالرسول صلى الله عليه وسلم أن يتفضل عليه بالدواء الذي هو الشفاعة، ليبرأ مما يحمله من ذنوب وخطايا:

¹ - سورة المجادلة، بعض الآية 09.
² - الفيروزآبادي، مجد الدين بن يعقوب الشيرازي، القاموس المحيط، ج3، دار العلم للملايين، بيروت، فصل الضاد باب العين، ص56.
³ - الزاوي، الطاهر أحمد، مختار القاموس، حرف الضاد، ص372.
⁴ - الزمخشري، جار الله أبو قاسم محمود بن عمر، أساس البلاغة، تحقيق: أ. عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، مادة ضرع.
⁵ - مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة 1981، تصدير د. إبراهيم مدكور، مادة ضرع، ص374.
⁶ - سورة الأنعام، الآية 63.

أرفق بروحي وجسدي داوني نبرا من الدا¹

ويتضرع إليه طالبا الشفاعة له ولأهله ، بل و كل ذرية آدم عربها
وعجمها ، برّها و فاجرها، وفي ذلك قيمة إنسانية تحملها ذات الشاعر:

يا محمد لا تسلم في جسدي وأهلي و ناسي

حرر لي ما ضنات آدم قدر شعر ذاتي و راسي

البادية الاعراب و عجم كلتها تاقي وعاصي²

كيف لا يتضرع له وهو رجاؤه الوحيد، بل وملجأ الناس أجمعين:

يا من لا سواك يرتجى ملجائين كلنا إليك³

ولا تتقطع مناجاته وتضرعه إلى أن يشفي نفسه العليلة:

يا رسول مولا يا أنت مشفي النفوس نفسي عليلة⁴

ويهيم الخلوفي في حب النبي الكريم حتى تلاشت همومه وتبددت وغابت،
وهي كالقطران لشدة سوادها، كما تغيب حبات الرمل في قعر البحر فيقول:

يا كوثر اللبن فيك غاب قطراني مثل حباب الرمل في عميق الزخار⁵

وهو بعد هذه المناجاة اللطيفة، يتضرع بسيد الخلق أن يكون له حجرا من

النار:

1- بخوشة، الديوان، ص42.

2- نفسه، ص45.

3- نفسه، ص84.

4- المرجع السابق، ص90

5- نفسه، ص97

يا غوث شاعرك ولو كان براني ما ترضى أن ينحرق ابن خلوفي بالنار¹

ويسترسل في المناجاة ثم يتضرع بالنبي أن يختم له عند خروج الروح بكلمة

التوحيد:

يا عبد يا نابي يا رسول يا فتاح يا خاتم الرسلا يا سيد فطيمة

تختم لشاعرك عند خروج الأرواح بلا إله إلا الله العظيمة²

والملاحظ أن هذه المناجاة وهذا التضرع بدافع المحبة لا بدافع التعبد الواعي، وإلا كيف يفسر طلب الثبات على التوحيد عند خروج الروح من دون الله، وهي من خصوصياته، وابن خلوف أعرف الناس بذلك.

ويناجي ويتضرع قبل طلب الاستغاثة لغرض الشفاعة فيقول:

أنت البشير مبشر ندير وناصح من بيت ذويب وليد حليمة

مكي وزمزمي و هاشمي ومداني سيد المهاجرين وسيد الأنصار

يا سيد الملائك والجنون سلطاني سيد العبيد جملة وسيد الأحرار

يا سيد من سبقها وسيدها لآن اضمن نفوسنا يا صديق لبيك

يا طاهريا رسول يا حبيب مولانا يا غوث يوما تكون صرختنا بيك³

¹ - نفسه.

² - نفسه، ص98.

³ - بخوشة، الديوان، ص98.

ويحلو لابن خلوف، ويطيب له أن يناجي حبيبه ويبوح له بما يدخره له فؤاده
من حب، ما فتئ أن شرح صدره للذكر وأفاض قريحته بمدحه صلى الله عليه
وسلم:

يارحمة يا مغيث للأجير مستجار يا خير الوري يا شريف الأنام
يا عقبة الفضل عند مشتري التجار حصنا من الفضل ما احصاه رمامي
انت اشرحت بالذكو والمديح لساني وعمرت صميم صدري وسائر الاسرار¹
ويستجير الشاعر بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن يناجيه:

يا نعمة الأعداء يا مطوع الجاهل يا خير ما أتى بالكتاب رسول
يا نور الاقتداء يا نور الغافل يا حاجبي غدا في نهار الهول
يا معدن الجود يا كريم يا واصل تقول شاعري ابن خلوفي مقبول²
ويبين فضله على الكائنات، وفضل الله عليه في مناجاة تتلوها الصلاة
عليه:

بيك طابت الأثمار يا نخيرة اللبيب بيك نعمة الإسلام بنعائم فايضة
فضلك واختارك واصطفاك حبيب وسلوكك بالقدرة ما بين ظا وظا
يا عمارة مكة ورسولها لا ريب الصلاة والسلام عليك والرضا³

¹ - نفسه، ص 99.

² - نفسه.

³ - نفسه، ص 101. طاووظا: أي اختصار طاغية وظالم.

وله أضاءت مصابيح الليل وأزهرت، وله سطعت الشهب وأنارت، وله
أمطرت السماء وفاضت الأودية وازدهت حدائق الأرض، وكل هذا الجمال بين
السماء والأرض لا يضاهي حسنك وجمالك:

ليك يا محمد زهرت مصابيح الليل واستنارت شهاب ما بين سين ورا¹

ليك صبت الأمطار وفاضت المنازل واحتيات الجذبة ولات سريس خضرا

وابتهج النعمان الأحمر في القطب في حدائق مصنوعة ليك خافضة

زينك أحسن وابهى ياراكب النجيب معذورمن لا شافك عينه مغمضة²

ويحيل ابن خلوف إلى مشروعية التضرع فيقول:

لولاه بمن الخلاق تضرع لا مسجد لا امام لا طالب يقرأ³

ويدعو عينه للبكاء تضرعا إلى الله عسى أن يقيها شر ذلك اليوم، فيقول:

يا عين يامشومة وابكي بالدمع زربي هوظلة

تضرعي لسيدك واشكي لا بد ينظر للحالة

وإذا حصلت ما تتفكي ما تنفعك معه مسالة

ندعيك للذي يحشرنى يوما فيه تغشى الأبصار وتولي ذهاب⁴

ويرى خلاصه إذا احمر الحدق، في ربه ثم في حبيبه محمد صلى الله عليه

وسلم، فيقول مناجيا متضرعا:

إذا حصلت مالي فكاك غير رب العزة وانتا⁵

1- المرجع السابق. سين ورا : أي اختصار سماء وأرض.

2- نفسه، ص101.

3- نفسه، ص108.

4- نفسه، ص138.

5- نفسه، ص148.

ومثل ذلك قوله:

يا رسول الله مالي أحد غير رب العزة و أنتا¹

وقد آلى ابن خلوف على نفسه، وهو العاشق الولهان، أن يمدح حبيبه إلى أن يواريه الفناء:

ابن خلوف عاشق مداح يمدحك لن تفنى عمره²

وهو بعد فنائه تتبري روحه بين الأرواح لمدحه إلى أن تستبين طريقها:

تمدحك روحه في الأرواح لن تنشق سما قدره³

ويدعو الله في تضرع أن يغفر الكثير من سوء أعماله، وفي المقابل أن يقبل ولو قليلا من أعماله الصالحة القليلة في أسلوب من التذلل والانكسار:

آ من درى الكثير من سوء أعماي إذا غفرت منه ياسر يا باري

آ من درى القليل من حسن فعالي هل قبلت منه حتى عشر عشاري⁴

وما مدح ابن خلوف ومناجاته وتضرعه إلا طمعا في الشفاعة لذا كانت أكثر الموضوعات انتشارا في شعره.

11 - موضوع التوسّل والتشفّع:

موضوع التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وطلب شفاعته كثير في الشعر الملحون ، ولنقف عند مفهوم هتين الكلمتين لنتبين معنى كلا منهما.

1 - نفسه، ص149

2 - المرجع السابق، ص151. لن: بمعنى إلى أن

3 - نفسه.

4 - نفسه، ص173.

فتوسل إلى الله جاءت بمعنى عمل عملاً تقرب به إليه¹، وتوسلت إلى الله بالعمل تقربت، قال لبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي دين إلى الله واسل²

ووسل إلى كذا: تقرب إليه ورجب فيه، والوسيلة: الوصلة يتوصل بها إلى

البغية.

والوسيلة إلى الله سبحانه ما يوصل إلى ثوابه و الزلفى لديه، وذلك بفعل الطاعات وترك المعاصي³. وجاءت بنفس المعنى في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »⁴.

أما التشفع، فالشفعة والشفاعة في قواميس اللغة هي أن تشفع فيما تطلب، فتضمه إلى ما عندك فتشفعه أي تزيده⁵. وشفع له عند آخر، يشفع شفاعة: طلب التجاوز عن سيئته، كأنه ضم نفسه إليه معيناً له، فهو شافع وهم شافعون وشفعاء، ومنه الشفاعة عند الله⁶.

ووردت كلمة الشفاعة في آي كثيرة من القرآن الكريم بنفس المعنى منها

قوله تعالى:

1 - الزاوي، الطاهر أحمد، مختار القاموس، حرف الواو، ص657.

2 - الزمخشري، أساس البلاغة، مادة وسل، ص499.

3 - مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، مادة وسل، ص723.

4 - سورة المائدة، الآية 35.

5 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط ج3، فصل السين، باب العين، ص46.

6 - مجمع اللغة العربية، المرجع السابق، مادة شفيع، ص332.

« مَنْ دَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »¹ وفي قوله تعالى: « فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ

فَيَشْفَعُوا لَنَا »² وأيضا قوله: « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى »³.

وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأُمَّته واردة في الحديث لا مرأى فيها ولا ريب، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: "إن لكل نبي شفاعة ودعوة دعا بها في أمته، فاستجيب له، وإني أريد إن شاء الله أن أدخر دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة"⁴.

دأب ابن خُلف على مدح النبي صلى الله عليه وسلم وضمّن هذا المدح موضوعات شتى، ولكن موضوع التوسل والتشفع قد نال حصة كبيرة في مدائحه، ذلك أن الأمل الأكبر للشاعر هو نيل هذه الشفاعة، وهو في طلبها يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأنه صاحب الشفاعة لمقصر مثل ابن خُلف:

يا محمد لك يفرع من لا له في الناس والي

لا غيرك مناع يمنع من سطوة مولى الموالي

لا غيرك شافع يشفع من هو عره بحالي⁵

أليس هو الشفيع الذي ينقذ أمته من حر جهنم يوم القيامة:

هو الشفيع في أماته شافعنا يوم القيامة

يمنعنا من نار تقدي جهنم حرة شديدة⁶

1- سورة البقرة، الآية 255.

2- سورة الأعراف، الآية 53.

3- سورة الأنبياء، بعض الآية 27.

4- أبو الحسن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري، تحقيق د. عبد المهدي بن عبد القادر بن عبد الهادي،

ج1، مكتبة الفلاح، الكويت 1985.

5- بخوشة، الديوان، ص44. عُرِّة: عبارة عند العامة تعني الانتقاص والدونية

6- نفسه، ص46.

بل إن النبي لا همّ له غير أمر الشفاعة:

صلى الله عليك يا عظيم السمايل يا من لا لك هم غير أمر الشفاعة¹

وقد أخبرنا صلى الله عليه وسلم عن سجدة يؤديها بين يدي الله

في حديث يدعى حديث الشفاعة نجتزئ منه: "ولكن اتتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيتَه وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تُشفع".²

يقول الشاعر في معنى هذا الحديث:

يا سيد رقية تادي بين يدين الله سجدا

وملايك ربي تنادي ارفع رأسك يا احمد³

ويتوسل الشاعر بالنبي ألا يتركه عرضة لازدراء وشماتة الأعداء وهو

شاعره ومداحه:

المداح حقير يعايره كل ناقص كيف شاعرك ينذل يا شريف العناية⁴

كما يتوسل إليه أن يأخذ بيده في يوم الهول الأكبر:

واخترنا عرب من ناسك يا فارس الوحي نبينا

1 - نفسه، ص 67

2 - صحيح مسلم، ج 1، ص 112.

3 - بخوشة، ص 44.

4 - نفسه، ص 69.

تجعل نفسنا من نفسك في الضيق لا تسلم فينا¹

يوم يحتمي به المذنبون المقصرون طالبين شفاعته مستجيرين به:

نبينا يوم القيامة تدرق به الخافين

تصرخ به القوم تامة والاجساد العاطبين

وسكان الأرض والسما لحوله حافين²

ويعلن الشاعر إلحاحه في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه السبيل

الأوحد لنجاته:

لحبيبي تلحاحي فكاك المحجول من قيود الانكال³

ويؤمن يقينا أن النبي صلى الله عليه وسلم شفيعنا، ومن يجحد ذلك فإن

مصيره إلى النار خالدا فيها:

ما توجد وغيره يوم الضيق والحسرة هو شفيعنا إمام الأنبياء الأسعد

انت شفيعنا بإذن ربنا الغفار واللي يكذب بك في السعير اخلد⁴

وهو صلى الله عليه وسلم غاية الأمل فكل من اقتدى به نجا، وابن خلوف

من الناجين، إذ اهتدى بسنته ولم يخالف منهج السلف:

يا غاية الأمل كل من اقتدى سلك ما خالفت السلف ما ضيعت امانات⁵

1- نفسه، ص74.

2- نفسه، ص 85 وما يليها. حافين: مائلين.

3- نفسه، ص91. المحجول: المقيد.

4- المرجع السابق، ص88.

5- نفسه، ص97. سَلَّكْ: بمعنى نجا.

وعلى هذا يرى الشاعر أنه أحق بالشفاعة وأهل لها:

يا سيد نرغبك بالشفاعة لك حرر جوارحي من لهيب تلذات

باغيك تقول للنار احدي بالك لا تحرقني جسدة ابن خلوفي هيهات¹

وتطيب نفس ابن خلوف ويهدأ باله إذ يطلب من الحاضر أن يبشر الغائب من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أنهم سيردون الحوض وينالون الشفاعة، وهي ثقة، وحسن ظن بالله، يدفعهما صدق حب الشاعر للنبي صلى الله عليه وسلم:

يا كل من حضر قم بشر الغائب بالحوض والشفاعة لسيد الأرسال²

ولا مناص من توسل سيدي لخضر إلى الله بالنبي وهو الذي بلغ سدة المنتهى، « تُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى »³، مقام لم يبلغه غيره صلى الله عليه وسلم، ولا مهرب من هذا التوسل فالشاعر مثقل بالأوزار:

يا سيد من أذن له من الحطام فكانا أنت قربت قاب قوسين يامن أسعدنا بيك

تكلي عليك توفي ماجاب ديواني ترفع همتي راني كثير الاوزار⁴

ويتعدى سيدي لخضر في طلب الشفاعة وقبول شخصه عند النبي صلى الله عليه وسلم إلى قبول إخوانه وأهله وجيرانه وكل من رضي بمديحه من أقرانه ويستهل دعاءه باستعطاف لا يحق إلا لكريم عظيم الجود:

يا معدن الجود يا كريم يا واصل تقول شاعري ابن خلوفي مقبول

1 - نفسه.

2 - نفسه، ص98.

3 - سورة النجم، الآية 8 و9.

4 - بخوشة، ص98.

نزهي وبنظرب مع جميع الاخوان والأهل واللي معيا والقريب حتى الجار
وكل من صغى للمديح في أقران شتمي على العدو والحبيب راه في الدار¹
لا يستقيم الدعاء والتوسل إذا انعدم معه الأمل في نيل شفاعته صلى الله
عليه وسلم:

لا فرع معتدل إذا انعدم الآمال ترجى العباد غدا شفاعته المرسول²
ولا يخيب له أمل في نيلها، وورود الحوض هو وأولاده ، وقد اطع من
خلال الأحاديث النبوية في الأسانيد الصحيحة على حقيقة فحواها أن دعوته
صلى الله عليه وسلم مجابة في حق الشفاعة، فيقول:

مروي على النبي في صحيح الأسناد قال الرسول طه شفيعنا سيد القوم
في الموقف العظيم البتول تنادي يا شاعر النبي راك جبت اليوم
لا خوف ولا حزن مع جميع الأولاد تسقى من الرحيق الصافي المختوم
مدحي عليك موهوب يا سيد عدنان غدا في جنة الخلود تكون لي جار³
ويلح ابن خلوف على الزاهدين والعابدين والذاكرين متوسلا بهم أن يرفعوا
أيديهم داعين بالمغفرة، والشهادة له بأنه كان شغوبا بحب النبي صلى الله عليه
وسلم، مستعملا ألفاظا فيها من التوقير والتبجيل، لهؤلاء الصفوة من الناس، ما
يليق بمقاماتهم في نفس الشاعر الذي يقول:

1 - نفسه، ص99.

2 - نفسه، ص100.

3 - نفسه

يا الزاهدين يا عابدين يا فقرا يا ذا الساجدين دخیل همتمكم

يا الطایعین یا عاملین یا ذکرا یا حافظین ذا العلم أنا عبیدکم

یا فایزین یا تالیین یا قرا یا خایفین ربی رانی نحشمکم

یوما نموت تدعولي بالاستغفار وبعدها اتفکروا مداح محمد

لواه كان لخضرمشغوف بالمختار الله یرحمه قل یا الی تشهد¹

وهو يتوسل بجاه مكة وحرمتها وكل من زارها، وساكنيها وبعدها الشيخ عبد
القادر الجيلالي، دفين بغداد، الفقيه الورع، وهو رمز الأولياء الصالحين، أن يرى
النبي صلى الله عليه وسلم فيكون حاله حال الزرع أدركه الغيث:

بجاه مكة وحرمة الی زارها وبعدها شيخ المشايخ البغدادي

حرمة بيت النبي مع سكانها غيثوني بالحبيب محمدي²

وتتكرر الصورة نفسها وهو يتوسل بآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إذ

يقول:

غيثني بالحبيب يا علام الغيب مالك الملوك لا إله إلا هو

دخیل لك بفاطمة مع باباها وزوجها حیضر اعطاه الله الهادي

الحسن والحسين نعم أولادها بنت المصطفى الرسول محمدي³

¹ - بخوشة، الديوان، ص 89.

² - نفسه، ص 104.

³ - نفسه.

ولُيُديم الله عليه سِتره ، يتوسل ابن خلوف بالنبي صلى الله عليه وسلم

فيقول:

بسيد الاسياد طالبك ياذا جواد تسبل عني يا كريم الستر الدايم¹

ويهدي الشاعر مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم إلى صحابته الأخيار لعله
ينال حبا يقربه إلى حب النبي صلى الله عليه وسلم متوسلا إلى الله بجاه الأعياد
وقدسيته وأولياء الله الصالحين وإمامهم عبد القادر الجيلاني، بأن يُثمر هذا المدح
برؤية النبي الذي عزت رؤيته في النوم:

بجاه الأعياد والرجال اللي عباد ومولى بغداد راه عقلي هايم

لسيد العباد فضله ربي الجواد جيد الأجواد للمصطفى بوخاتم

الاخضر يقول كلمة بميزانها مرصع بالذهب شعره وقادي

يهديه للملوك في بستانها أصحاب المصطفى ضيا الاثمادي

اعيات عيني تنوح لا من جاها بطا علي الحبيب محمدي²

ويلتزم ابن خلوف في كل دعاء بالتوسل إلى الله بنبيه ألا يجعل للأعداء
عليه سبيلا وألا يفضحه يوم الجمع:

يا مؤمن يا سلام يا واحد يا فتاح نتوسل بالرسول في كل دعاء

لا تجعل للأعداء سبيل على المداح والخلايق كافة علينا مجتمعة³

1 - نفسه، ص106.

2 - المرجع السابق. بطا: أي أبطأ.

3 - نفسه، ص114.

ومن توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم، أن ينجيه من عذاب النار وشماتة الأعداء، وكذا توسله بمديحه له، قوله:

دخيل لك بالذي سماك لا تسلم في حتا

يعايروني قوم الاشرار واليهود ابناين الشمتا

مد يدك تهوى ليدي يبرا جسدي من الاضرار، يا المختار

قل لجهنم ذا عبدي لا تضيع مملوك الدار، يا المختار

نمدحك في ذيك و هاذي للعجم والحبش والاحرار، يا المختار¹

ويتخذ الشاعر من كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، واسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيلة يتوسل بها إلى الله عسى أن يرفع عنه البأس، ولا يعذبه، وهو المفطر المقصر:

في جود لا إله إلا الله الواحد العظيم الصمد

واسم الحبيب رسول الله الطاهر النبي محمد

من كل بايسة متهنّي ويحه المفطر كيفي يلقي العذاب²

ويعلن توسله برب الكعبة ألا يبتليه في دينه فيحجبه عن نور وجهه سبحانه وتعالى فيقول:

نتوسلوا برب الكعبة علم الإنسان ما لم يعلم

¹ - نفسه، ص 148 و ما يليها.

² - المرجع السابق.

من لا يكون صادق سني مخالف الشرع راه ماشي في الضباب

ربي ابتلاه لا يبليني بينه وبين رب العزة كم حجاب¹

ولعظمة القرآن في نفس الشاعر يتوسل إلى النبي صلى الله عليه وسلم
بآياته ألا يقصر معه في نيل الشفاعة، وألا يكلفه ما لا يطيق، ويخصّ في توسله
بآيات سورة نون، عن قصد لأن فيها آية عظيمة تتعلق بأخلاق النبي صلى الله
عليه وسلم: «**وإنك لعلی خلق عظیم**»².

كأنما أراد القول: إن من امتدحه ربه بعظمة أخلاقه، ليس من شيمته
التقصير في حق مفرط مثلي، يقول ابن خلوف:

دخيل لك بآيات نون والقلم واللوح و الأعراف

لا تقصر من دون لدون ولا تكلف روجي تكلاف³

ويستوي عند ابن خلوف التوسل بالقرآن الكريم وبالأولياء الصالحين، وأهل
الحديث وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين من السلف والحرم
الشريف، والصحابة في طلب النجاة من النار وجحيمها إذ يقول:

دخيلنا لك بالقرآن ووجه سيدي خير النساء

والبخاري و الخولاني ووجه سيدي منصور الحاج

بك يحيى العبد الجاني يا ظريف الحلة والتاج

¹ - نفسه، ص104.

² - سورة القلم، الآية4

³ - بخوشة، ص149 وما يليها.

نرغبك بعظيم الجود والأصحاب العشرة الأبرار، يا المختار

والحرم و رجال السند والجنيد و كعب الاحبار، يا المختار

ما نشوفوا برد و لاصهد يوم تزفر ترمي بشرار، يا المختار¹

وهو إلى جانب توسله بالنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة والأولياء

الصالحين، يتوسل بالكعبة والمدينة والبيت المعمور، فيقول:

بجاه البيت والمدينة والمعمور وسيد السادة كلها²

ويلح في الدعاء متوسلا بالنبي تارة، وبالأنبياء تارة أخرى، مبينا فضلهم،

وبالأماكن المقدسة في أرض الحرم، والمهاجرين والأنصار طورا، فيقول:

غيثي واغفر ذنبي يا محيط بجاه سليمان ابن داود المطيع

بجاه سيد الرسلا المظلل بالغمام وجاه سيدنا عيسى روح الله قالها

والصفا والمروى والركن والمقام والمهاجرين والانصار كلها³

ويكرر هذه الأماكن المقدسة ويزيد عليها الكواكب متوسلا بها أن يغفر الله

له ذنوبه التي تفاقمت فيقول:

نرغبك ربي بجاه الشفيع مع البيت و جاه الركن والخليل

والصفي والمروى والحرم والبقيع والجبل والمشعر والمنزل الحفيل

والكواكب تسطع من وسطها سطيع تغفر للناظم ذنبه ضحي ثقيل¹

¹ - المرجع السابق، ص150

² - نفسه، ص158

³ - نفسه، ص162

ويتقلب سيدي لخضر بين الخوف والرجاء في توسله بالعرش والبيت الحرام،
وبالنبي وآله ألا يعذب أحدا من أهله و كل زائريه، و يبذلهم دارا خيرا من دارهم،
بل ويكرمهم بورود الحوض:

دخيل لك بالعرش وما فيه والبيت المعمور مكة

بالمشفع وبآله وكل من تحى وتزكى

لا يغرقنا في هاذه ولا تشوقنا في تلكا

لا تسلم في والدي والقربى واهلي والجار، يا المختار

والزائرين من جلسوا عندي ما ندوقوا كيسان مرار، يا المختار

نشربوا من حوض المورد قبلتي ويميني ويسار، يا المختار²

لما شاعت في هذه الديار وفي هذه الحقبة من التاريخ الطرق الدينية
والزوايا وعُدَّ أصحاب الطرق والقائمين على الزوايا من رجال الله الصالحين
واعتُبروا من صفوة الناس، لما عُرف عنهم من زهد ومن صلاح، غدا الناس
يتوسلون إلى الله بهم، وقد ضلت هيمنة هذه المعتقدات الشعبية خاصة العنصر
البشري منها، أي المشايخ والأولياء الصالحين، على عقلية الشعراء، وإلى وقت
قريب، مصدرا يستمدون منه مرجعية التوسل والتبرك بهؤلاء الأولياء وأضرحتهم،
وابن خلوف من هذه البيئة، نهل من ثقافتها وتشبع بعباداتها ومعتقداتها، يعرف
المشايخ ويُنزلهم منازلهم ويعلي من شأنهم، فما هو ذا يتوسل بجاههم ويعدهم
تترا:

¹ - المرجع السابق، 165.

² - نفسه، ص150.

نتوسل بجاه الساخي سيدي شفيق ما يحرمننا

وأبا زيد والكراخي بجاههم الله يرحمننا

راني في حمى الجيلاني والشيخ بوعدة مفرج الكراب

والشادلي والقيرواني والقرطوبي والتساجي وحروف الكتاب¹

كما توسل بأولياء آخرين في قوله:

بحرمة السنوسي وابن عباد بحرمة الحروف وما في الأسوار

والشيخ العروسي ومولى بغداد وجميع المهاجرين مع الأنصار

بحرمة المذاهب زول أنكادي قدمت لك رجال الله الاخيار²

لإن توسل الشاعر بالأولياء والصالحين، فمن باب أولى أن يتوسل بسبطي

النبي صلى الله عليه وسلم وأمهما السيدة فاطمة الزهراء، و قد فعل، متوسلا بهما

أن يميته الله على دين الإسلام :

عند الممات ميتني مسلم بجاه الحسنين والزهرا³

ويبدو أن لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، مكانة عالية في نفس سيدي

لخضر، إذ يتوسل إلى الله به في أكثر من موطن كقوله:

بجاه سيف مصقول تقهر به الأعدا وجاه الإمام حيضر هزام الكفار⁴

1- المرجع السابق، ص146

2- نفسه، ص172.

3- نفسه، ص146.

4- نفسه، ص172.

يرى ابن خلوف في المدح وسيلة تقربه من النبي صلى الله عليه وسلم
فيشفع له، إذ يقرن المديح بالشفاعة كما فعل عندما قرن الصلاة عليه بالشفاعة،
فالصلاة على النبي ذكر، والمديح أيضا ذكر، وهو يرى قبل هذا أن هذا المدح
هبة من الله أن له الأوان أن يتشرّف ويشغف بها:

عرفوني لما رجعت جايز في ديني كامل الفهامة

واعطاني الله علم فارز من كنزه عالم العلما

نبهني للمديح سيدي وسقاني ماه كاس طيب

ما احلاه بالمديح هادي احلى من السكور وعنب

أعطاني الله من المخازن وعطاه ليس نضيع

نوزن شعري بحروف وازن باسم الله وباسم المشفع

في ذهبي كل يوم باين في الوسط معلمه بطابع

نجهر للبشير وردي من راسي عنصره يثوب¹

إلى أن يقول:

قلبي مشغوف بمديحه من يشفع يوم القيامة

راني نهدي ليه شعري غزير وعزه الموهب²

¹ - المرجع السابق، ص 36

² - نفسه، ص 146

لا يكفي سيدي لخضر من اتخاذه المدح وسيلة تدخله الجنة، بل أكثر من ذلك أن يرى ربه رأي العين ليس بينه وبينه حجاب:

أنا مدحت سيد الأمة محمد يجود عن الأجواد

لبدا على الرسول نغني طالب منزلي في الجنة بلا حساب

ويزيد بالنظر يكرمني بيني وبين ربي لا حائل لا حجاب¹

وهو يثني على ربه أن آتاه وسيلة يتوسل بها إلى الله، وهو المدح الذي يرى

فيه تجارة لن تبور:

¹ - نفسه، ص141. وما بعدها

سبحان من جعلني تاجر لا بيع لا شرا في سوقي

من باع راه خاسر بئس الغرور وترك الباقي

حق الأجير للمستاجر حق الجبين والاعروق

مداح الرسول راه غاني أم الغرور جيفة وجماعتها كلاب

مشغوف به دايم راني غاني بالرسول الذي اغلا من الذهب¹

ولما رأى ابن خلوف في المديح وسيلة توجب الشفاعة، اتخذ منه صنعة له أو حرفة، كما يقول: فقد شاب مفرقه واكتوى " بنور " حب النبي صلى الله عليه وسلم وهو رغم ذلك ليس بفقير ولا عالم، قليل الصلاة، قليل الصيام، ولكنه لما اتخذ المدح ديدنا نال منه ما لم ينله العابدون:

الناس لكل واحد حرفة وأنا حرفتي العدناني

إذا مدحت جد الشرفا يتخلخل الشهد في لساني

وإذا ذكرت زين الصفة بالروح والعقل يكفاني

تختفق الجوارح عني بهلول شايق احمد ويخالطني جداب

من به علتني يعذرني خلاف من عمى عينه ما شاف لنا كتاب

ما اقواك راقدة يا عيني

شابوجوارحي وعداري في مديح صاحب الشفاعة

¹ بخوشة، الديوان، ص141.

محروق من لهيب النار بالمصطفى نكك جماعة

ماني فقيه ماني قاري محسوب من الرجال للطاعة

شغلي فريد و يواتيني يكفي إذا اتظلم دنسي فوق الغراب

ماني نصوم غيررمضاني نقضي فرايضي والسابق في الفلك غاب¹

ليس في وطاب سيدي لخضر، وهو المقصر، سوى المديح، فهو يتوسل

إلى الله أن يتقبله منه ويجعله سببا في نجاته ونجاة جيرانه:

لو كان بالمديح يتفكوا هذا العصات تمنع جوارحي وجوارح جيراني²

وَألا يتركه عرضة لشماتة الأعداء، وهو الذي أفنى في مدحه أياما بليلاتها:

يا سيد البشر لا تشفي في الاعدا جوزت في المديح ليالي وانهايري³

وينتظر الشاعر شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ولجميع المسلمين

حاضرهم وغائبهم، متخذا من مدائحه قرابين يتوسل بها إلى النبي الكريم لطلب

الشفاعة:

مداح يمدحك يا سيد الأسياد الاخضر ينتظر فيك زايد كرامة

وجميع من حضرلا تحرم جلاسي الاخوان الغائبين مع اللي متلايمة⁴

وَأن يكون جار محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة بفضل مدحه له ليلا

ونهارا:

1 - نفسه، ص142. وما يليها.

2 - المرجع السابق، ص169.

3 - نفسه.

4 - نفسه، ص175.

راه ابن خلوف راغب فيه هذي مدة الاخضر يمدحه ليلا ونهاري¹

وكمفازة جزاء مدحه الذي كلف به، يتوسل الشاعر للنبي أن ينال شفاعته:

حشمت الهاشمي حبيبي أنا الوالع بالمدح الاكحل²

فلا يعدم أن ينالها:

قال لهم يا ملاك ربي من يحفظ بيت ما يسؤل

قالوا له يا رسول ربي الامان عليه يا الطاهر³

ويجعل الشاعر من حب الله ورسوله وسيلة تقربه إلى الله وتجعله أهلا لهذه المحبة فيقول في هذين البيتين الرائعين:

من ذكر الجليل اسمعني لوصارت الجبال ذهب ماهي شي تراب

أنفقتها على الأخوان محبة الرسول ومولاي فيها الثواب⁴

ويثق ابن خلوف في أن النبي صلى الله عليه وسلم سيشفع له، ويحقق مبتغاه من ورود الحوض، وكل ما تشتهي نفسه، وتلذ عينه القريرة بحب النبي صلى الله عليه وسلم، هو وأهله وعاشقي النبي الكريم والتائبين وكل من استمع إلى مدحه:

1- نفسه، ص172.

2- نفسه، ص181.

3- بخوشة، الديوان، ص181.

4- نفسه، ص143.

يوم نوصل للحوض نورد واللي نبغي يكون عنده

في رسوله راني نمجد نشرب ويلذلي بروده

بويا وامي مع جدودي واللي عشقوا وكل تايب

وجميع الجالسين عندي محشرهم في الجنان طيب¹

كما يعول سيدي لخضر كثيرا على النبي صلى الله عليه وسلم في أمر

الشفاعة وإنقاذه من النار وحرّها:

الماحي شافعنا ما ينسانا في يوم الضيق ساعة الحيزة يوكد

يمنعنا من لهيب نيران الحمرا ويسلكننا من حريقها والحمان

يسرع بنا جميع للجنة الخضرا لخضر مداح سيد الأمة العدناني²

ويرتاح بال ابن خلوف، وهو المثقل بالأوزار والخطايا، عندما يتذكر أن

النبي صلى الله عليه وسلم يشفع له عند ربه ويأخذ بيده :

خبره عند العباد تاب شين الافعال ابن خلوف المرمادي

يوم الحساب والعقاب يشفع فيه الرسول يوم الميعاد³

هو وجميع المذنبين:

محمد راحة العقاب يشفع في المذنبين يوم الميعاد⁴

1- نفسه، ص137.

2- نفسه، ص125.

3- المرجع السابق، ص118.

4- نفسه، ص 116

حتى إذا وقف المذنبون أمام ربهم وسُمع للنار تغيضا وزفيرا، جاء صلى الله عليه وسلم ليعتق رقابهم بشفاعته لهم عند ربهم :

وجوه المذنبين تذبال و تصفار والصحيح كان عليل

إذا زفرت لهيبها و قادات النار يوكد محمد الفضيل

احوال الشيخ والشباب لا فرق بين جميع العباد

يعتقها مفتاح كل باب المفضل شفيعنا محمدي¹

وعادة عند سيدي لخضر ما تلي الشفاعة، الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم لأنها موجبة لها، كما في قوله:

صلوا وسلموا على طيب الاذكار محمد صاحب الشفاعة والمداني²

ويتوسل الشاعر إلى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يجرمه من الشفاعة

فيقول:

اجعلنا في حمى شفيع المذنبين والمذنبات كلها

لا تجعلنا من الشفاعة محرومين من دون الغير منتها³

وهو صلى الله عليه وسلم الشفيع المشفع الذي يحول بين أمته وبين النار

فلا يردوها:

شفيعنا في يوم الهول والزحام أمته ينعرها من حر نارها¹

¹ - نفسه.

² - نفسه، ص133.

³ - نفسه، ص157.

ولا يقطع سيدي لخضر أمله ورجاءه في رحمة الله وشفاعة نبيه رغم كثرة ذنوبه، فيقول في ذلك:

آمن درى ينغسل لي وسخ الذنوب راجي رحمته وشفاعته ابو القاسم²

من الملاحظ أن ابن خلوف استعمل بعض الألفاظ الدالة على التوسل مثل "دخيلكم، نحشمكم، أنا عبيدكم، تكلي عليك، في جود، بجاه"، أبدى من خلالها نفسا منكسرة تتعلق بأي شيء من شأنه أن يعبر بها إلى شاطئ النجاة.

وهكذا فموضوع التوسل والتشفع هو الموضوع الأكثر بروزا من بين الموضوعات، ذلك أن الشفاعة هي الغاية الكبرى التي يطمح إليها الشاعر، وهو يتوسل من أجل نيلها بثتى الوسائط والوسائل، معتبرا المدح ضربا من أرقى ضروب العمل الصالح، وأداة يتوسل بها إلى الله وبنال شفاعة نبيه صلى الله عليه وسلم.

لم يكتفِ ابن خلوف بطلب الشفاعة له ولأهله فحسب، بل يريد لها لكافة المؤمنين، ولذلك يُنصَّبُ نفسه واعظا وحكيما يدعو إلى الخير والصلاح، ويحذّر ويذكّر، مشركا نفسه في التقصير، لينال الأذن الصاغية، ومفرغا عصارة تجاربه بالحياة في حكم بليغة، نطلع على كل ذلك في موضوع الحكم والمواعظ.

12 - موضوع الحكم والمواعظ:

¹ - المرجع السابق، ص166. :

² - نفسه، ص170. آمن درى: للتساؤل، بمعنى ياترى.

لا شك أن سيدي لخضر بن خلوف، وهو الولي الصالح يحمل بين جنبيه
نفساً خيرةً تحب جميع الناس وترجو لهم الهداية والسداد، كما لا شك أن طبعه
كان صحيحاً ومزاجه سليماً، مُشرباً بعفة النفس ومتشبعاً بالمثل الأخلاقية والقيم
الإنسانية، لذا جاء بحكم وجدناها مبنوثة في تضاعيف قصائده ، صاغها في
أبيات وأنصاف أبيات.

وهذه الحكم، كما المواعظ، استمدتها من مصادر عديدة، منها ما هو نفسي،
كتحلي الشاعر بالأناة والحلم، وأخذ الأمور بروية، وكذا خيريته ، ومنها ما هو
اجتماعي، كتجاربه وما اعتصر منها من عبر وعظات، خاصة إذا علمنا أن
سيدي لخضر عمّر طويلاً.

ومنها ثقافته أو تكوينه الديني الإسلامي، كل ذلك أهله لنسج الحكم،
وحياكة المواعظ، نسجا حكيماً وحياكة بالغة، ينتفع بها الناس ويهتدون بهديها.
ومن جميل حكمه في الدعوة إلى التؤدة والتريث للبت في الأمور قوله:
ما تمشي سريع ولو كنت هارب من شدة الخوف جري الوحش عادماً¹
وعن مصير التسرع والتهور، وهو قريب من المعنى السابق، قوله:

من طار يعلا ويهوّد ويحاه في مصايب غداً²

ولعل أكثر ما يدعوا إليه ابن خلوف في حكمه هو الاحتراز من الدنيا
وغرورها، وحرصه على نبذها والزهد فيها، نعرض في ذلك قوله:

¹ - بخوشة، الديوان، ص70.

² - نفسه، ص81. يهوّد: أي يهبط

من حرص على الدنيا دار الغرورحايير ومن غبط في الدنيا ترجع عليه مرا

من كثرمن الشهوات انعمت البصاير لكن أهل النسب متوافقين بكرة¹

ويبشر من حرص على الدنيا ومن زهد فيها، هذا بالشقاء وذاك بالسعادة

فيقول:

من حرص في الدنيا ما زال في الشقا تبتشر الزهاد بالافراح والسرور²

ومثل ذلك قوله:

من مدح سيد الأمة ما يرى غضيب من حرص على الدنيا ما كان ماقضا³

وما انقضاء الأيام والشهور والدهور إلا إيذان بقرب الأجل:

الشهر والجمعة والأيام والأعوام ناقصة من عمري وأنا انعدھا⁴

نعم، ما هذه الدنيا إلا مسرح للتعب يفرح بها الشاب و يرغب فيها فيقبل

عليها، فترهقه، ويرغب عنها الشيخ بعد أن أنهكته وأورثته عذابها، هذه هي

الصورة التي حملها البيت:

الدنيا علة الشباب وعذاب الشيخ تاعبين جاي وغادي⁵

ولا يتردد في تمثيلها كجيفة اجتمع عليها طلابها الذين وصفهم بالكلاب في

وحشيتهم ونهمهم فيقول:

1- نفسه، ص101.

2- بخوشة، الديوان، ص102

3- نفسه.

4- نفسه، ص163.

5- نفسه، ص117.

مداح الرسول راه غاني أم الغرور جيفة وجماعتها كلاب¹

واللييب اللييب من يجمع بين عملي الدنيا والآخرة، فيكون بذلك قد أعطى

كل واحدة حقها:

¹ - نفسه، ص141.

بالحرث فازت الاغنيا من لا حرث ما يحصد شي

بالذكر فازت الاوليا من لا ذكر ما يوجد شي

هكذا الآخرة و الدنيا واللي زعيم ما ينسى شي¹

ومن الحكمة أن يردع الإنسان نفسه فينها عن غيها قبل أن يباغته الموت
على حين غرة:

الحادق اللبيق يوني قبل الا يجيه أجله ويقبضه شباب²

وقريب من هذا المعنى قوله:

مول العقل يولي بكري من قبل الا تجيه الحملا³

وكأنني بالشرط الأخير من هذا البيت يلائم الشرط الأول من البيت الذي
سبقه، ونفس الأمر لبقية الشطرين ليصبحان على هذا الشكل :

"الحادق اللبيق يوني من قبل الا تجيه الحملا

مول العقل يولي بكري قبل ألا يجيه أجله ويقبضه شباب"

ولعله يقصد بعبارة " يولي بكري " المبادرة بالتوبة، وهي استعارة لطيفة.

يضمّن الشاعر حكمة شعبية معروفة فحواها أن الكذب من خوارم المروءة،
يريد بها الاعتراف بتقصيره، إذ يقول:

¹ - بخوشة، الديوان ص146.
² - نفسه، ص144. يوتّي: لفظة عامية؛ بعد نصب الخيمة يُجمع التراب أو الرمل على حواشيتها لمنع
المطر من التسرب داخلها، وهذا التراب أو الرمل يسمى الوني، وهي استعارة لطيفة.
³ - نفسه، ص176.

ماذا كذبت وصفي كذبي ما زاد الكذب في الرجل¹

وعن تقصيره أيضا في حق ربه، وكيف يذكره في الشدة ويعصيه في الرخاء، يقول في هذه الحكمة الجميلة:

إذا مرضت نعرف ربي وإذا برت نعمل زلة²

وينفي عن نفسه الخيانة وأنه ليس بذئ الوجهين، في حكمة لعلها سائرة في الأوساط الشعبية:

أكلي مع الأدياب وشكاي للراعي للساع ما فضحني ربي بخيانة³

وعن مكر الناس ولؤمهم يصوغ لنا حكمة يذكر فيها تستر اللئام ومراوغاتهم فيقول:

الناس أدياب في ثياب والمستذيب يرجع للأدياب أبحاله⁴

وفي معنى " ليس الخبر كالمعاينة " يقول:

من لأشاف البلاد ما عطي شي أخبارها مدح شفيع العباد ذيك بلادي⁵

وعن رحمة الله ورفقه بعباده ولطفه بهم يقول في هذه الحكمة البالغة:

المولى يعتق الرقاب ما يحقد صايد الوحوش عن شباله⁶

1 - نفسه، ص 141.

2 - نفسه، ص 143.

3 - بخوشة، الديوان ، ص 170.

4 - نفسه ، ص 111.

5 - نفسه، ص 105.

6 - نفسه، ص 110

وهكذا نرى أن الحكمة تصب في معنى الموعظة، ذلك أن منبعهما خبرة الحياة ، فلا يكون الحكيم حكيما ولا الواعظ و اعظا إلا إذا تمرس بالحياة وخبر أحوالها، ومحصلته صروفها.

أما الوعظ عند سيدي لخضر فهو مزيج بين التذكير والتحذير والترغيب والترهيب متأثرا في ذلك بأسلوب القرآن الكريم.

إن أحوج الناس إلى الموعظة هم أهل الغفلة، ولذلك نجد ابن خلوف يدعوهم إلى المبادرة بالأعمال الصالحة ونبذ الدنيا وملذاتها كما في قوله:

يا الغافل بادر واعمل للقا دع عنك الفانية أم الغرور

دار الاحزان ودار الغبن ما حقه اطلب الله يعطيك الحور والقصور¹

ويدعوهم أيضا للاستفاقة من الغفلة قبل حلول الأجل، كما يعظهم بالرضى بقضاء الله فيقول:

يا العبد استرجع لمولاك يا لبيب قبل الا تتعرض لك المعرضا

واستيقظ من الغفلة قبل الا تغيب كيف قدر ربي بأحكامه رضا²

وفي وعظه للغافلين ومن شابهم من أهل الفساد والطغيان والظلم، يُشهرُ مصيرهم:

يا ويح الغافلين عن ذكرالجبار ما عملوا زاد للمرحيل

والمشغولين بالفسد والاستكبار ينفقدوا جيل بعد جيل

¹ - نفسه، ص101.

² - المرجع السابق، ص102.

والطاعين ما لهم في ذك الدار غير التويخ و الشعيل

أصحاب الظلم في الظلام يحترقوا عن طول الزمان

والمشتغلين بالحطام في الحضرة جامدين ودكان¹

بل يقرّعهم عن غفلتهم، وكيف غرّتهم الدنيا بزخرفها فانساقوا يطلبونها،
ويأملون الخلود، ناكرين صولة الموت:

يا ماذا من عين نائمة يربها النوم الطويل

وماذا من راس في السما ما عارف الموت تصيل

حاسب دار الشوم دائمة ولا عنده منها رحيل

يا ماذا من قلب عامي يهتف في بحر الظلام

لا تدبير لا استقام ولا ترشيد ولا لجام²

أما الغافل الذي يسعى لتزكيه نفسه ومداواتها، فيعظه بترك الشهوات وتذكّر
الموت:

انتبه يا غافل بركا من المنام واترك شهوات النفس تبراعيوها

اتفكر يوم تاتيكَ الموت كالسهم بغتة تاتيكَ من بعد بعدها³

وهو على وعظه للناس معرّض للغفلة أيضا فتجده يطلب منهم النصرة عند
الذكرى، والنصح عند الغفلة، فيقول:

¹ - نفسه، ص 153.

² - نفسه، ص 185.

³ - المرجع السابق، ص 165. بركا : أي كفى

إذا تكلمت رافقوني نذكر رب الملك هو

من به الحرك و السكون وبه الحول مع القوة

وإذا نغفل انصحوني بحق الحقيق يا الخاوا¹

ولا أخطر عند ابن خلوف من الدنيا، فهي كالبحر في عمقه، يغريك ساحله
ولكنك قد تغرق في لجه:

إذا دخلت بحر الدنيا راه عميق ساحل على يمينه و اللج يسارا²

ويعظ مذكرا أن أكثر الناس غرقوا في هذا البحر لأنهم لم يطلبوا العلم
الشرعي، ولم يسألوا عن دينهم، فما أشبههم بالدواب:

كثرة الخلق كالدواب غرقوا في الدنيا ما قرأوا ما سالوا³

فما غنموا شيئاً لأنهم لم يأخذوا بأسباب الغنيمة التي هي سنة الله ورسوله:

ما دارو للغنى سباب أسباب الخير سنة الله وارساله⁴

ودعوة ابن خلوف إلى الزهد بالغة، فقد صيرت هذه الدنيا صفوة الخلق وهم
الرسول وأصحابه إلى الفناء، فلا حاجة إذن إلى التشبث بها وطلبها:

راهم غابوا وجوه الملاح من الدنيا مغرور اللي يشد فيها باليدين

حسيت ذا القلب ذاب من ذا الكية بعد المصطفى احمد سيد الثقلين

1 - نفسه، ص 179.

2 - نفسه، ص 173.

3 - نفسه، ص 111.

4 - نفسه.

عنان المجد من ترك الفانية ابوحنص مع عمر وعثمان النورين

ابن عم النبي صواب الأميرعلي ارضاه الله واعطى له

واصحاب المصطفى اقرب الحسن والحسين نجومه يتلوا¹

ويعطي الشاعر نماذج بشرية أخرى منها من يتأسف على ما ضيع ومنها

من رحل وترك أثرا طيبا يُذكر به في الناس:

ماذا من شيخ شايب اللحية مسلوب إذا تكلم يحرق الشوم أكباده

ماذا من كهل فارق الدنيا محبوب اهجرتوجه وماله واولاده

في أيام الصغر اجتنب كل ذنوب ما يزرع إلا الصلاح من غيرافساده²

ومن الغفلة وحب الدنيا التحلي بخصال من شأنها أن تضر الإنسان، فيلقى

في العذاب مهانا، وهذه الخصال هي الغفلة، وقد عبر عنها "بالسهو"، والظلم، وقد

عبر عنه "بيدا بالعار" وعقوق الوالدين، خاصة الأم، و إيذاء الجار، يقول في

ذلك واعظا:

انظرت اليوم في كتاب كنز الأسرار القلوب الصافيين هما اللي غنموا

ياويحه من ساها وبدا بالعار وأبشر بالهم يا اللي سامح في امه

وعاصي الوالدين واللي ياذي الجار يا ويحه بالتمام ما حمل في همه

ذو الخمسة لهم حساب يوم الوعد والوعيد تم يسالوا

¹ - المرجع السابق، ص113

² - نفسه، ص111.

ما بعد عذابهم عذاب بسلايسل الحديد زايد غلغاله¹

وعن الزور واللغو وعاقبتهما يقول:

من لبس الزور ما يهاب من الذراع المتين ما فكه ماله

مارايت اشين من اللعاب من يستفتح بالنبي يزين حاله²

ويذكر هنا عظمة الكذب وأكل أموال الناس بالباطل وينفر منها فيقول:

الله يعفو على الشهيد كثير الذنب إلا الكذاب و من أكل أموال الناس³

كما يحذر من عضوين خطيرين في الجسم هما مجلبة للهلاك: اللسان

والعين:

خلق اللسان ما فيه عظام هويورتك للمحنة وهلاك

العين غضها يا ظالم هي سباب عصيانك يا معماك⁴

وهو كما يعظ بترك هذه الخصال ونبذها، يعظ بالتمسك بأحسنها لمن أراد

النجاة والفوز.

ولما كانت الصلاة هي الركن الركين في الدين وعماده، فإن الشاعر يدعو

إلى المحافظة عليها في قصيدة " قم صلي " ⁵ والتي منها:

قم صلي واخزي الشيطان يا الغفلان عندما لاح الفجر وبان قم صلي

1- نفسه، 112.

2- المرجع السابق، 108.

3- نفسه، 113.

4- نفسه، 177.

5- نفسه، ص167.

ويعظ بضرورة التحلي بالحزم والعزم في طلب الآخرة في صور شعرية شائقة:

مول العقل ايولي بكري من قبل الاتجيه الحملة
ويكون لبيب فاهم حذري ما هو غفيل حتى ليلية
واين الهروب تحت الباربي من لا تفك منه حيلة
خذ الطريق ليس تسلم طريق الشمال ما فيها شي سلاك
تحسب ساهلة يا نادم إذا اتبعتها يا ويحك ما جاك¹

ويطرح بدائل للنجاة، منها اتباع السنّة والحفاظ على الصلوات وطلب العلم

الشرعي، فيقول:

إذا بغيت تنجي نفسك سول على طريق السنة
أوقف معا شروط صلاتك هدوا علايم أهل الجنة
ابحث ديما عن دينك الجهل يورثك للغبنة²

الموت أكبر واعظ للحي، علم ابن خلوف هذا، فاتخذ منه أداة للوعظ، فها

هو يدعو عينه لليقظة والاتعاظ بالموت التي هي غاية كل حي، فيقول:

ياعيني بادري باليقضة من نومك الطويل يتقضى
ذا الحي لاغناه يمضى بالموت لاش ما تتعطي³

¹ - نفسه، ص176.

² - المرجع السابق، ص177

³ - نفسه، ص138 وما يليها.

والموت حق لا شك فيه ولا ريب:

الموت لا غنى تدركني صح الخبر بلا شك ولا ارتياب¹

ويكثر ابن خلوف من ذكر هادم اللذات والقبر ودنو الأجل حتى لا يشتغل

بالدنيا:

في كل حين يدنو مني قبري ومنزلي يدركني هتف الغراب²

ومثل ذلك قوله:

يا من درى يوم يهيننا راه القبر ديما ينادي³

ويستحضر هول القبر وكيف يصير إليه بعد أن كان في حياته الدنيا ينعم

بالمأكل والمشرب، مزهوا برغد العيش، داعيا النفس أن تبادر بالتوبة وتتعظ بهذا

المآل الذي هو مصير كل حي، إلا الحي الذي لا يموت:

ما اعظم النزول ليل القبر من هول المصائب الاخرى

إذا صفات روعي مني بالما يغسلوني ويلقوا عني الثياب

يتبدلو لمحاسن عني بعد الطعام والماء والزهو مع الانطراب⁴

ولابن خلوف رحلة طويلة مع القبر حتى إنه سمعه يقول:

أنا، يقول: دار الهنا أنا الميتم الأولادي

1 - نفسه، ص138.

2 - نفسه. هتف الغراب: أي دون سابق إنذار.

3 - نفسه، ص140.

4 - المرجع السابق، ص139.

واللي عليه ما قال أنا يجي هنا ويرجع غادي¹

وفي ذلك تحدّ من القبر أن كل زائريه لا سبيل لخروجهم أو عودتهم.

ويتمثل وحشة القبر وظلمته والتراب يحثي على جسد فارقته الروح فيقول:

يوم الممات نمسى وحدي في دار مظلمة مسدودة

ايزيلف التراب خدودي والروح فانية مفقودة²

كما يتمثل الملكين يسائلانه:

وملايك السؤال تاتيني يتكروا علي بوجوه سود اغصاب

هما اثنين يختبروني على القواعد المفروضة تعطي الجواب³

ولو عمر الإنسان ما عمره نبي الله نوح عليه السلام فإن مصيره إلى القبر:

للقبر لا غنا يدوني لو عشت مالبت نوح أخرتي للتراب⁴

ولا يغني عنه ماله في ورود القبر:

ولو لبس الذهب المثني ينحط كخواه في الحفرة من التراب⁵

ويدعو عينه ألا تنام، وتذكر دائماً أول منازل القيامة، والأيدي تتداول على

حملة ودفنه:

1 - نفسه، ص 140.

2 - نفسه، ص 140. ايزيلف: يقع بشكل عشوائي.

3 - نفسه.

4 - نفسه، ص 143.

5 - نفسه، ص 146.

يا عيني لا ترقدي نوحى ببكاك و اتفكري ليلة الدفين

في دار اللحد نتدفن من ذاك لذاك بالفاس وكثرة اليدين¹

وهو بإشراكه في هذه المواعظ يستدرج السامع لينال سمعه وعقله ولا يقف بمعزل عن سواه من الناس.

ويعرض الشاعر صوراً مختلفة للترهيب والترغيب، فيصور الصراط وعرض الناس عليه:

بعد الصراط ينتصب ذاك الميزان وترى القصاص والوزرين

الشمس تكون في الرؤوس والما غليان والمخلوقات بارزين

المحسنين كالخطاطف من الامزان على الصراط جايزين²

وهنا بيان للمؤمنين كيف يجتازون الصراط بكل سرعة و خفة.

ويزيد في تهويل الصراط فيقول:

طول الصراط يا صديق تسعة آلاف وثلاثة آلاف هابطين

احمى من نار حامية واقطع من سيق وارق من شعرة يس³

وينفر ابن خلوف في وعظه من الكفر ببيان مصير الكافرين ومن تبعهم من

أهل الظلم فيقول:

وكل ما جرى لذا الكافر ما فاده وكل ما عمل ما نفعه بمسالة

¹ - بخوشة، المرجع السابق، ص153.

² - نفسه، ص 154.

³ - نفسه.

في العذاب باقي والههم يقاسي ويحاه جنوده وناسه الظلامه¹

كما يخبرنا أن سعي الكافر في ضلال، وبين طيات هذه الأبيات وثناياها دعوة إلى نبذ الدنيا، وطلب عيش الكفاف، ذلك طريق الزهد الذي ارتضاه الشاعر لنفسه:

مياة عام وهو يبني في الأساس ومياة عام يجلب المياه التامة

مياة عام يرصع ذوك الأقواس ومياة عام تزويق للدار الهادمة²

" ومياة عام " هنا لا تدل على الزمن بعينه، بل تفيد الكثرة المطلقة للزمن، والحرص الشديد على الدنيا والمبالغة في طلبها، وبالتالي استبعاد الفناء ورفض الموت ومحاولة إغائه، وهو تصوير داخلي لعقيدة الكافر من خلال تجليها في السلوك الخارجي.

ولكن كل ذلك يجبر بالتوبة التي يعظ بها الشاعر ويدعوا إليها في قوله:

الله توب يا بونادم واتفكر القبر عذابه يرجاك³

وبعد التوبة يبقى إعداد الزاد لسفر طويل بلا رجعة، وهي نصيحة من

الشاعر:

اعمل الزاد باش تسافر خذ الطريق واسغى ليا

سفرا طويل هذا ياسر من مات ما رجع للدنيا⁴

1 - نفسه، ص174.

2 - المرجع السابق.

3 - نفسه، ص176.

4 - نفسه.

أما أن الأوان للتوبة وقد أشرف العمر على الانقضاء وهوت شمسهُ إلى

الغروب:

ما أقواني نغبط المنام ونتهنى الشمس اهوات للغروب

الحرث شباب فالعمر ستين سنة وما نستخشع ولا نتوب¹

ويقف واعظا يذكر أن الأخسرين أعمالا هم الذين نأوا بجانبهم عن التوبة،

وعدّلوا عنها وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا:

من لا يتوب بعد الغيبة في العمر ما عصى شيطانه

من لا يتوجه للتوبة وايحه ما يحق سلطانه

يدُّ من النعيم مسلوبه والخير ما تراه عيانه

ساسه من الرملة مبني لا جير لا حجرلا معدن جابه صواب

هو يقول راه يبني وربى يقول دار الفساق تمسى خراب²

ويذكر بمصير من أعرض عن التوبة فيقول:

من لا يتوب ولا يندم مفروض يسكن تلظا

من لا يقول أنا مسلم قزدير ما هو شي فضا³

وعلى النقيض من ذلك يُظهر مصير المؤمنين، وهو بذلك يراوح في وعظه

بين الترغيب والترهيب، يقول:

¹ - نفسه، ص154.

² - المرجع السابق، ص140 وما يليها.

³ - نفسه، ص81.

والتابعين ماليهم غير الخلود في الجنتين آمين¹

ويقول أيضا:

المحسنين وعد الله الحسنى أبقار ترابها عرب²

وعن نعيم الجنة وما أعده الله للمؤمنين من ملابس، وهور، ومسك، وأودية من ماء وخمر وعسل ولبن: يقول:

فيها الريحان والملابس في الفردوس و الاستبراق والهور والهزرات

والمقصورات في الخيام قاصرات الطرف صافيات الأبدان

مسك وعنبر بالتمام الما والخمر والعسل واللبن³

وعما أعد الله للمؤمنين من حور يقول أيضا:

حرات البدن قاصرات طرف العين ترى في ضيا كل حرة نور كتاب

عليها ثياب من نور ابشر يا مومن انت لنا حبيب واحنا لك أحباب⁴

ويزيد في وعظه من ترغيب المؤمنين في الجنة، فيذكر بعض ما فيها وأنها

خالصة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي من صنع الله الذي أتقن كل

شيء، وليست كإرم ذات العماد التي فنيت مع فناء بانيتها:

فيها الديباج والقصور والريحان السندوس الأخضر العجيب

1 - نفسه. ص154.

2 - نفسه.

3 - المرجع السابق، ص155.

4 - نفسه .

فيها الياقوت والذهب والمرجان كالزعفران و الكتيب

فيها العقيان والكواكب دران لأمة محمد الحبيب

لا تحسبها كالأرام ذات العماد صنعها العبد الفاني¹

ويدعو ابن خلوف للأخذ بهذه المواعظ ويوصي بالعمل بها، فهو في دعوته هذه يخلص النصح إذ الله أعلم بذلك:

هذي وصياتي وصيتك إذا بغيت تعمل بها

شد العلام رتب يدك هذا الاقوال غير احضيها

وإذا بغيت تقهر نفسك بالصوم والصلاة أنها

ربي على الخلوفي عالم قلبه زلال صافي ما فيه هلاك²

13 -موضوع ذكر الدنيا والآخرة والجنة والنار:

جمعنا الدنيا والآخرة والجنة والنار، لأن ابن خلوف غالبا ما يذكر الدنيا والآخرة مقترنتين، والجنة والنار كذلك، و لئن ورد ذكر هذا الموضوع في ثنايا المديح، فهو قريب من موضوع الوعظ لأن فيه من الترغيب في الآخرة والجنة والعمل لها، والترهيب من غرور الدنيا ووعيد النار أكثر مما يعكسه من حقيقة الدنيا والآخرة والجنة والنار.

¹ - نفسه، ص156.

² - نفسه.

يحشد سيدي لخضر رسدا من تعابير الانتقاص والاحتقار والدونية لينعت
بها الدنيا فهي " بنت الشيطان " وهي " كلبة الكلاب " وهي " ضرة الآخرة "
وخادمتها:

صلى الله عليك قدر حروف الها هذ الدنيا مكنية بنت الشيطان

هذي الدنيا ضحات للاخرة ضرة ذي تحفر لذيك والملقى تالي

الدنيا خادم والآخرة حرة فروا من كلبة الكلاب الرجالي¹

ويمثلهما في بيت آخر كالضرتين، كلما رضيت الأولى غضبت الثانية:

الآخرة والدنيا تمثيلهم اضراير امنين ترضى الوحدة تغضب عليك الاخر²

وهي الفانية ودار الغرور والأحزان والغبن فلا تغفل في طلبها، واطلب

الجنة ونعيمها:

يا الغافل بادر واعمل للقا دع عنك الفانية ام الغرور

دار الأحزان ودار الغبن ما حقة أطلب الله يعطيك الحور والقصور³

ويستشهد على غرور الدنيا وزوالها بشواهد تاريخية أقرها القرآن الكريم:

يا حارثين الدنيا وهي أم الغرور غرت من قبل النمروود وشدادها

□ تحفّر: □ تكبّد

1- المرجع السابق، ص63.

2- نفسه، ص101.

3- نفسه، ص102.

في إرم ذات العماد بنى كم قصور من الذهب والفضة وازيردج زانها¹
ويصر ابن خلوف على نعت الدنيا بأنها أم الغرور وأن طالبها أشبه بالكلب يطلب
الجيفة، بئس الطالب والمطلوب:

مداح الرسول راه غاني أم الغرور جيفة وجماعتها كلاب²

وأنه مغرور من تمسك بها، فقد أفنت قبله من هم خير منه:

راهم غابوا وجوه الملامح من الدنيا مغرور اللي يشد فيها باليدين³

ويزيد في استحضار الشواهد على فنائها وزوالها بذكر الرجال الذين
افتقدناهم، وأعظمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل الصلاح والعلم فيقول:

راها صفات هذا الدنيا والدين ضاع واهله غابوا

أين الحبيب سيد رقية وابن المهاجرين أصحابه

والصالحين والأولياء وجميع من قرأوا كتابه

الكل من عليها فان مايدوم في الملك إلا رب الارباب⁴

والبيت الأخير مقتبس من قوله تعالى: كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو

الجلال والإكرام الرحمن»⁵

1- المرجع السابق، ص173.

2- نفسه، ص141.

3- نفسه، ص112.

4- نفسه، ص145.

5- سورة الرحمن، الآيتان 26 و27.

وما الدنيا في عين سيدي لخضر إلا دار تعب ونصب، وحملها محمل
العناية والاهتمام يزيد من كدرها، ولذا فهو يدعو عينه أن تبكي نعيًا لفنائها:

لاش يا عيني ما تبكي على الدوام ابكي من هذا الدار اشتظفوا حملها¹

ولما كان مصير كل سائر إلى الآخرة أحد المنزلين، إما الجنة وإما النار،
فلا بد من أحد الاثنين:

جف المداد بالاشقيا والساعدا والقلم في الأزل يكتب باذن الباري

لا بدلي في الاثنين المكتوبة وحدا فريق في النعيم والآخر في الناري²

مصدقًا بذلك قوله تعالى: «فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»³.

ثم يتساءل عن مصيره وأي الدارين تكون له منزلاً:

يا من درى واش يفعل ربي غدا نار الجحيم وإلا الجنة داري⁴

ويذكر يوم القيامة وطوله فيقول:

في يومئذ سبعة ألف احقاب وطول كل حقب سيرة ألف سنين⁵

وعن عرض صحيفته يقول:

ياتيني قرطاس فيه مجموعة مصايبي يطويها رومان ينتشر بعد حيناً⁶

1 - بخوشة، الديوان، ص 162.

2 - نفسه، ص 169.

3 - سورة الشورى بعض الآية 7.

4 - المرجع السابق.

5 - نفسه، ص 70.

6 - نفسه، ص 71.

أما الجنة والنار فهي سبعة عند ابن خلوف ولعله يقصد بها الدرجات والدركات، ولا نونها الأبواب لأن أبواب الجنة ثمانية خلاف النار التي أبوابها سبعة:

سبعة نيران حامية سبعة جنات والكرسي الوسيط وعرش الرحمن¹

كما يظهر ثقة كبيرة بالله في ورود الجنة ونعيمها، وهذه الثقة نابعة من حسن الظن بالله مصداقا لقوله تعالى في الحديث القدسي " أنا عند ظن عبدي بي " ² فيقول:

ليلة تمسى في بيت الدود ما تخبى ثم يرضى المداح بقسمة الرضا

ملايكة الرحمن يجوه بالكتيب والنزول في الجنة وانعائم فايضا³

وتتكاتف هذه الثقة بالله مع الثقة بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، إذ يحول بين أمته وبين النار بالجنة فيقول في ذلك:

ما بين النار وأمته تضحي جنة والدرقة كل من أخطاه راح مكين⁴

وأول من تفتح له أبواب الجنة يوم البعث هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

وسلم:

ويوم البعث والحساب الاول تنفتح قصور الجنة له⁵

¹ - نفسه، ص108.

² - ابن جميل، محمود بن الجميل، صحيح الأحاديث القدسية وشرحها، مكتبة الصفا، القاهرة 2004، ص222.

³ - بخوشة، الديون، ص102.

⁴ - نفسه، ص108. الدرقة: الاختباء و الاحتماء.

⁵ - نفسه، ص112.

ويذكر ابن خلوف أن الجنة للمتقين، ولكن دخولها يكون برحمة الله تعالى:

الجنة للمتقين ما فيها من مسايل وانا ماني فارس نغور عليها

بالرحمة والمغفرة نحسم ونسائل ما نزعج شي من زفير ما احاط بها¹

ومن أهل الجنة الفقراء الذين أعلنوا خضوعهم وذلهم لله، ونبذوا الدنيا

الفانية:

الجنة دار كل فقير حقير ماله في الفانية دوام يرحل منها²

فنالوا بذلك الطاعة وأورثهم الله جنته يتقلبون في نعيمها:

أهل الدين الصحيح طاعوا ديما الرب تتباشر بالقصور وجنان السنداس

في سرور وفرح وانطراب ووجوههم نايرة كالشمس يلالوا

وابكار كواعب أتراب من عشر اميال يظهر لك حسن جماله³

أما صفة النار عند سيدي لخضر فهي توحد عشرة آلاف عام حتى يسود

لونها:

في الحجر عشرة آلاف عام يوقدولها لن اسودت⁴

وهي المظلمة الحالكة السواد، لهيها من رصاص وكبريت، وجدرانها من

نحاس:

1- نفسه، ص70.

2- نفسه، ص110.

3- بخوشة، الديوان، ص113.

4- نفسه، ص151.

جهنم تكون مظلمة سودا يضحوا جوارها رصاص

من الكبريت خطها يطلع لبدا وحيوط ديارها نحاس¹ أما أهل النار
فهم الفجار واليهود والكفار والعصاة:

من الصهود وحر البرد توتقد للناس الفجار، يا المختار

في عظم كافر ويهودي و العصات ابناين الكفار، يا المختار²

ويقول في بيت آخر يبين فيه أهل النار وأهل الجنة:

النار الحامية ليها كفرا ويهود والجنة لأمة النبي لا زايد غير³

وعن مصير الكفار في النار يقول أيضا:

يوم العطش ما فيه وردي ووجوه الكفار سودا

ينكبوا في النار تقدي ما اشينها حرة شديدا⁴

إن طمع ابن خلوف في الجنة وخوفه من النار، أمر تركه يجعل تقصيره
وتفريطه في حق نفسه نصب عينيه، متسائلا في كل أحواله عن مصيره، ولنرى
ما جاء في هذا الموضوع.

14 - موضوع ذكر تقصيره:

1 - نفسه، ص117.

2 - نفسه، ص151.

3 - نفسه، ص109.

4 - نفسه، ص45.

إن من ورع الصالحين وتقواهم، الحديث عن تقصيرهم كأنني بهم يستقلون ما قدموا من أعمال صالحة وذكر وعبادات، فتجدهم يضعون أنفسهم محل المذنبين العصاة، خوفا من العُجب والغرور، وافتقارا إلى الله وطمعا في مغفرته.

فهذا شاعرنا يعزو لنفسه صفات انتقاص عند شعوره بالتقصير، ولا يجد عزاء إلا في طلب شفاعته النبي صلى الله عليه وسلم، فيصف نفسه بأنه "عُرَّةٌ" من العُرَّار وهي الإثم والجناية فيقول:

لا غيرك شافع يشفع من هو عرة بحالي¹

وهو "البابر" الذي لا يسأل عنه أحد "الغشيم" الفض الغليظ، فماذا ينفعه أمام هذا غير شفاعته صلى الله عليه وسلم:

الضيف البابر الغشيم يترجى في الرسول جد البغدادي²

ويستعظم ما عليه من سيئات ويهوله كمها أمام استهتاره والموت يرقبه، فيهرع إلى ربه طالبا للتوبة:

نستهزا والموت في اثري ماذا من سية عليا

ما قدمت إلا ذنوبي هب لي يا مولاي توبا³

ويعلن ابن خلوف عن تقصيره عنوة، وأنه خاوي الوفاض من العمل الصالح، كثير السيئات، منساق وراء شيطانه غارق في طلب الدنيا:

لا باش يا سيادي ننجا ما درت باش نلقى ربي

¹ - بخوشة، الديوان، ص44.

² - نفسه، ص159.

³ - نفسه، ص43.

لاعمل لا صلاح نترجا فعلي قبيح ياسر ذنبي

ماشي في الطريق العوجا بالكذب واللسان الزغبي

موخوذ مع بلا شيطاني في حب أم الغرور كالكلب من الكلاب

ونشوف كل ما يعجبني التاح الغطا عن عيني وتركت الصواب¹

وتغشاه الغفلة فينتعاس لسانه عن ذكر الله، يقول في ذلك:

راك غافلة يا نفسي مغلول اللسان ما تذكر²

وقد أودت به نفسه إلى ارتكاب كل أنواع المحرمات:

غير أفعال السوء فعلتهم من قبائل نفسي يا نفس المشوم ما احل لها

ما هي كيف الناس قائمة بالوجوب ما تركت محرمات معينينا

لو كانت مستقيمة تشهد لي عيوبي ونترك عيوب الناس لا تولي علينا³

ويتحسر على دنيا أفناها في الملذات يعتريها الجهل والغفلة عن مصير

حتمي ينتظره أعماه عنه كَرّ الأيام والأعوام حتى أنذره الشيب معلنا قرب أجله:

يا حسرة كنت انا في الاكل والشراب والجهل والغفلة والنوم يا أخي

ما نخم في بيت الدود والتراب يا غريب التفريط مع التراخي

بان شيبني راه مستوجب الخضاب من غرور الدنيا ودار الكلاخي

الشهر والجمعة والايام والأعوام ناقصة من عمري وانا نعدھا

¹ - بخوشة، الديوان، ص144.

² - نفسه، ص142.

³ - نفسه، ص70 وما يليها.

في عنان القبة شيببي نصب العلام فر منه شبابي وفنات لأهلها¹

ويعرب الشاعر عن تقصيره ليستدرج المستمع لقبول الموعظة التي يرغب في تقديمها له، والنصيحة التي يريد أن يفيده بها، وهي الابتعاد عن الدنيا وزخرفها فيقول:

الله الحد، غبت في مرجة من دير من سهو الصغر قربت عقوبتها

ماذا تمشيت في الظلام نبات نسير يا نفسي دنياة الغرورازي * منها²

ومن إشراك نفسه في الوعظ بعد التقصير قوله:

لا إله إلا الله للذاكر اغتنام عمروا ساداتي منها احمولها

خذ حظك منها يا غابط المنام يا الراقد مثلي الليلة بطولها³

ويعدد سيدي لخضر أعداءه وأعداء الإنسان عامة التي أوردته موارد

التقصير والهلكة وهي النفس والهوى والشيطان فيقول:

محيي العظام يجبر حالي ضيعت في الجفا عمري راهي خاسرة

النفس والهوى والشيطان الخالي من رحمة الجليل أخذوا بيا ياسرا⁴

والنفس هي أكثر هؤلاء الأعداء خطرا:

تاذن لي بالخراب نفسي ما كان عدوغير هيا¹

1- نفسه، ص163. الكلاخي: جنس بنات يبدو في الظاهر قوي العود صلبا، لكنه أجوف سريع الكسر.

* ازّي: يكفي

2- بخوشة، الديوان، ص142.

3- نفسه، ص161.

4- نفسه، ص171.

ثم يدعو هذه النفس أن ترتدع عن غيرها وتستفيق من غفلتها:

من ذا المنام والغفلة والتفريط ما تبتعدي يا نفسي ردي بالك²

وبعد النفس يأتي الشيطان الذي يتعوذ منه الشاعر فيقول:

يا ربي ما لنا عدو غير الشيطان ابليس الكافر اللعين

ماذا له من اخیال یخلى بها الاوطان وأعوذ بك يا معين³

ويعقد ابن خلوف مقارنة بين السلف الصالح وأبناء جيله، وهو منهم، لبيان

تقصيره وغفلته فيقول:

واينهم من كانوا بالعلم عاملين يا مروا بالمعروف وينهوا عن الفساد

فايزين بالرحمة واحنا غافلين وما يدوم إلا ربي خالق العباد⁴

ويعترف الشاعر أنه فرط في شبابه، لكنه تدارك في شيخوخته ما ضيع

معتذرا بحجة أن لكل جواد كبوة:

أنا فرطت في شبابي بيدي مستقبلي تكسر

يتمرت في العيوب شيبتي نستخشع والبعير يعثر⁵

وأمام هذا التقصير كله في حق نفسه يتمنى ألا يدركه الموت، ولات حين

مناص:

1 - نفسه، ص 180.

2 - نفسه، ص 171.

3 - نفسه، ص 117.

4 - بخوشة، الديوان، ص 163.

5 - نفسه، ص 179.

ليته الرحيل ما ياتيني في كل حين حجة سافر بها عقاب¹

في هذا البيت صورة لطيفة، وهي تصوير للروح " بالحجلة "، ذلك الطائر الجميل الحريص على الحياة، وتصويره للموت " بالعقاب " وكيف يبهت طائر الحجل على حين غرة فلا يستطيع رد سطوته، وهي صور مستوحاة من بيئة الشاعر.

وأمام هذا التقصير أيضا، يلوذ ابن خلوف إلى الدعاء الذي تخلل مدائحه.

15 - موضوع الدعاء:

ورد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أن "الدعاء هو العبادة"²، وابن خلوف العارف بالله الزاهد، لا يفوته أن يكثر من الدعاء، خاصة الاستغفار، في كل حين، وعلى كل حال، إقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يستغفر في اليوم مائة مرة لقوله: "إنه ليغانّ على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة"³.

فها هو ابن خلوف يدعو الله بجلال سلطانه أن يغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو سبحانه الجدير بذلك والقادر عليه الرحمان الرحيم، فيقول:

يا ربي يا ذا الجلال يا من لا عينا تراه
اغفر لي ما مضى لي برحمة كل جاه

¹ - نفسه، ص138.

² - النووي، رياض الصالحين، ص 256.

³ - صحيح مسلم، ج2، ص690.

واسمح لي فيما بقا لي يا من لا رحيم سواه¹

وهو واثق أن الله غافر الذنب وقابل التوب إذ يقول:

العبد إذا ذنب وتاب واستغفر من جريمه تغفرها له²

ويدعو ربه أن يغفر عظيم ذنوبه ولممها فيقول:

واغفر لي كل ما ذنبت في الاعوام اغفر ذنبي الخبيث وكل زلة³

ويطلب ابن خلوف من غيره أن يدعو له، ممن يشهد أنه كان مداح الرسول

صلى الله عليه وسلم بعد وفاته بالمغفرة والرحمة:

يوما نموت تدعوا لي بالاستغفار وبعدها افتكرا مداح محمد

لواه كان الأخضر مشغوف بالمختار الله يرحمه قل يا لي تشهد⁴

كما يطلب من الله أن يستجيب دعاءه فيتجاوز عن سيئاته:

أنا طلبت يوفي طلبي و تعود سيأتي منسيا⁵

ومن تقصيره في حق نفسه يضيف عليها صفة الجاني، فيدعو الله أن يغفر

له هذا التقصير إذا لقيه:

اغفر لابن خلوف الجاني اواه ابن خلوف المداح اليوم غاب⁶

1 - بخوشة، الديوان، ص 84.

2 - نفسه، ص 113.

3 - نفسه.

4 - نفسه، ص 89.

5 - نفسه، ص 76.

6 - بخوشة، الديوان، ص 146.

وكثيرا ما يدعو الشاعر لنفسه بالرحمة والمغفرة ليتسع بعدها مجال الدعاء إلى الأهل والأولاد، بعد أن يبدأ بنفسه والمؤمنين فيقول داعيا:

ارحم في كل حين الاكل
واغفر ذنب المؤمنين كلا
ارحم جدي الخلوفي وأبي
واولاده واخوته وجابر
وشعشوع الناسك المربي
وامام الاولياء معمر¹

ولشعوره بكثرة ذنوبه وإسرافه في تقصيره، يدعو الله أن يغفر هذه الذنوب، ويشرك في دعائه والديه والمسلمين كافة، فيقول:

يا غافر الذنوب اغفر لي وللوالدين وللوالدات وللشيخ اللي رباني
يا غافر الذنوب اغفر لي وللمؤمنين والمومنات يا من بك الغفران
يا غافر الذنوب اغفر لي وللمسلمين والمسلمات يا من لا غيرك ثان²
وفي دعائه، يرجو رحمة ربه، وهو مالك الملك، يوم يفر المرء من أخيه

فيقول:

الاخوان هل يتفكرونني يا ملك الملوك ارحم هذا العبد³

ويدعوه برحمته أن يرفع عنه العذاب، إذ هو أرحم الراحمين، ولا تنفعه طاعة مطيع، ولا تضره معصية عاص، غني سبحانه عن هذا وذاك:

¹ - نفسه، ص 181.

² - نفسه، ص 172.

³ - نفسه، ص 144.

اشكى لحاكم الحكاما برحمته يرفع العذاب

لا طاعتي ولا عصياني ما تزيد ولا تنقص في ملكه صواب

لا فرائضي لا سناني غاني على فعالى ربي مالك الرقاب¹

وقد دأب أهل العلم أن يدعو بالرحمة لأشياخهم وكل من علمهم، وليس ابن خلوف بجاحد لأولى الفضل ليشذ عن هذه السنة الحميدة، إذ يقول:

ارحم والدى وشياخى وارحم جميع من علمنا²

ويدعو لنفسه بالرحمة، وللمسلمين بإجابة دعائهم والوقاية من النار فيقول:

ارحمنى وكذاك كل من جلسوا وصغاوا

واجعل من كان فى الوسع كالمزدحم

ترجع الاسلام قاطبة كما نواوا

وأبعدنا يا إله عن نار الجحيم³

ولا يستقيم لابن خلوف كلام ولا يحلو له مقام إلا إذا ختم بالصلاة على

النبي صلى الله عليه وسلم، فها هو يدعو ربه أن يصلى عليه ويرضى عن أصحابه، فيقول:

يا من بقدرتك نتكلم يا من ترأ ولم ترأ

صلى على الرسول وسلم و ارضى على أصحابه العشرة¹

1 - المرجع السابق.

2 - نفسه، ص 145.

3 - نفسه، ص 63.

إلى جانب الدعاء بالمغفرة والرحمة يطلب من ربه أن يهبه توبة، فهو لم
يقدم من الأعمال إلا الذنوب:

ما قدمت إلا ذنوبي هب لي يا مولاي توبا²

ومن أثر رحمة الله لعبده أن يستر عيوبه ولا يفضحه، وبذلك يدعو فيقول:

استر يا مولاي عيبي لا نضحى للناس عجبا³

ويدعو ألا يفضحه يوم الحشر، هو وجميع الحاضرين في مجلسه، وهو
العالم بأحوالهم:

بما في علمك القديم لا تفضحنا على رؤوس الأشهاد

ننجاو بفضلك العظيم أنا وجميع من حضر في الميعاد⁴

من اهتمامات سيدي لخضر الهداية والاستقامة، لذا تجده يدعو بها فيقول:

داني على الطريق المستقيم الجيدة بها تمتحى لي جميع اوزاري⁵

وقوله أيضا:

اجعلني في الخير سابقا وارشدني نحو الطريق⁶

ومثل ذلك قوله:

1 - نفسه، ص 146

2 - نفسه، ص 43

3 - المرجع السابق.

4 - نفسه، ص 157.

5 - نفسه، ص 171.

6 - نفسه، ص 85.

واجعل لي في الهدى سباب والطف بالعبد الضعيف واصلح حاله¹

ويمتثل ابن خلوف أمر ربه، إذ يعمل بمقتضى الآية " والله الاسماء

الحسنى فادعوه بها "²، فيدعو ربه ببعض أسمائه ليدخله الجنة: فيقول:

بسم العلي الرحيم ربي رحمان الاسم الخالص الكريم

يكون دخولنا من باب الريحان بأذن الواحد العظيم³

ويدعو الله أن يجعل حظه الجنة، ليرى النبي صلى الله عليه وسلم، فيشفي

غليله:

تجعل حظي غير في الجنة الخضرا نشفى من نور الأمين هذا هو فضلي⁴

كما يدعو له ولذويه ألا يحرمهم من نعيم الجنة أيضا، فيقول:

أنا وجملة القريب والاخوان لا تحرمنا من النعيم⁵

ولما كانت الأعمال بخواتمها، يدعوا سيدي لخضر ربه أن يميته مسلما،

على كلمة الإخلاص والتوحيد فيقول:

لا إله إلا الله سلطنة الكلام متني يا ربي مسلم نقولها

لا إله إلا الله عن ساير الدوام يا عظيم الجود اجعلنا من أهلها⁶

1 - نفسه: ص 114.

2 - سورة الأعراف، بعض الآية 180.

3 - المرجع السابق، ص 117.

4 - المرجع السابق، ص 63.

5 - نفسه، ص 117.

6 - نفسه، ص 165.

ولفرط حبه للنبي صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يزوره في المنام ليحيا قلبه، كما تحيا الأرض بالغيث فيقول:

غثي بالحبيب يا عالم الغيب مالك الملوك لا إله إلا هو¹

وفي أدب رفيع يدعو ربه ألا يحرمه من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول:

من سيل عرقك طاب الورد بالله راغبك في وحدة

زورة لقبر المجد الهاشمي زين البردة²

كيف لا ينكب ابن خلوف على الدعاء ويكثر منه وقد أذره الشيب وأقعده الهرم واقترب منه أجله.

16 - موضوع ذكر الشيب والهرم وقرب الأجل:

موضوع ذكر الشيب خاض فيه كثير من الشعراء، فمنهم من عدده دليل وقار وتمام العقل، ومنهم من اعتبره نذير شؤم، إذ ولى الشباب وولى معه السمر واللهو، ومنهم من رأى فيه إيذان بقرب الأجل وموعد الرحيل، أو إنذار للتعاطف بترك الدنيا والتفرغ للعبادات والذكر والطاعات.

¹ - نفسه، ص 104.

² - نفسه، ص 79.

وابن خلوف نظر إليه نظرة متنوعة، منها أنه بداية النهاية، إذ هو أول عيب من عيوب الهرم ويشبهه ببداية اصفرار السنابل التي تعلن قرب حصادها فيقول في ذلك:

يا ربي شاب عاذري نادى للعيوب آخر السابق للوعاد

إذا كان السبول الاخضر نارق غيب يعود الصيف في البلاد

ما تبقى له غير جمعة ثم يطيب و يبشر بمناجل الحصاد¹

وأنت عليه الدنيا بخطوبها فأشابت شعره كله حتى استوجب الخضاب:

بان شيبى راه مستوجب الخضاب من غرور الدنيا ودار الكلاخي²

تعاقبت الأيام والليالي، وطال تعاقبهما على ابن خلوف، وهو الذي جاوز المائة سنة، حتى اشتعل رأسه شيئاً فولى الشباب مدبراً، معلنا بذلك دنو الأجل:

شاب العذار بكثر أيامي نزل الرخم وطار ازناجه³

ولا بأس أن نشير في هذا البيت إلى صورة رائعة صور فيها الشاعر الشيب

بالرخام في بياضه، وصورة سواد الشعر، الذي ولى مع الشباب، بالزنجي الذي يعبر عن كثرة السواد، وللمفارقة الشديدة بين بياض الرخام ولون بشرة الزنجي، فقد نفخ هذا التصوير في البيت روحاً جمالية تشد الانتباه وتلفت الأنظار.

وقريب من هذا المعنى قوله معلنا يقينا أن رأسه قد علاه الشيب، ومتسائلاً

في استفهام إنكاري عن مصير السواد:

1- بخوشة، الديوان، ص 116.

2- نفسه، ص 163.

3- نفسه، ص 138.

أويك راه عَلم شيببي في راسي واين الغراب الاسود من صار رخامة؟¹

وقوله أيضا:

بعد الغراب الاسود راه كساني البياض بالنور والدنس يا لا هي عن راهب²

ومن صورهِ الرائعة أيضا، هذا البيت الذي يبين فيه كيف علا مفرقه الشيب،

وكيف فر الشباب من هذا الشيب بعد أن نصب عَلمه، إذ هما نقيضان لا

يجتمعان في مكان واحد:

في عنان القبة شيببي نصب العلام فر منه شبابي وفنات لأهلها³

ولا سبيل له في ستر ما اعتراه من شيب بعد أن ولى الشباب وانقضى

زمانه:

زمان كان لوني الأدهم ماله صدا والعاصمة على الدهمة منها شاري

واليوم عاد شيببي شهبة مجردا ماصبت ما ندرق في العيب الواري⁴

ولا يضير ابن خلوف أن اعتراه الشيب، مادام ذلك في مدح صاحب

الشفاعة صلى الله عليه وسلم:

شابوا جوارحي وعداري في مديح صاحب الشفاعة⁵

¹ - المرجع السابق، ص 173.

² - نفسه، ص 170.

³ - نفسه، ص 163.

⁴ - نفسه، ص 170.

⁵ - نفسه، ص 142.

ويبدع الشاعر في تصوير الشيخ الهرم ومآل إليه من عيوب أورثه إياها
الدهر وصروفه:

معكوف القوس كالرباب مكبوب احرص لن يزور الالحاد¹

ولمّا لحق بالشاعر من الهرم ما أقعده، تراءت له أعضاؤه كأنها أصدقاء
فارقوه وتخلوا عنه في ساعة العسرة:

ما بقى في جسدي وجوارحي صديق واينهم اسناني من جزرو ذا وذا

الطوال اقصاروا والآخرين ما تليق والهرم من داتي سدى العرادا

واشتغل بعظامي صيرها دقيق والرحاة انتركوا رجعوا رمادا

احتتات الجسدة وتعزر القيام والجوارح نقصت كثروا عيوبها

ماشين في اعضايا هذا النقص والعدام ضاق صدر النهجة دنقرا سبولها²

وهكذا اخترم الهرم جسد ابن خلوف فصيرة فريسة للعيوب والنقائص.

17 - موضوعات أخرى:

يتخلل مديح سيدي لخضر موضوعات أخرى- إضافة إلى التي ذكرنا-

تستدعي منا الوقوف عندها، وإن كانت أقل ورودا بين ثنايا القصائد منها:

أ. النسب النبوي:

¹ - المرجع السابق، ص 118.

² - نفسه، ص 164.

نلمح من خلال نسيب ابن خلوف نار شوقه المتقد وصدق عشقه للنبي
صلى الله عليه وسلم، فلا داعي للومه في هذا العشق لأنه قضاء من الله، ولو
ابتليت بمثل مصابه لاجتهدت في التماس الأعذار له، هذا ما يراه هو في قوله:

يا لايم لا تلوم عاشق في معشوق خليه فيما قضى الله يتوب عليه

لو تشرب من عوامق بحر الشوق تعذر بالحق المولع في حبه¹

وفي قصيدة "دقة الحب"²، فيض من النسيب النبوي، التزم فيه الحشمة
والأدب، في وقار يليق بمقام الممدوح صلى الله عليه وسلم، فهو لم يجد لطعنة
الحب دواء، ويغالبه نواح المشتاق، وقد نفذ صبره، وأعياى البكاء عينه، كل ذلك
في طلب طيف محبوبه صلى الله عليه وسلم، الذي أبطأ في زيارته:

دقة الحب ما جبرت ادواها و لو نتهد ما نفع تنهادي

صبري كمن تنوح عن باباها كيف صبري على الرسول الهادي

اعيات عيني تنوح لا من جاها بطا علي الحبيب محمدي³

وقد طال انتظاره وهو يتساءل متى يهل عليه هذا الطيف العزيز الذي أوقد
له في حشاه شعلة لا تنطفئ:

اعيتت نرجى في محبوبى ماجا فيوق يا الله نشوف خياله

زين الدرجة في نهار العجاجا راني في الحشا واقد مشعاله⁴

1 - نفسه، ص 110.

2 - المرجع السابق، ص 104.

3 - نفسه.

4 - نفسه.

فهو يطلب من الله تعالى أن يراه في منامه فيشفي ما به من شدة الوجد، إذ لا دواء لهذا الداء إلا رؤية النبي صلى الله عليه وسلم.

طالب رؤية في وجه خاتم الانبيا طبيب لدايا وعنده ترياق¹

ولا يعلم ما اكتوى به من حب إلا الواحد الأحد، ولم ينفعه كتمان أراد به إخماد هذه النار التي زاد لهيبها في كبده:

مصادف كيه ولا علم حدا بي غير الواحد القديم الباقي

وقدت ناري ولا ظهر دخانها كمدت القلب ولا نفع تكما دي

مصادف دقة ولا بان لي مزراقها نيران الحب شاعلة في كبادي²

وهو يخشى على نفسه أن يفقد عقله في هوى سيد الخلق صلى الله عليه وسلم:

خايف نحماق اعزروني يا عشاق ربيع الارماق ليه قلبي هاوي³

هذا الهوى الذي يسعد ذائقه ويورث المحروم منه قساوة القلب:

يسعد من ذاق واللي عمره ما ذاق هذاك قلبه في المحبة خاوي⁴

والملاحظ أن نسيب سيدي لخضر لم يخرج عن تقاليد النسب في محتواه من ذكر الشوق ونار الحب المشتعلة في الأكباد، والخوف على عقله من أثر

1 - نفسه، ص 105.

2 - نفسه، ص 105.

3 - المرجع السابق.

4 - نفسه.

العشق، ومعاناة الوجد، فالأحاسيس والمشاعر تقليدية لكنها تبدو صادقة، صدق لا تشوبه شائبة كفراغ القلب، أو مجارة الشعراء، أو إطرء زائف.

ب. ذكر القرآن الكريم:

ورد ذكر القرآن الكريم في مدائحه في مواضع مختلفة من شعره، فمن أعظم ما خص الله به نبيه بعد مقامه في الجنة والشفاعة، هو التنزيل الذي هو القرآن، وكلها تدل على مقامه عند ربه وعلو شأنه يقول في ذلك:

فضله بالتنزيل وخصه بالمقام والشفاعة الكبرى وحسن البها¹

وليبيان فضل النبي صلى الله عليه وسلم على الأمة، وما أكرمها الله به من تشريع سماوي نظم حياتها وأثار سبيلها يقول الشاعر:

لولا محمد الشفيح المشفع ما نزلت من السما من هي سورة²

وفي نفس المعنى يقول:

لولاه ما نزل كتاب مثل التوراة و الزبور ولا انجيله³

وعليه نزل القرآن، فأثار قلبه، وفك لسانه، فكان نعم المعلم:

ليك انزل القرآن مع الأمين جبريل قال يا محمد خذ الكتاب واقرا⁴

فما أنفس هذه الحروف التي بثت في نبينا الرحمة، فترقع عن كل ما قد

يشينه صلى الله عليه وسلم:

¹ - نفسه، ص 162.

² - نفسه، ص 107.

³ - نفسه، ص 108.

⁴ - بخوشة، الديوان، ص 101.

والقرآن انطق بحروف نافسة يا رحمة الاسلام لا دنس لا خباثة¹

ويتخذ سيدي لخضر من بعض سور القرآن حجابا من كل أذى فيقول:

من ذهبي كل يوم نوزن تبارك اللي هي حجابي²

فهو يتخذ القرآن كنزه الذهبي، أو ذخره، وسورة الملك حصنه من كل أذى،

كما يوصي بقراءة بعض السور كسورة الرحمان وسورة الفرقان وسورة الأحقاف

على أنها كافية شافية فيقول:

تكفيك سورة الرحمان و سورة الفرقان وسورة الاحتقاب³

وتعظم في عين ابن خلوف الكتب السماوية، فيصلى على النبي بقدر ما

فيها من فضل، وهيئات هيئات أن تحصي فضائلها:

صلى الله على حبيبه ما في التوراة وفي الانجيل والزبور والفرقان⁴

ونلاحظ أنه أطلق على القرآن تسميات معروفة كالتنزيل والكتاب والفرقان،

وزاد أن وصفه بالذهب في قوله " من ذهبي كل يوم نوزن "، وما تعظيمه للقرآن

إلا شهادة على تقواه، « ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ »⁵

ج. ذكر بعض القصص الديني:

يعد أسلوب القص أقرب إلى النفس وأريح لها، ثم إن طبيعة الإنسان ميالة

إلى القصص، ورب العزة أعرف بهذه الطبيعة البشرية، لذا وردت قصص في

1- نفسه، ص 68.

2- نفسه، ص 94.

3- نفسه، ص 145.

4- نفسه، ص 108.

5- سورة الحج، الآية 32.

القرآن الكريم، منها ما يثبت الفؤاد، « وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ »¹ ومنها ما فيه العبر والعظات، « قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى »².

لذا اتخذ ابن خلوف من هذه الوسيلة أداة للوعظ والعبرة وإسداء النصح في قالب تقبله النفس كما فعل في قصة الأخوين اللذين وهب الله لهما مالا كثيرا، وكانا على طرفي نقيض، الأول كريم كثير البذل والعطاء، والآخر بخيل شحيح، فلما قضى الله عليهما الموت وحكم بينهما، أكرم الله الكريم خير الجزاء، بينما خاب البخيل وخسر؛ خسر الدنيا فلم ينل نصيبه منها، وخسر الآخرة، فلم يعمل ولم يدخر لها، وهذه الأبيات من قصيدة " إلا وجه الحبيب غاب "³:

نور يكم قصة جرات الايام الفوت مابين خوتين هابوا المال كثير
عاشو حتى قضى عليهم الله الموت وتشتت مالهم على حد الغير
كان منها البخيل محروم القوت وأما خوه سهمه عند الله كبير
ارتفعوا للشرع اغضاب الميزان انتصب وحضر مكياله
فضوه في الساع بالصواب ونقص مال البخيل وتشين حاله

ويسوق ابن خلوف قصة أخرى مؤداها أن غلاما يدعى عمر بن اليزيد، وكان راع للغنم، التقى به النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في طريقهم إلى إحدى الغزوات، وقد نال منهم العطش، فطلب منه النبي أن يسقيهم ماء، فأصر

¹ - سورة هود، بعض الآية 120

² - سورة يوسف، الآية 111.

³ - بخوشة، الديوان، ص 111 وما يليها.

على النبي أن يكشف له عن نسبة وهويته، فقال النبي إنه رسول الله، فأنكر عليه الغلام في شديد لهجة، أمر إغتاظ له علي بن أبي طالب، لكن النبي بحلمه يطلب من علي أن يتحلى بالصبر، ويلتمس العذر للغلام على جهله بمقام النبي لحدائثة سنة، ولما رأى الغلام من النبي الحلم والأناة ناوله كوز الماء ليشرب دون غيره من الأصحاب، لكن النبي صلى الله عليه وسلم يشرح للغلام أن المروءة تأبى ذلك، فازداد ابن اليزيد إعجاباً بالنبي، وسمح له أن يشرب الجميع، ثم دعاه النبي إلى ترك عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر، ويعتق الإسلام، فقبل الغلام بشرط أن يأمر بقتل حية في الوادي، وأن يدعو النخلة الجذباء أن تسترد خضرتها، وثمارها، فكان له ذلك، وفرح الغلام بما رأى وأهدى إبله إلى النبي، لكنه صلى الله عليه وسلم رفض وطلب منه أن يعود بإبله إلى قومه الكفار ويخبرهم بما رأى وسمع من النبي، ولما بلغ قومه وأخبرهم، قلبوا له الأمور حتى انتهوا إلى سجنه، فما كان له إلا أن طلب حمى رسول الله، الذي أجاره، فجاء جبريل عليه السلام، وحول سجنه إلى جنة خضراء وبعد مدة تفقد القوم الغلام فوجدوه حيا، فخافوا على دينهم الباطل، وما وجدوا من حيلة للتخلص منه إلا نفيه للصحاري بشده وعلى ظهر دابة تهيم به في الفيافي فتقرسه وحوشها، لكن جبريل قاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس للدارس أن يُجهد نفسه في البحث عن هذه القصص في أسفار التاريخ أو الأثر، لأنها من إبداع المخيال الشعبي، الذي لا يعرف القيود، ولا تحده الحدود، يسبح في كل الفضاءات، ويتمرد على كل القوانين والذساتير، ولو كانت إلهية، يجمع ما يريد، ويركب ما يشاء، يطوي التاريخ طيا، ويبسطه بسطا، وينسج على منواله هو من كل الخيوط، وله كامل الحرية في اختيار أبطاله

ولا تعدو أن تكون هذه القصص إلا نفحات من حب الشاعر للنبي صلى الله عليه وسلم، يصوره فيها في أرقى صورة بشرية تتسامى من موقف إلى آخر، وهذه الصورة الراقية هي التي أرادها ابن خلوف أن ترافقه في مدحه كله.

وقصة الغلام هذه من قصيدة " بسم الله نبتدا القصيدة " ¹ التي أربت على المائة بيت، نجتزئ منها بعض الأبيات:

اسمعوا يا عباد مني ذا الأبيات ماجا في قصة الغلام ابن اليزيد

يوم خرج الرسول في بعض الغزوات لحق عند الابل راعي ولد فريد

قال الغلام للنبي يا نعم السدات عندك ما تسال واسأل ما تريد

قال له المختار مد لي الكوز ترى نشرب منه وكل من هوعطشاني

قال عمر بن اليزيد ما تشرب قطرة لمن تعلمني بنسبك يا إنساني

وهناك قصة الفتاة الموعودة في قصيدة " بسم الله بديت انزم " ² التي منها:

قصة الطفلة عند الكفرا اسمها الموعودة

جاؤو لبها كم ظالم قالوا ذا الطفلة

إدّها واقتلها واعزم لا تخرج علة

¹ - بخوشة، الديوان، ص 119، ينظر بقية القصيدة في الصفحات الموالية.

² - نفسه، ص 127، ينظر بقية القصة في الصفحات الموالية.

وهي قصة من نسخ الخيال، غرضها عرض ما كان عليه حال الكفار مع البنات في الجاهلية الجهلاء، وضمّنها بيان لفضل النبي في تحرير المرأة، والبشرية عموماً من هذا الظلم.

إن في مثل هذه القصص استدراج للسامع، خاصة إذا زانها حسن سبك وجودة حياكة، ليمرر له الشاعر ما يرغبه من مواعظ ونصائح وأفكار، فيقبلها في راحة نفس وهدوء بال وطيب خاطر.

لقد أخذنا نماذج شعرية لكل موضوع وغلبنا بعضها على بعض تبعاً لكثرة ورودها في أشعار ابن خلوف، وحتى تكون أقرب في الرؤيا من رؤيا الشاعر فنكون بدورنا أكثر أمانة في نقلها للقارئ.

ويتبين لنا أن مدحه روضة من الرياض تغص بالأزهار المختلفة الألوان، فالموضوعات في تشابكها يأخذ بعضها برقاب بعض لتصنع في النهاية إكليلاً مرصعاً باللائئ.

إن تنوع الموضوعات في الغرض الواحد الذي هو المديح النبوي خدماً خدمة زادته جمالية، إذ ينتقل خاطر في فضاء المدح من موضوع لآخر دون أن يمل معانيه أو يعاف صورته، زانه في ذلك حسن سبك الشاعر وحذاقة صنعته وصدق عاطفته.

ولننظر في الفصل الموالي في شكل المديح من خلال قصيدة " أحسن ما يقال عندي " وهي أول قصيدة من الديوان.

أحسن ما يقال عندي

أحسن ما يقال عندي بسم الله وبك نبدا
حبك في سلطان جسدي ماعزك يا عين وحدا
قدر النحلة اللي تسدي تبني شهدة فوق شهدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

اللهم صل وسلم طول الدهر على نبينا
قدر نجوم الليل الاظلم والامطار النازلينا
واستخلاف الحوت الابكم في البحور الغامقينا
الغزل في خشبه مسدي والمنسوج قميص واردا
الشعر سلك حرير بيدي ما حملت بضناه دودا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

صلى الله عليك واثني الف سلام عليك ثاني
لولا انت لا نور جنة يشرق ولا نار تسني
نحتاجوك الهيه وهنا يا من بيك اللساس مبني

ترحم لي أبي وجدي ووالدتي و جدا
ارفق بروحي وجسدي داوني نبرا من الدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

داوني بدواك نبرا من وسواس الانراه
اذا كان ابليس عبرا عندي حيا ولا نراه
اعوذ بالله نقرا نختم بالقرآن فاه

فضل الله كتابه عندي يكفيني قوتي وغدا
نهزم بيه القوم وحدي نفسي والشيطان الاعداء
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

من تدبير ابليس الاعور صهدتنا يا ناس فتنا
يختلنا من الجنب الايسر من تمزيق الدين خفنا
احفظ يا مولى واستر والعنه سبعين لعنا
و بخته بقضيب عندي والطمته لطمه شديدا
اقبضت الشيطان بيدي واعطيته ميتين جلداء

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يا محمد بجاه جاهك اولاً انت من سأل فيا

عرفوني لما امدحتك نفخر بيك ولا عليا

الاتراك اللي تزديك خدمت اولادي رعييا

رفرف فوق الراس بندي لبستني حلة جديدا

ومفاتيح الخير رشدي وايامي بيك سعيدا

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

نستهزاوالموت في اثري ماذا من سية عليا

اذا نمت انوم قبيري واذا قمت انقوم حيا

هذا فاش فنيت عمري نرجى الله يعفو عليا

نرجى الله يقول عبدي قبل الا نلقاه عمدا

كيف نكون وكي انودي هول اليوم وهول غدا

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

ماقدمت الا ذنوبي هب يا مولاي توبا

باح السر وبان شيبى من قدام و صار عذبا

استر يا مولاي عيبى لا نضحى للناس عجبا

نفرع من نقصان جهدى سياتي تموا زيادا

من لا جاب يقول ندى باغى الريح بلا العبادا

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يا محمد لك يفرع من لاله فى الناس والى

لا غيرك مناع يمنع من سطوة مول الموالى

لا غيرك شافع يشفع من هو عرة بحالى

راغب فى الدنيا بوحدى فى نفسى شفيت الاعداء

يا قطعان يدي بيدي ما نفلت حتى بسجدا

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يا محمد انت الامجد تصرخ بيك الناس شتا

فى قبري باغيك توجد للجنة مفتاح انتا

الكافر فى النار يخلد والعاصى يرجاك حتا

يا سيد رقية تادى بين يدين الله سجدا

وملايك ربي تنادي ارفع راسك يا احمد
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يا محمد لا تسلم في جسدي واهلي وناسي
حرر لي ما ضنات آدم قدر شعر داتي و راسي
البادية الاعراب وعجم كلتها تاقي و عاصي
قد سميت عليك ولدي قلت تكافيني بوحد
من حاف إلى قاف نفدي حرر لي حتى جراد
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يا محمد لا تسلم في المداح وفي قبيله
باغيك علي تبرم تبريمة من لا يولوا
ما لي طاقة وما نجم يوم الدين كثير هول
يوم العطش ما فيه وردي ووجتوه الكفار سودا
ينكبوا في النار تقدي ما اشينها حرة شديدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

اليك الانياق حنت ما ذي الالهة عظيما
بتواشي الاطيار غنت باسمك يا المختار ديما
وعساكر بطبول رنت تنسج في قرية وخيما
ومدارس بالعلم تنادي ودواوين الخير رشدا
وضفاضع في شط وادي تسهر بيك الليل وغدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

نرجى الله يدوم فرحي نزهى بيك وليك فارح
نريد الخير يزداد ربحي في كل نهار نعود فارح
نغسل في الزخار جسدي صافي عاذب ليس مالح
شعشع نورك فوق خدي جلتار فاتح فوق وردا
ونغمس في طيب زبدي منه لاحت لي السعادا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

يكفاني صدقي ونية الاخضر كيف يكون خاطي

تسعة وتسعين روية والعاطي مازال يعطي
كافني مولى الهدية وقبل لي مولى شرطي
خلق الله بادي وبلدي مغطوسين في الخير شهدا
ما محروم الا اليهودي واللي مات بلا شهدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا
نختم قولي بصلاته على صاحب الغماما
هو الشفيح في اماته شافعنا يوم القياما
بجاه من رضعاته امه السعدية حلما
يمنعنا من نار تقدي جهنم حرة شديدا
يسرع بينا للخلودي الاخضر والأمة السعيدا
يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

الدراسة الشكلية للشعر تقتضي منا الوقوف عند الأشكال التعبيرية التي يبنى عليها النص الشعري، فالشعر عموماً وعلى حد تعبير أهل الاختصاص " لفظ، ومعنى، ووزن، وقافية " ¹، وهذا التعريف يحيلنا إلى التعامل مع القصيدة التي بين أيدينا على مستويات ثلاث: المستوى الأول هو التركيب اللغوي أو شعرية اللغة والمستوى الثاني هو التركيب البلاغي أو الصورة الشعرية، والمستوى الثالث هو الإيقاع الشعري.

أما المستوى الأول فنرى فيه إلى أي مدى كانت اللغة في تركيبها ومعجميتها شعرية.

1 - المستوى الأول: شعرية اللغة:

يشارك كثير من علماء اللغة وعلى رأسهم ابن جني في تعريف اللغة "على أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" ²، ولغة الشاعر سيدي لخضر عامية جزائرية تحمل ما تحمله من خصوصيات، فالتعامل معها، على هذا، يكون في إطارها الشعبي لأنها تعكس صورة التفكير الشعبي الساذج البسيط.

إن اللغة التي نسعى إلى التعامل معها هي اللغة الفنية الإبداعية الشعرية وإن كانت تلتقي في كثير من الوجوه مع العامية ذات الاستعمال اليومي، والتي هي بمفهوم اللسان الذي وظيفته غير فنية. ³

¹ النواجي، محمد، مقدمة في صناعة النظم والنثر، تحقيق محمد عبد الكريم، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 27.

² ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب، ط1، بيروت، 2006، ص 67.

³ ينظر، مرتاض، عبد الملك، الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومه، الجزائر 2009، ص 111.

إنه لا مجال للتأويلات والتعليقات لتقريب العامية أو اللهجة من اللغة العربية الأم، كما أنه لا مجال لقياس فصاحة العامية بمقياس فصاحة اللغة العربية من حيث اللغة كمفردات، فكلمة "تراس" التي تقابلها في العربية الرسمية كلمة "رجل"، تتراكم فيها دلالات كثيرة توحى باكتمال الرجولة كالشجاعة والمروءة، والكرم والوفاء بالعهد والأمانة وكل مكارم الأخلاق وما يلحق بها، بينما كلمة "رجل" تعني الراشد من الذكور، وإن أردت التخصيص قلت: رجل شجاع، رجل صادق.

لقد سقنا هذا المثال لنبين أن لكل لغة أو لهجة خصوصيات وعوامل تؤثر فيها و في ناطقها، وفي بلدنا الجزائر لهجات كثيرة عامية و"العامية الجزائرية" يتمثل هيكلها اللغوي العام من هذه اللهجات الإقليمية التي تختلف من جهة إلى جهة.. وهذه اللهجات تخضع لعوامل لغوية كثيرة. فاللغات تتأثر وتتوثر لأنها ظاهرة اجتماعية. " ¹

إن الذين يقيسون جودة الشعر الملحون و بلاغته بمدى قرب لغته من اللغة العربية الرسمية، إنما هم يقدمون تبريرات بأن العامية ليست دعوة لضرب اللغة الرسمية، ولولا أن هذه العامية كانت لغة فنون شعرية ونثرية لعزاها أهل الاختصاص إلى الدراسات الأنثروبولوجية، ولكننا نفيد من هذا أن هذه اللغة فيها من الفنية والجمالية ما يؤهلها لأن تكون لغة شعر كثيفة الدلالات، تتولد منها المعاني وتتسابق في إجلائها.

¹- مرتاض، عبد الملك، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 07.

نضيف إلى هذا أن اللغة العربية " حقيقة " وأن الحقيقة لا تحتاج إلى من يدافع عنها، خاصة وأن الله سبحانه وتعالى تولاها بالحفظ من خلال حفظ كتابه العزيز.¹

إن لغة الشعر عند ابن خلوف، من حيث وظيفتها التعبيرية، تتسم بنيتها بالبساطة والمباشرة وقد توصف بالسطحية والسذاجة، تعكس بساطة العيش وسذاجة الفكر، ثم إن ثقافة الشاعر لم تتجاوز النصوص الدينية، وربما بعض النصوص الأدبية، نقصد بها الشعر الملحون في تلك الربوع، فكان لا مناص من أن ينعكس ذلك على لغة شعره.

من أجل ذلك نلفي اللغة الشعرية، في هذه القصيدة، وفي شعر سيدي لخضر عموماً لغة مباشرة في أغلبها، وهذا لا ينفي أن نلمح فيها من التصوير الفني والظلال الدلالية الموحية، والنسج الشعري العبقري ما يؤهلها لأن تكون بحق لغة شعرية.

تعتبر لغة القصيدة في مجملها قريبة من الفصحى، لم تتجل العامية فيها إلا في ألفاظ معدودات نوردتها كما جاء ت:

اللي: وهي تأتي بمعنى الذي والتي معا، فالعامية يتوخون الخفة والسهولة في التعبير وينأون عما يعتقدون أنه ثقل وتملق .

الهي: وهي اسم إشارة للبعيد بمعنى هناك أو هنالك.

تزدك: بمعنى تدعي القوة، وفي العامية زدك أي قوي وعريض المنكبين.

¹ - سقنا هذه الملاحظات لأننا صادفنا في كثير من المذكرات هذا الاتجاه، من أن لغة الشعر الملحون كلما اقتربت من اللغة الرسمية كانت أفصح وأبلغ فأردنا أن نكشف ما اعتقدنا أنه ألبس.

فاش: لعلها تعني " في أي شيء " فأخذت الفاء من " في " والألف من " أي " والشين من " شيء " لتختزل في كلمة " فاش " ولعلها ضرب من الاشتقاق والنحت في العربية. ليصبح معنى الشطر: " هذا فاش فنيت عمري " كالتالي: " هذا " الشيء الذي فيه " أفنيت عمري "

جَاب: وتعني " جاء بـ "، واختصرت في " جاب " للتخفيف، ومن معاني " جاب " في المعاجم العربية كسب المال، ولعلها أقرب إلى معنى " جاب " في البيت.

نَدِّي: بمعنى آخذ، وفي المعجم¹ " أدى " بمعنى أخذ للحرب أدواته.

عَرَّة: وهي لفظة تعني الدونية والانتقاص، وفيها معاني العراء، كأنه عار من أعمال البر، أو معنى العار، أي أن تقصيره بلغ درجة العار.

شَفِيَّت: أي جعل نفسه محل شماتة الأعداء، وتأتي في العامية أيضا بمعنى أثرت في نفسه الشفقة.

نَجْم: بمعنى أستطيع وأقدر.

ما اشينها: بمعنى ما أقبحها، من الفعل شان ضد زان.

أثوم: أي أرى في منامي.

وما عدا هذه الألفاظ في القصيدة كله فصيح، مع بعض التحريفات، في مثل

لفظة:

¹- الزمخشري، جار الله، أساس البلاغة، تحقيق الأستاذ عبد الرحيم محمود، دار المعارف، بيروت، ص

لبدا: التي أصلها أبدا.

اللساس: التي أصلها الأساس.

سية: أي سيئة.

ليك: أي لك.

ولعل ما ينطبق على لغة هذه القصيدة، ولغة ابن خلوف عموما، هو نفسه ما ينطبق على لغة الشعر الملحون، " فكلّما هذه النصوص، نجدّها ذات أصول عربية في مجملها، لكنّها لا تحافظ على خاصية الكلمة العربية الفصيحة ليس على مستوى القواعد النحوية فحسب، بل على مستوى النطق بالحروف المكونة للكلمة أيضا، إلى جانب مراعاة القواعد النحوية والصرفية واللغوية بصورة مجملّة عند النطق بها، وعند كتابتها أيضا. والجدير بالملاحظة هو التغيير الذي يدخل على الكلمة عند توظيفها شعبيا، والذي يمسخها من وجوه شتى، منها رسمها والنطق بها.¹

وقد يشترك شعراء المديح في المعجم اللغوي إلى حد بعيد يكاد يكون تواضعا على لغة بعينها، أشبه ما تكون بالمصطلحات، ولنأخذ نموذجين لشاعرين على سبيل المثال، لنرى ما فيها من لغة توافق لغة ابن خلوف وغيره، نكتفي بعرضها لأن المقارنة تقتضي دراسة برمتها:

يقول الشاعر عبد العزيز المغراوي:²

¹- دحو، العربي، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص194.

²- من شعراء القرن السادس عشر الميلادي.

باسم الله في ذا اللغى نؤرخ نضمي في اسطاره اسم الله بالسر والجهر

شأن رفيع خيار ما يقول الناضم في شعاره سر القول الله أكبر

في مديحك يا من رفع ربي قدره واختاره واعطاك البرهان والنصر

أمر البركة تكون حرمة يمينه وايساره الهيبة والعز والوقر

صلى الله عليك يا الدر الساطع لنواره محمد يا طيب البشر¹

ويقول الشاعر عبد القادر بطبجي:²

لولا الهاشمي منبع الأفراح لا كان ملك ولا عشرا

لا نور لاضي لا كوكب وضاح صلوا على النبي يا حضرا

محمد المفضل كنز الأرباح صلوا على النبي يا حضرا³

إن المعجم اللغوي الذي نشير إليه هنا، لا ينفي وجود معجم فني خاص

بكل شاعر، بل بكل قصيدة، وإلا فلا يمكننا الحديث عن نص أدبي.

¹- ابن دعاماش، عبد القادر، المهم في ديوان الشعر الملحون، ج1، موفم للنشر، الجزائر 2008، ص

102.

²- من شعراء القرن العشرين الميلادي.

³- نفسه، ص 83.

أ - شعريّة النص من خلال المفردة:

وإذا وقفنا عند المفردة فإن أول ما يطالعنا في النص كثرة الأسماء، إلى درجة طغت فيها على القصيدة، كونها أقوى من الحروف والأفعال، وأنها كفيلة بأن تؤدي المعنى وحدها، يقول ابن جني في هذا: "ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كل واحد من الحروف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة الأولية في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به، جاز أن يكتفي بها مما هو تال لها، ومحمول في الحاجة إليه عليها"⁶⁵⁴، أضف إلى ذلك كون الشاعر في غرض المدح، وتحت وطأة انفعال إيجابي هو حب النبي صلى الله عليه وسلم، فلا يحتاج إلى ضرب بالعصا ليستفيق النائم، بل يود أن يضل حالما بقاء النبي، هائما بحبه في جو من الدعة والسلام، بعيدا عن صخب الأفعال ودويها ووقعها في النفس وقعا، وقعقة تثير فيها فضول تتبع الأحداث التاريخية مثلا - أو تقصي الوقائع وعرض الأحداث.

ويشدد في البنية اللغوية ثنائيات تقابلية يختلف مركز التفعيل في كل واحدة منها:

إليه وهنا: الفاعل والمحرك هنا هو الامتداد المكاني، فالحاجة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في نفس الشاعر تمتد من الدنيا إلى الآخرة، وقد قدم إليه عن هنا لانصباب اهتمامه على الحياة الآخروية قبل الدنيوية وهو العابد الزاهد.

روحي وجسدي: محور هذه الثنائية هو الشمولية، إذ يقتضي في الرفق أن

يشمل الروح والجسد معا، فلا الجسد يمسه العذاب في القبر، ولا الروح يلحقها مساس عند بارئها، وقدّم الروح هنا أيضا عن الجسد لقدسيتهما.

⁶⁵⁴ ابن جني، المرجع السابق، ص 37.

الداء، والدواء: مأتى هذه الثنائية هو الانفراج، فالداء، هذا الذي يعيي

صاحبه وينهكه، تأتي راحته وبرؤه مع الدواء.

نمت أنوم، قمت نقوم: المحرك في هذه الثنائية هو الحركية إذ ينتقل من

سكون إلى حركة، ومن خمول إلى نشاط.

هول اليوم، وهول غدا: تقضي إلى الامتداد الزمني، فهو ينقلنا من تساؤل

عن يوم هو فيه، إلى زمن قد يمتد في الأزل.

ذنوبي، توبيا: المحور الذي تدور حوله هذه الثنائية هو الانتقالية، إذ ينتقل

من ذنوب ومعاص وخسران عموماً إلى طاعة ونجاة وفلاح.

نقصان، زيادا: تحيل هذه الثنائية إلى المعيارية، فحجم السيئات التي

بحوزته حال دون تداركها حجم قدرة جسمه، فعجزُ بدنه لا يؤهله لأن يجتهد في

العبادة فتربو حسناته عن سيئاته .

جاب، ندي: محرك هذه الثنائية هو العمل، إذ لا يمكن أن يأخذ أجرا من لم

يؤدّ عملاً، فالجزاء من جنس العمل.

الاعراب، وعجم، وكذلك، تاقي، عاصي: محور هتين الثنائيتين هو التعميم،

فهو يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحرر عموم الناس على

اختلاف أجناسهم وعلى تفاوت تقواهم.

بادي، بلدي: ما قلناه في الثنائية السابقة ينطبق على هذه الثنائية، فالبدوي

والحضري عموماً منخلق الله.

إن هذه الثنائيات اللغوية أفضت إلى كثير من الحركية اللغوية في النص،
مؤدية وظيفتها التعبيرية وإن كانت بسيطة قريبة المنال.

ب - الحقول الدلالة للقصيدة:

نقصد بهذه الحقول الدلالية المعجم الفني للشاعر، و"الحقل الدلالي مجموع
الكلمات التي ترتبط معانيها بمفهوم محدد، بحيث يشكل وجها جامعا لتلك
المعاني، ومبررا لها لكي تأتلف على ذلك الوجه، أو هو مجموعة وحدات معجمية
ترتبط بمجموعة تقابلها من المفاهيم على أن تتدرج كلها تحت مفهوم عام، أو كلى
يجمعها." 655

بهذا المعجم نقيس مدى اقتدار الشاعر في التنقل من حقل إلى حقل دون
الخروج عن المحور الرئيس للقصيدة.

سنحاول إبراز الحقول الدلالية في القصيدة وسنرمز لكل حقل بحرفين هما "
حد".

حد 1: أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته:

الله، اللهم، مولى، مولاي، مولى الموالى، ربي.

حد 2: أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم وصفاته:

655. نواري، سعيد أبو زيد، الدليل النظري في علم الدلالة، دار الهدى، الجزائر، 2007، ص 128.

محمد، سيدي، نبينا، مناع، شافع، الأمجد، مفتاح الجنة، سيد رقية، احمداء،
المختار، شعشع نورك، صاحب الغماما، الشفيح.

حد 3: الدنيا والآخرة والجنة والنار:

نور جنة، نار، الموت، قبري، هول اليوم، هول غدا، الدنيا، يوم الدين، يوم
العطش، وردي، حرة شديدا، مات، يوم القياما، نار تقدي، جهنم، الخلودي، هول.

حد 4: الدين الإسلامي:

صلى، صل وسلم، أعوذ بالله، بالقرآن، كتابه، فنتا، الدين، عبدي، توبا،
العبادا، نفلت، سجدا، ملايك، تاقي، عاصي، شهادا.

حد 5: الطبيعة (الحية والصامتة):

النحلة، تسدي، شهدا، نجوم، الليل، الأظلم، الأمطار، الحوت، البحور،
خشبه، وردا، حرير، دودا، اللساس، قوتي، غدا، قضيب، بندي، البادية، الأطيبار،
ضفاضع، شط وادي، الليل، نهار، الزخار، مالح، جلنار، العماما.

حد 6: العدد:

قدر، ألف، ثاني، وحدي، سبعين، متين، وحدة، تسعة وتسعين.

حد 7: الإنسان وما يتعلق به:

جسدي: عين، بيدي، حملت بضناه، أبي، جدي، والدتي، جدة، روعي، فاه،
القوم، نفسي، ناس، الجنب، أولادي، رعية، عمري، شيبني، يدي، راسك، أهلي،

شعر، داتي، راسي، الاعراب، عجم، ولدي، فبيله، وجه، خدي، بادي، بلدي، رضعاته، أمه، آدم.

حد 8: إبليس وما يتعلق به:

وسواس، إبليس، أعوذ بالله، الشيطان، الأعور، يختلنا، العنه، لعنا.

حد9: الألقاب والكنى:

الأتراك، رقية، جرادا، المداح، اليهودي، السعدية، حلّيما، الاخضر.

حد 10: الخير والسعادة:

نبرا، مفاتيح الخير، الريح، تكافيني، فرحي، نزهى، فارح، ربحي، فالح، طيب، السعادا، الهدية، السعيدا.

حد 11: الأحاسيس:

حبك، ما عرك، ترحم، أرفق، خفنا، أحفظ، نفخر، نرجي، يفرع، يربحك، حنت، فارح، محروم.

حد 12: الغنف:

نختم، نهزم، يختلنا، تمزيق، بخته، ألطمته، لطمه، شديدة، أقبضت، جلدًا، سطوة، قطعان، تصرخ، ينكبوا.

هذه هي أهم الحقول الدلالية، ونراها ملتفة كلها بمحاورها حول موضوع مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وإن تنوعت مدلولاتها وتباينت، فاللغة الشعرية حاضرة تنبئ بالتجربة الشعرية لسيدي لخضر في مختلف المواقف.

ج- من خصائص اللغة الشعرية:

لا بد من التلميح إلى أن قصيدة الملحون متميزة بلغتها العامية ولذا فمعرفة هذه اللغة والإلمام بدقائقها، هو ولوج إلى فكر الشاعر وقلبه، وبيئته التي استقى منها هذه اللغة.

والتعامل معها لا ينبغي أن يكون بخلفية التعامل مع العربية الرسمية لأن هذا ينأى بالباحث عن تذوق هذا الشعر أو الفن من حيث هو شعبي، كما يجعله يلهث وراء العبارات الفصحى ويؤول لها التأويلات ليزيها في اللغة الرسمية طوعا أو كرها، فيجردها بذلك من بيئتها ومن طبيعتها البسيطة أو الشعبية.

ولننظر في أهم خصائص اللغة الشعرية في القصيدة التي بين أيدينا:

الهمزة: "أمر الهمزة عندهم بين ثلاث: إما أن تحذف، وإما أن تستعمل وإما أن تنطق حمزة وصل.⁶⁵⁶ فالشاعر يعمد إلى حذف الهمزة من الأسماء الممدودة في مثل قوله:

الدا بدل الداء، الاعداء بدل الأعداء.

قد يحذفها وهي أصلية كما في: اثري بدل إثري، الأيسر بدل الأيسر، سيه بدل سيئة.

والحال هذه عند كثير من شعراء الملحون طلبا للتخفيف والتسهيل.

وقد تقلب الهمزة ياء كما في: **ميتين بدل مائتين**

⁶⁵⁶ مرتاض، عبد الملك، العامية الجزائرية وصلاتها بالفصحى، ص 11.

أو تقلب إلى واو كما في: **نودي بدل نوذي**

أو إلى ألف مثل: **تادي بدل توذي**

إن تخفيف الهمزة وتسهيلها أو قلبها، لأنها صوت مجهور، والهمس أولى في مثل هذا الغرض وهو أكثر ملائمة له، خاصة إن كان الممدوح هو سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ»⁶⁵⁷ وابن خلوف الولي الصالح الورع، أجدر الناس باختيار لغته في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم.

ظاهرة التسكين:

من مطواعة لغة الشعر الملحون، التسكين، الذي يرفع حرج القواعد النحوية ويسهل انسياب الألفاظ في يسر كما في الأمثلة: **خلق بدل خلق، نهار بدل نهار، مفاتيح بدل مفاتيح.**

فهي بادية خلاف اللغة الرسمية، حيث يجوز لها أن تبدأ بالساكن وتقف على الساكن في غير ما إخراج.

الضمائر: يستخدم الشاعر، وأغلب شعراء الملحون، مع الأفعال المضارعة، ضمير الجماعة بدل ضمير الفرد وهو يقصد نفسه فمثلاً:

نريد بدل أريد، نغسل بدل أغسل، نفخر بدل أفر.

⁶⁵⁷ سورة الحجرات، الآية 02.

ولعل أصل هذه النون راجع إلى غنائية الشعر الملحون، ذلك أن مخرج هذا الحرف يحدث رنيناً يتناسب مع الإيقاع، ألم تر أن كلمة رنين، وأنين، وهنين، وخنين، وحنين، وطنين، كلها تعني أصواتاً، متفاوتة، وكلها تحمل حرف النون مكرراً، ولو تفحصت الشعر الملحون لوجدت أنه لا يكاد يخلو فيه بيت من حرف النون. إنه الوتر الأساس في قصائد الملحون.

اسم الموصول: لا يستعمل شعراء الملحون اسم الموصول الذي، بل يستبدلونه بـ " اللّي "، يقول مرتاض عبد الملك: " إن اسم الموصول لا يوجد في لهجاتهم البتة، وهم يستعملون للدلالة عليه لفظاً واحداً في كافة الأحوال هو اللّي⁶⁵⁸، ومثال ذلك في شعر ابن خلوف قوله: " النحلة اللّي تسدي " أي التي، وقوله: " الأتراك اللّي تزذك " أي التي، وقوله: " واللّي مات بلا شهادا " أي الذي.

لا شك أن ابن خلوف لم ينبّر لمدح سيد الخلق لغرض دنيوي مادي زائل، لذلك فلغته لم يتخير منها إلا ما يليق بمقام ممدوحه، وما لا يتنافى مع طبع المحب وذوقه، فهي في مجملها عفوية بسيطة، ولعل هذه العفوية والبساطة هي الخلفية الجمالية للنص الشعري الذي بين أيدينا، وللنص الشعري الخلوفي عموماً، والشعر الملحون بصفة أعم .

2 - المستوى الثاني:

الصورة الشعرية عند ابن خلوف من خلال هذه القصيدة:

تشبيه الشعر بالتصوير قديم في النقد العربي، فقد أشار إلى ذلك الجاحظ، وتبعه في ذلك النقاد العرب القدامى، أمثال قدامة بن جعفر، وعبد القاهر

⁶⁵⁸ مرتاض، عبد الملك، العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، ص 12.

الجرجاني، وغيرهما و "إذا كان الجاحظ قد اقتصر في كلامه على الإشارة إلى أن الشعر "صناعة وضرب من التصوير " فإن النقاد الذين جاءوا بعده حاولوا أن يحددوا طبيعة التصوير الشعري بإثارة التخيل، والحواس، والملكات المختلفة، والهدف من التصوير، كما اجتهدوا في بيان أثر المجاز، والتشبيه، والاستعارة، والكنائية، وما إليها في الصورة الشعرية .⁶⁵⁹

وللتجربة الشعرية، بعناصرها، أثر كبير في التصوير، إذ لكل تجربة شعرية عناصر مختلفة من فكرية وخيالية وعاطفية، مجتمعة ومتفاعلة فيما بينها، يتخذ منها الشاعر مواد تصويره، إذ يستعين بها على إجلاء صورة قوية الإيحاء، نافذة التعبير⁶⁶⁰.

و " لهذا كان لكل تجربة شعرية ناحيتان: الأفكار والخواطر المجردة وهذه في طبيعتها لا شعرية، ثم العملية الشعرية نفسها التي تقوم على وضع هذه الأفكار في قوالب خاصة، معتمدة على تكرار الوزن والنغمة والقافية والحركة الموسيقية، مع مزاجتها بتلك الأفكار والخيالات والعواطف. ⁶⁶¹

فالتجربة الشعرية على هذا، هي التي تقف وراء البوح بالوجه الحقيقي لنفسية الشاعر في إخلاص كبير.

⁶⁵⁹ -مصايف، محمد، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر 1984، ص 164.

⁶⁶⁰ - ينظر، غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، ط1، بيروت 1982، ص 384.

⁶⁶¹ - نفسه.

ويجتمع لدينا أن الصورة الشعرية هي نتاج عقل حرّكه الانفعال وتعهده الخيال، مع التدقيق في النظر إلى الشيء المصوّر لتقديم الصورة في شكل عميق، يقول محمد مصايف في هذا:

" إن مما ينبغي أن يتوفر للشاعر كي ينجح في التصوير الشعري، التدقيق في النظر والبحث، وبالتالي في رسم الصورة والتمكن من اللغة والأوزان الشعرية."⁶⁶²

وتظهر قوة التصوير عند الشاعر في مدى تكييف الصور المادية التي تمده بها الحواس مع انفعالاته النفسية بعيدا عن التعمّل البارد والتتميق المشين، إلى جانب الذوق باعتباره وسيلة لتنسيق الأضواء والظلال في الصورة الشعرية.⁶⁶³

يتوافر لدى ابن خلوف، إلى جانب بساطة اللغة ووضوح العبارة، رصيد معرفي طغت عليه النصوص الدينية، أي القرآن والحديث، إلى جانب الملكات الضرورية للشاعر وهي الذوق والخيال والإحساس والعاطفة القوية. ويكون التعبير عن المعاني المقصودة، المراد إثارتها في نفس المتلقي، بالصور البيانية كالتشبيهات والاستعارات والكنائيات.

2-1 الصور البيانية:

أ - التشبيه: تعد هذه القصيدة شبه خالية من التشبيهات الصريحة، إلا في

تشبيه الشعر " بسلك حرير " وهو يقصد خيط حرير:

الشعر سلك حرير بيدي ما حملت بضناه دودا

⁶⁶² - مصايف، محمد، المرجع السابق، ص170.

⁶⁶³ - ينظر المرجع السابق ، ص 160.

جاء هذا التشبيه بليغا غابت فيه أداة التشبيه ووجه الشبه، ليؤكد أن هذا الحرير متميز في نوعه عال في جودته، نفي عنه صفة الحرير، الذي مصدره دودة الحرير المعروفة، وعبر عنه بالسلك، وهي صفة المعدن وهو يريد أنفسها الذي هو الذهب، فهذا الشعر كسلك يحمل بريق الذهب ونعومة الحرير، طيِّع في يده سهل التشكيل. وتمتد هذه الخصيصة في كامل مديح ابن خلوف، فهو لا يعتمد كثيرا على التشبيهات، خاصة الصريحة، إلا قليلا مثل التشبيه في قوله من قصيدة " يا كوثر اللين ":

يا كوثر اللين فيك غاب قطراني مثل حباب الرمل في عميق الزخار⁶⁶⁴

إذ يشبه جلاء أحزانه واختفائها كما تغيب حبات الرمل في قعر البحر، ويدعى هذا النوع من التشبيه، تشبيه تمثيل إذ " وجه الشبه فيه صورة منتزعة من متعدد. "665

ووجه الشبه فيه هنا صورة منتزعة من متعدد وهو اختفاء شيء صغير هو حبات الرمل في شيء عميق هو البحر.
ومنه أيضا قوله:

اتواتيه امداحي كيف واتى الليل طلعة البدر العالي⁶⁶⁶

⁶⁶⁴- بخوشة، الديوان، ص 97.
⁶⁶⁵- الجارم، على و مصطفى أمين، البلاغة الواضحة مع دليلها، ديوان المطبوعات الجامعية، وهران، ص 35.
⁶⁶⁶- بخوشة، الديوان، قصيدة " الرشيد مصباحي "، ص 90.

وفي هذا التشبيه لتوشية مديح ابن خلوف لمقام النبي صلى الله عليه وسلم
بتوشية القمر لليل، فالقمر ينير الليل ويبدد ظلامه، ومديح الشاعر ينير قلوب
الذاكرين بإعلاء مقامه، ويبدد وحشتها أيضا.

ومن التشبيه غير التمثيلي قول الشاعر:

الرشيد مصباحي هو سراج الدهر فضله ذو الجلاي⁶⁶⁷

ولئن قلّت التشبيهات الصريحة، فإن ابن خلوف قد ينحو منحى من البلاغة
يوحى فيه بالتشبيه من غير أن يصرح به في صورة من صورّه المعروفة*، نزوعا
منه إلى الابتكار وإقامة الدليل على الحكم الذي أسنده إلى المشبه، ورغبة في
إخفاء التشبيه، " لأن التشبيه كلما دق وخفي كان أبلغ وأفعل في النفس"⁶⁶⁸ كما
في قوله:

نحتاجوك الهية وهنا يامن بك اللساس مبني

إنه يشبه ضمنا حاجتنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة،
كحاجة البناء للأساس والذي لا يقوم إلا عليه، لكنه لم يجعل ذلك صريحا، بل
جاء بجملة مستقلة " يا من بك اللساس مبني " وضمّنها هذا المعنى في صورة

⁶⁶⁷ نفسه.

* صور التشبيه المعروفة: ما ذكرت فيه الأداة نحو الماء كالفضة أو حذفت والمشبه به خبر نحو الماء
فضة وكان الماء فضة، أو حال نحو سال الماء فضة، أو مصدر مبين النوع مضاف نحو صفا الماء
صفاً الفضة، أو مضاف إلى المشبه نحو سالت فضة الماء، أو مفعول به ثان لفعل من أفعال اليقين
والرجحان نحو علمت الماء فضة أو صفة على التأويل بالمشتق نحو سال ماءً فضةً، أو أضيف المشبه
إلى المشبه به بحيث يكون الثاني بيانا للأول نحو ماء الفضة أي ماء هو الفضة، أو بين المشبه بالمشبه
به نحو جرى ماء من فضة. هامش البلاغة الواضحة، ص 46.

⁶⁶⁸ علي الجارم، مصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 46.

برهان على أن الحكم " اللساس " الذي أسند إلى المشبه " النبي صلى الله عليه وسلم " ممكن.

ومن التشبيه الضمني أيضا والذي يُلمح من التركيب في قوله:

من لا جاب يقول ندي باغي الريح بلا العبادا

يشبه ضمنا الرجل الذي يطلب أجره بلا عمل، كالذي يطلب الجنة، والتي يعبر عنها بالريح، بلا عبادة، هذا التشبيه - لعمرى - أبلغ في النفس وأقوى تأثيرا.

صورة أخرى للتشبيه الضمني تتجلى في البيت:

شعشع نورك فوق خدي جنانار فاتح فوق وردة

الحق أن في البيت تشبيهان ضمنيان:

أحدهما أن نور النبي صلى الله عليه وسلم على خد سيدي لخضر كأنه في حمرة مثل الورد، والثاني أن الوردة اتخذت لها حمرة كحمرة الجنانار، ولون هذا الأخير غاية في الجمال والروعة. ونستطيع أن نضيف إلى هذين التشبيهين تشبيها ضمنا آخر في نفس البيت، ليصبح حشدا للتشبيهات، وهو أن نور النبي صلى الله عليه وسلم، انتشر على خد ابن خلوف كما ترسل الشمس أشعتها، وتدل على ذلك لفظة " شعشع " التي منها الشعاع.

إن هذا الحشد من التشبيهات نادر عند شعراء الملحون، وهو يعكس ذكاء وفتنة ابن خلوف وكذا تجربته الشعرية وسلامة طبعه.

لقد استمد سيدي لخضر، كما نلاحظ، عناصره من الطبيعة، من شمسها، ونباتها، وجمادها، فمما اتخذ مشيها (الشمس، الشعاع، الورد، جنانار، البدر، اللساس، السيراج).

كما قد هدَف من وراء هذا التشبيه إلى التأثير في العواطف، وأن ما يحرك أحاسيسه حب يرى كل شيء يشع بالنور، نور أصله ومنبعه نور المصطفى صلى الله عليه وسلم.

إن التشبيهات التي وردت في شعر ابن خلوف جاءت أساسية في الجمل وليست إضافية، طلبها المعنى الذي لم يتم إلا بها.

ب - الاستعارة:

الاستعارة لون من ألوان التصوير وهي " أقوى أثرا من التشبيه ⁶⁶⁹ من حيث تمكنها من المجاز اللغوي، لأنها " وإن كانت قائمة على التشبيه، إلا أنها تومئ إلى المشابهة، ولا تصرح بها، كما أنها من ناحية الاستعمال والتوظيف، لا نعثر فيها إلا على لفظة واحدة تحمل في طياتها معالم المشبه به والمشبه، أو الوسيلة والغاية ⁶⁷⁰ معا.

وقد عمد إليها ابن خلوف، ولم يعدم أثرها، ذلك أنها أفضل أدوات التعبير عن المعنى الذهني والحالة النفسية، تتعهد الصورة التي رسمها الشاعر فتعطيها ألوانها وظلالها، ثم ما تلبث أن تتبدى للعين فتجعل الأمر المعنوي ملموسا،

⁶⁶⁹ - غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، ص 128.
⁶⁷⁰ - نوارى، سعودي ابو زيد، المرجع السابق ص 122.

وحسبنا أن نقف عند بعض الألفاظ المستعارة الموحية ونتبين سر اختيارها. يقول ابن خلوف:

حبك في سلطان جسدي ما عزك يا عين وحدا

فكلمة " سلطان " لا تقف عند حد استعارة لمعنى السلطة والحكم، بل إنها تصور للخيال بداية هذا التمكّن، ثم اختراق هرم الحكم حتى أعلى قمة هذا الهرم، لتأتي السلطة نتيجة لدأب مستمر ونضال طويل، كما تصور للخيال الصلاحيات التي يتمتع بها السلطان على هذا الجسد.

ثم إن عبارة " عين وحدا " تتعدى إيحائها قاصدة النبي صلى الله عليه وسلم، إلى أنها تحمل معنى قيمة هذه العين التي لا يكسب صاحبها غيرها، وقد ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة"⁶⁷¹ يريد عينيه رواه البخاري.

فقد عبر المولى عز وجل عن العينين بحبيبتى الإنسان، فان كانت واحدة زادت قيمتها فكانت أعزّ وأجلّ في نفس الإنسان، وابن خلوف يكنّ للنبي صلى الله عليه وسلم حباً كالذي يكنّه الشخص لعين واحدة لا يملك غيرها، ولنا أن ننظر في هذه الصورة، كما اجتهدنا في تحليلها، ماذا أثارت في النفس من عاطفة الحب والتقدير والإجلال.

وفي مقام آخر يقول الشاعر:

يا محمد أنت الامجد تصرخ بك الناس شتا

⁶⁷¹. النووي، رياض الصالحين، ص 21.

استعار كلمة " تصرخ " ليس فقط للتعبير عن علو الصوت بل للتعبير عن هول الموقف، فالصرخ يكون عادة لطلب النجدة والنجاة من الغرق أو الحريق ونحوه، فاستعارة هذه الكلمة حرّك ما لا يمكن أن تحركه كلمة "تنادي" مثلا، فلفظة "تصرخ" جاءت مؤتلفة مع معناها فأدت وظيفتها.

وقريب من ذلك ما أثارتها كلمة " ينكبّوا " في البيت:

ينكبوا في النار تقدي ما اشينها حرة شديدا

هذه الاستعارة جلبت معنى الدلّة، فالكفّار " ينكبوا " في النار كأبي سائل مشتعل يزيد النار اتقادا ولهيبا، ثم إن السائل ينتشر، وفي هذا الانتشار زيادة في العذاب.

ومن الاستعارات القريبة من النفس والتي تقبلها وتأنس لها قوله في البيت:

إليك الانياق حنّت ما ذي إلهمة عظيما

شبه الشاعر الناقة بالإنسان ثم حذف المشبه به " إنسان " ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الحنان، فالاستعارة المكنية هذه زادت المعنى جمالا.

والاستعارات في شعر ابن خلوف كثيرة ومتنوعة، وهي عنصر، أو سر من أسرار الجمال الفني الذي تتسم به القصيدة الخلوفية.

ومن الاستعارات التمثيلية قول الشاعر:

ياقطعان يدي بيدي ما نفلت حتى بسجدة

يدل الوضع الحقيقي للشطر الأول على أن الشاعر قطع يده بيده، ولكنه لم يستعمله في هذا المعنى، بل استعمله في أنه هو السبب فيما اقترفه من تقصير في حق نفسه، فهذا التركيب مجاز قرينته حالية، وعلاقته المشابهة، والمشبه هنا التقصير، والمشبه به قطع اليد، فهو قد جنى على نفسه بالتقصير مثلما يجني عليها بقطع يده.

لقد استعمل هذا التركيب في غير معناه الحقيقي، فكان المعنى المجازي والمعنى الحقيقي متشابهين ولذا سميت بالاستعارة التمثيلية.

إن بلاغة الاستعارة " من ناحية اللفظ، أنتركيبها يدل على تناسي التشبيه، ويحملك عمدا على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها، ما تضمنه الكلام من تشبيه خفي مستور" ⁶⁷².

لهذا كانت الاستعارة أبلغ من التشبيه، وإن كان التشبيه فيها منسي مجحود. ولما وهب ابن خلوف استعدادا سليما في تعرف وجوه الشبه الدقيقة بين الأشياء، وأودعه الله قدرة على ربط المعاني وتوليد بعضها من بعض إلى حد كبير، جعل من الاستعارة مرتعا فسيحا للإبداع، ومجالا خصبا للابتكار، ومسبحا واسعا للخيال.

ج - الكناية:

لا يقتصر التصوير في أي فن أدبي على التشبيه والاستعارة فحسب، بل إنه يتخذ من الكناية سبيلا آخر، " وكثيرا ما تعجز الحقيقة أن تؤدي المعنى كما أدته

⁶⁷² علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ص 105.

الكناية⁶⁷³، لأنها تتلون بألوان كثيرة، فقد تأتي تلويحاً، أو رمزا، أو إيماء وإشارة، أو تعريضا⁶⁷⁴.

وسبيل التعبير بالكناية " أن ننظر إلى المعنى الذي نقصد أداءه، فلا نعبر عنه باللفظ الدال عليه لغة، بل نقصد إلى لازم المعنى، فنعبر به ونفهم ما نريد"⁶⁷⁵

وقد تقوم الكناية المقام الأول في فنية سيدي لخضر، يحل بها الصورة محل الفكرة، وبدع الأفكار والتجارب والخواطر تشاهد من خلال الواقع الحسي الذي يتكنى به عليها، ويظهر من خلال ذلك التجاوب والتناغم بين أحوال العالم الداخلي ومظاهر العالم الخارجي المتمثل في الطبيعة من حوله.
ومن كناياته في هذه القصيدة:

لولا أنت لا نور جنة يشرق ولا نار تسني

ففي هذا البيت كناية على أن النبي صلى الله عليه وسلم أصل النور ومبعثه، والنور خير كله، فيتحول التصوير إلى أن النبي منبع الخير والحب والعطاء، ومن ذكاء الشاعر أن اختار لهذه الصورة، ورصد لها مفردات تشع بالنورانية والخيرية وحشرها في بيت واحد، فرفعت صورته الحسية بالكناية،

⁶⁷³ بكرى، شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، بيروت 1980، ص 201.
⁶⁷⁴ إذا كثرت الوسائط في الكناية نحو: مكر مفر، مقبل مدبر، سميت تلويحاً، وإن قلّت وخفيت نحو: فلان من المستريحين كناية عن الجهل والبلاهة، سميت رمزا، وإن قلّت الوسائط ووضحت أو لم تكن سميت إيماء وإشارة، نحو: الفضل يسير حيث يسير فلان، كناية عن نسبة الفضل إليه، ومن الكناية نوع يسمى التعريض، وهو أن يطلق الكلام ويشاربه إلى معنى آخر يفهم من السياق، كأن تقول لشخص يضر الناس: "خير الناس أنفعهم للناس"، البلاغة الواضحة، هامش ص 125.
⁶⁷⁵ دخيسي، رحمنة، شعر ابن شريف بلوفة الشعبي، دراسة تحليلية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2006/2005، ص 82.

الموصوف، الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم، أعلى الدرجات وهو أحق بها وأهلها.

ومن ورعه وتقواه وثباته على الدين أنه كنى عن قهره للشيطان وردّ وساوسه وكيده بالضرب واللطم، فباء مكره بأن خسى وارتد خائبا، ذلك في البيتين:

وبخته بقضيب عندي والطمته لطمه شديدا

اقبضت الشيطان بيدي واعطيته ميتين جلدا

والضرب هنا أشد أنواع العقاب لأن فيه إلحاق الضرر المادي والمعنوي، فالمادي هو الألم جراء الكدمات والجروح وما إلى ذلك، والضرر المعنوي هو أن المعني بالضرب لم تتفع معه الوسائل المقدمة عن الضرب من وعظ أو تذكير، فيثير ذلك في نفسه ألما معنويا بأنه سفيه ضعيف العقل لا تكفي معه الوسائل المستعملة مع أولي العقل والفهم، كما ورد في القرآن الكريم في تأديب المرأة: « وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ »⁶⁷⁶، فقد ترك الله سبحانه الضرب كآخر وسيلة للتأديب، فالكناية في البيتين معناها القريب هو القبض والضرب المعروفين، ولكنه معنى غير مراد، إنما المقصود من ورائه ما يشير إليه ذلك البخت واللطم، وهو رد إبليس على عقبيه خاسرا أمام صلاح ابن خلوف وتقواه.

ومن روعة استعمال الكناية قوله في هذا البيت:

نفرع من نقصان جهدي سيأتي تموا زيادا

وإذا نثرنا هذا البيت نستبين كيف تسللت الكناية إلى ثناياه، فأضفت صفة

الإبداع ونفثت نفثة السحر.

⁶⁷⁶ سورة النساء، بعض الآية 34.

" إني لينتابني الفزع وأنا أشلاء همة في ثياب، يطويني العجز، ويخترمني الهرم، فلا يقوى جسدي النحيف، وبصري الضعيف، على الذكر والعمل الصالح، وقد اجترحت من السيئات والأوزار ما يُثقل الكاهل ويذهل العاقل "، إذن كنى بكون " نقصان جهدي " عن هرمه و عجزه ويكون " تموا زيادا " عن كثرة السيئات والأوزار.

وفي كناية عن تقصيره في حق نفسه يقول:

ما قدمت إلا ذنوبي هب لي يا مولاي توبيا

وصفة الإعلان بالتقصير يشترك فيها أهل الصلاح، فكأنّي بهم يستقلون ما قدموا من أعمال وعبادات، حتى لا يعتربهم العُجب والغرور فيقعون في شرك الشيطان وينساقون إلى أهوائهم.

وقد زاد هذه الكناية قوة النفي " بما " والإثبات والحصر " بالإلا "، فهو ينفى أعماله الصالحة ويثبت ذنوبه، بل ويحصر أعماله كلها فيما قدم من ذنوب، وإذا كانت الذنوب كثيرة لزم أن تكون الحسنات قليلة، فكأن الشاعر يقول: لم أود واجبي تجاه ربي، بل أكثر من ذلك، فقد جئت بعكس ما طُلب مني، فنحننا بتعبير جديد يفيد صفة التقصير.

والى جانب هذا فالكنايات كثيرة في مديح سيدي لخضر نكتفي بذكر

بعض الأبيات تمثيلا لا حصرا:

دار الغرور واش لي بحطامها نجعل ذكر الحبيب فيها زادي⁶⁷⁷

كأنه ما حضر له شباب خافض الطرف شوف نظره وأحواله⁶⁷⁸

واسع الصدر المفخم ما يبخل صيلة⁶⁷⁹

إذا مدحت جد الشرفا يتخلخل الشهد في لساني⁶⁸⁰

وقد أبدى ابن خلوف في هذه الكنايات قدرة الشاعر الحاذق على التصوير المصيب للمعنى.

2-2- مصادر الصورة الشعرية في مديح ابن خلوف:

يلتقي الزمان والمكان في التكوين الثقافي لابن خلوف حيث انعكست النصوص الدينية على ثقافته، هذه النصوص هي القرآن الكريم الذي حفظه في سن مبكرة، والحديث الشريف، وما يتعلق بهما من سيرة وعقيدة وفقه، إلى جانب اللغة العربية وقواعدها. وكان الفلك الذي يدور فيه هذا الزخم الثقافي هو التصوف بأشكاله.

فكان لزاماً أن يلقي هذا التفاعل سدوله على القصيدة المدحية الخلوفية، والمتفيء لظلال أشعار ابن خلوف يلمس النص والعبارة القرآنية، ويلمح روح الحديث النبوي ولغته.

⁶⁷⁷ بخوشة محمد، الديوان، قصيدة " دقة الحب "، ص106.

⁶⁷⁸ نفسه، قصيدة " الا وجه الحبيب غاب "، ص107.

⁶⁷⁹ نفسه، قصيدة " بسم الله ابديت نزم "، ص128.

⁶⁸⁰ نفسه، قصيدة " الموت لاغنى تدركني "، ص142.

ولعل الشاعر الشعبي عموماً، وهو السليم الفطرة، الصافي المشرب، ينسجم بداهة مع النص الديني الذي فيه من فطرة الله التي فطر الناس عليها. يقول العربي دحو في هذا الشأن: " فالنص الديني لا يخفى عند الشعراء الشعبيين، فهو يسري في عروقهم في مختلف مراحل حياتهم وفي أحلك أيامهم. "681

ولا حرج أن نقف عند بعض الظواهر الأسلوبية التي تسند زعمنا بأن الصورة الخلفية للصورة الشعرية عند ابن خلوف كانت النص القرآني ونص الحديث، ومن هذه الظواهر الاقتباس والتضمين والتناص.

أ- الاقتباس:

أدى شغف ابن خلوف بالقرآن الكريم إلى حد وَّلَعِهِ بالاقْتِباسات من نصوصه، وما يقال عن القرآن الكريم يقال عن الحديث الشريف، إذ نجد ألفاظ القرآن والحديث لا تكاد تبرح بيتاً، ومن الأمثلة في قصيدتنا وغيرها من القصائد ما سنورده.

يقول سيدي الأخضر:

أعوذ بالله نقراً نختم بالقرآن فاه

هذا المعنى مقتبس من قوله تعالى:

⁶⁸¹ دحو العربي، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى، ص220.

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »⁶⁸²، أما الشطر الثاني

فمقتبس من قوله سبحانه: « الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ »⁶⁸³

وفي البيتين:

يا سيد رقية تادي بين يدين الله سجدا

وملايك ربي تنادي ارفع رأسك يا حمدا

انعكاس لصورة حديث الشفاعة، وهو حديث طويل نجتزئ منه ما يعيننا في

هذا المقام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فيأتوني فأستأذن على ربي

فيؤذن لي. فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا. فيدعني ما شاء الله. فيقال يا محمد! ارفع

رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع...»⁶⁸⁴.

ومن الاقتباسات قول الشاعر:

ينكبوا في النار تقدي ما اشينها حرة شديدة

اقتبس هذه الصورة من القرآن الكريم من الآية:

« وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »⁶⁸⁵.

وقول الشاعر:

الكافر في النار يخلد والعاصي يرجاك حتا

⁶⁸²- سورة النحل، الآية 98.

⁶⁸³- سورة يس، بعض الآية 65.

⁶⁸⁴- ينظر الحديث كاملا في صحيح مسلم، ج2، ص112.

⁶⁸⁵- سورة النمل، الآية 90.

مقتبس من قوله تعالى: «أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»⁶⁸⁶، وغير هذه الآية في نفس المعنى كثير.

ومن الأمثلة في غير هذه القصيدة قوله:

الجنة دار كل عبد فقير حقير ماله في الفانية دوام يرحل منها⁶⁸⁷

مقتبس من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها الفقراء"⁶⁸⁸ وأيضا الحديث: "ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره"⁶⁸⁹ والأحاديث كثيرة في هذا الباب.

وعن الصفات الخلقية للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد اقتبسها الشاعر من وصف تلك الأعرابية للنبي، والتي ذكّرتها كتب السير.⁶⁹⁰

يقول ابن خلوف:

اهذب الأشفار	مربوع القد
أفلج الأسنان	زنج الحواجب والارماق
ما تعني في البسط	ناعته والا في الجهد
في الملبس ما طويل	ثوبه نصف الساق ⁶⁹¹

⁶⁸⁶ - سورة البقرة، بعض الآية 257.

⁶⁸⁷ - بخوشة، الديوان، ص 110.

⁶⁸⁸ - صحيح مسلم، ج 2، ص 705.

⁶⁸⁹ - نفسه، ص 763.

⁶⁹⁰ - ينظر الفصل الأول، أثر شخصية النبي صلى الله عليه وسلم في المديح النبوي.

⁶⁹¹ - نفسه، ص 107.

وتتجلى الاقتباسات في باقي القصائد، وهي سمة يتميز بها شعر المدح عند ابن خلوف لتغلغل النص الديني في الفكر الخلوفي.

ب - التضمين:

لقد ضمّن الشاعر قصائده المدحية قصصا وشخصيات تراثية دينية، زادت تأكيدا على طمح الصورة الدينية على شاعرية الولي الصالح.

ونكشف ذلك بلامسة النصوص الشعرية في قوله مثلا:

إليك الانياق حنت ماذي إلهمة عظيمة

هنا ضمّن بيته قصة الناقة التي اشتكت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لحقها من ظلم صاحبها لها، الواردة في الحديث.⁶⁹²

كما نجده في قصائد أخرى يضمّنها قصة النخلة التي جاءت النبي صلى الله عليه وسلم فدعا لها، فاستعادت خضرتها، وعن الماء الذي انهمر من بين أصابعه، فيقول:

ليك جات النخلة المجدبة واحيات من كفك اروات العرب يا رسول رب البيت⁶⁹³

ومما ضمنه في شعره أيضا سفينة سيدنا نوح عليه السلام في البيت:

يا مسلك الغارق مثل سفينة نوح من ركب فيها ناجي⁶⁹⁴

⁶⁹² نص الحديث: " رأى النبي صلى الله عليه وسلم جملا فقال من رب هذا الجمل؟ فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: أفلا تتق الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكا إلي أنك تجيعه وتتعبه " أخرجه احمد.

⁶⁹³ - بخوشة، الديوان، قصيدة " سيد المهاجرين وسيد الانصار "، ص 88.

⁶⁹⁴ - نفسه، قصيدة " الرشيد مصباحي "، ص 91.

ومن التضمين ذكر الملكين الموكلين بالسؤال في القبر، منكر ونكير:

ما يرى بأذن الله نكلات الضريح ثم ناكر ومنكر يا توه ملاطفا⁶⁹⁵

ويضمن في بيت آخر نبي الله موسى عليه السلام مشيرا إلى أنه كليم الله:

أفضل ما يذكر اللسان من المسموع من به تكلم الكليم ابن عمران⁶⁹⁶

كما يحيلنا إلى قصة انشقاق القمر التي ضمّنها البيت:

طلع البدر ودخل في كمّه وتقسم شطرين⁶⁹⁷

وغير هذا كثير في شعر ابن خلوف يبدي الثقافة الدينية الإسلامية.

ج- التناص:

إننا حين تكويننا الثقافي وحين مطالعاتنا نتأثر بنصوص بعينها، حتى إذا ما

ابتلينا بالكتابة أو النظم، استحضرننا تلك النصوص ليتجلى تأثيرها فينا، فتجدنا

نقتبس منها ونضمن نصنا ما فيها، ثم نسمح لأنفسنا، الشغوفة بها، أن ننثقي منها

نصوصا تكون رديفة نصنا. فالتناص إذن " هو التقاء مجموعة من النصوص في

نص واحد."⁶⁹⁸

⁶⁹⁵ - نفسه، قصيدة " بك طابت الاثمار "، ص 102.

⁶⁹⁶ - نفسه، قصيدة " الا وجه الحبيب غاب "، ص 110.

⁶⁹⁷ - نفسه، قصيدة " بسم الله بديت نزم "، ص 127.

⁶⁹⁸ - دواجي، عبد القادر جلول، ص 173.

والتناص يقتضي من الأديب، خاصة الشاعر، أن يمتلك أفقا معرفيا رحبا يشكل نصوصا غائبة، أو خلفية معرفية تكون له المرجعية الثقافية التي تتحرك فيها شاعريته وتسبح فيها معانيه.

وللتناص بعد نفسي، خاصة التناص القرآني، فابن خلوف، وشعراء الملحون عموما، لا تشفي الصورة التي يبتكرونها الحاجة التي في أنفسهم إلا إذا استحضروا النص الذي يعظم في أعينهم، فيأتوا به، فتطمئن قلوبهم بتحقيق الدلالة المرجوة والتي أرادوها، إن هذا، إن شئت، إشباع لحاجة نفسية، كما يقول علماء النفس.

ونعرض من أمثلة ذلك بعض التناصات القرآنية كشواهد لما أشرنا إليه سلفا.

يقول ابن خلوف:

بما في سورة نون عظمه عالي القدرة "وإنك لعلی خلق عظیم"⁶⁹⁹

فالنص من سورة القلم « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ».⁷⁰⁰

ومن التناصات أيضا في قوله:

خمسين ألف سنة في ذيك الحضرة يوما لا ينفع لا بنون ولا مالي⁷⁰¹

⁶⁹⁹ - بخوشة، الديوان، قصيدة " ألف استمثلوا كلامي "، ص 59.

⁷⁰⁰ - سورة القلم، الآية 04.

⁷⁰¹ - بخوشة، المرجع السابق.

فالنص الأول من سورة المعارج قوله تعالى: « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ
كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»⁷⁰²، والنص الثاني من سورة الشعراء في قوله تعالى: «
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ»⁷⁰³

وفي بيت آخر يحمل نفس النص، يقول الشاعر:

ومنها الخروج تارة للحساب يوم لا ينفع مال ولا بنون⁷⁰⁴

وتستهويه السبع المثاني، فينقل آياتها حتى تتداخل مع نصه الشعري كاشفاً
بذلك عن شغفه بالقرآن الكريم، وأن صورته فعلاً منبعثة من مرجعية دينية، فيقول:

"الحمد لله رب العالمين" رحمان في الدنيا وفي الآخرة رحيم

"ملك يوم الدين" وارث الوارثين ما نعبد سواه يمحي جرايمي

"إياك نعبد وإياك نستعين" يا فكاك الحاصلين من بحر ظامي

"اهدنا" يا مهدي للهدى والصواب "صراط المستقيم صراط الذين"

"انعمت عليهم غير المغضوب عليهم" "سوى اليهود والضالين"⁷⁰⁵

إضافة إلى إشارات لفظية في مثل قوله:

خذ العلم يا لبيب وخلي العرة واستنفع مما سمعته من أقوالي⁷⁰⁶

⁷⁰² سورة المعارج، الآية 04.

⁷⁰³ سورة الشعراء، الآية 88.

⁷⁰⁴ بخوشة، الديوان، قصيدة "لولا انت"، ص 65.

⁷⁰⁵ نفسه، ص 72.

⁷⁰⁶ نفسه، قصيدة "الف استمثلوا كلامي"، ص 60.

الإشارة هنا إلى الآية: «الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ»⁷⁰⁷

والإشارة في قوله:

أنا وإياك كلنا نسكن حفرة ما تنفع شيء ولا تضرك احوالي⁷⁰⁸

إلى الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ»⁷⁰⁹

وأیضا في قوله:

صلى الله عليك قدر حروف القاف قاب قوسين كان بالقرب أو

أدنى⁷¹⁰

إشارة إلى الآية: «فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى»⁷¹¹

إن الراصد لمثل هذه الظواهر في شعر ابن خلوف، يتبين أن النص القرآني خصوصا والنص الديني عموما هو المسك الذي يعبق به الشاعر نصوصه، ويستلهم منه، بذكائه وعواطفه ومعاناته أيضا، ما لذ وطاب من صور ومعان، كانت كفيلة - في اعتقادنا - بالرقى بالنص الشعري الخلوفي إلى الخلود، أو على الأقل، كانت أهم أسباب خلود هذه المدائح، وإلا كيف نفسر قطعها كل هذه المسافة الزمنية لتصل إلينا في عافية، ودون شعث سفر.

⁷⁰⁷ سورة الزمر، الآية 18.

⁷⁰⁸ بخوشة، المرجع السابق

⁷⁰⁹ سورة المائدة، بعض الآية 105.

⁷¹⁰ بخوشة، المرجع السابق، ص 62.

⁷¹¹ سورة النجم، الآية 09.

إننا نجوِّز لأنفسنا بعد هذا، أن نقول إن النزعة الدينية قد طغت على النزعة
الأدبية في نصوص ابن خلوف المدحية.

3- المستوى الثالث: الإيقاع الشعري:

إن موسيقى الشعر العربي تقف وراءها طبيعة هذه اللغة الغنية بالإيقاع الذي يجعلها لغة شعرية بطبيعتها، ويمنحها قدرة خارقة على إنتاج العناصر الصوتية، ويشترك في ذلك الشعر مع النثر الجيد الرفيع النسج، القوي السبك.

ولموسيقى الشعر " أهمية عظيمة في التأليف بين الصور الشعرية وتجويدها، وفي تبليغ المعنى، فاللحن الموسيقي الناشئ عن تكرار نسب صوتية محددة بين أجزاء القصيدة يقوم بدور أساسي في تنشيط الصور الشعرية، والتحكم في مسارها النفسي، وملء الفجوات العاطفية الناتجة عن قصور الأداة اللغوية، لهذا يستعين الشاعر بكل ما يمكن أن يوحي به الكلام من ظلال، وأنغام، وألحان تساهم كلها في تبليغ المعنى الشعري، وبذلك يكتمل النمو العضوي للقصيدة، وتستقل بكيانها الحي، وتألّفها المتميز عن كل ما عداها من القصائد.⁷¹²

فالإيقاع على هذا ثلاثة الأثافي التي لا غنى للشعر عنها، وهو الذي يحمل الأذان إلى الاستماع، والنفوس إلى الاستمتاع.

وإذا أجرينا هذا على الشعر العربي عموماً، فمن باب أولى أن يحفل به الشعر الملحون الذي أعد أصلاً للغناء، فكيف يعدم الإيقاع وهو أصل فيه.

⁷¹² حشلاف، عثمان، التراث والتجديد في شعر السياب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 136.

وإذا أخذنا التشكيل الموسيقي لشعر ابن خلوف والشعر الملحون عموماً،
نجدة ليس له إطار موسيقي جاهز كإطار البحور المعروفة⁷¹³، أو غيره⁷¹⁴،
فالشاعر غير قادر على التنبؤ بالتشكيلة الموسيقية التي ستكون عليها
قصيدته، فهو أمام مجال موسيقى مفتوح، تتصرف فيه موهبته الشعرية لتصنع
عددا لا حصر له من الأشكال الموسيقية المتنوعة بتتبع حالاته النفسية ورؤاه
العقلية وثقافته الدينية ومعتقداته الشعبية.

إن كل قصيدة من قصائد الشاعر من ناحية الموسيقى والإيقاع، تعد تجربة
فريدة لما تحتويه من الأصوات والإيقاعات المتوالية حسب نظام خاص يتعذر نقله
إلى قصيدة أخرى، ولكن ذلك لا يحول دون تصور الإيقاع العام في شعر ابن
خلوف الذي يسمه بسمه خاصة، لعلها هي الإيقاع المتميز:

نوزن شعري بحرف وازن بسم الله وبسم المشفع

من ذهبي كل يوم باين في الوسط امعلمه بطابع⁷¹⁵

ومما لا شك فيه أن الشعر الملحون يجمع، في علاقة حميمية، بين الإيقاع
والغناء، فقد يرفع الغناء من مستوى الإيقاع، بحيث من الشعراء من لا يكون لشعره
شأن كبير، فيكمله غيره بفضل الغناء، فيجلي أصواته، ويعطي فواصله ويحرك
أجراسه.

⁷¹³ بحور الخليل بن أحمد.

⁷¹⁴ المحاولات التي قام بها أحمد الطاهر في كتابه la poésie populaire algérienne, rythmes, mettres et forme

⁷¹⁵ بخوشة، الديوان، قصيدة " مقلب القلوب ربي "، ص 136.

ومهما أدلى الدارسون بدلائهم في موسيقى الشعر الملحون، فلن يجدوا فيه من نفع الخليل ما يشفي الغليل، وحسبهم من ذلك أن هذا الشعر يعتمد على السماع وحذق الشاعر وذوقه.

3- 1 شكل القصيدة:

أخذت القصيدة المدحية الخلوفية شكلا واحدا هو الشكل التقليدي العمودي ذي الشطرين، اللهم إلا في قصيدة واحدة هي قصيدة: " قدر ما في بحر الظلام " التي اتخذت لها شكل الموشحات بنمط معين هو دور بسمطين، تشترك فيه قافية الفقرة الأولى والثالثة المختلفة عن قافية الفقرة الثانية والرابعة المشتركتين، ثم لازمة بقافية الفقرة الأولى والثالثة، ثم قفل بسبع فقرات وقافية مختلفة عن قافية الدور في كل مرة، ويتكرر هذا الشكل على مدار القصيدة، ثم ينهي بدور من سبعة أبيات، ولتمام الشرح وبيانه نرسم الشكل التالي:

الفقرة الأولى	أ	الفقرة الثانية	ب
2الفقرة الثالثة	أ	الفقرة الرابعة	ب
لازمة أ			

1-----ج

2-----ج

3-----ج

4-----ج

5-----ج

6-----ج

7-----ج

أمّا شكل القصيدة التي بين أيدينا " أحسن ما يقال عندي " فتتخذ شكل القصيدة العمودية ذات الشطرين، بدأ فيها الشاعر بمطلع يحتوي على أربعة أبيات جاءت الصدور فيها على قافية واحدة والأعجاز على قافية واحدة مختلفة، ثم مقطوعات من ستة أبيات، ثلاثة منها خلاف قافية المطلع وثلاثة موافقة لقافية المطلع، مع الالتزام بتكرار البيت الأخير من المطلع في جميع المقطوعات. وكثيرا ما يلتزم الشاعر بتكرار البيت الأخير، أو تكرار لازمة بين مقاطع القصيدة لإحداث إيقاع موسيقي متميز.

فشكل قصيدة الملحن لا يكاد يخرج عن أشكال ثلاث حسب ركيبي وهي: " الشكل العادي الذي قلد القصيدة المعربة التقليدية، وشكل الموشحات، ثم أخيرا شكل الأزجال. "716

ومهما يكن من أمر، فإن شكل القصيدة عند ابن خلوف، وسائر شعراء الملحن، هو نسج يثري جانب الإيقاع في القصيدة إلى جانب القافية، التي هي

⁷¹⁶ ركيبي، عبد الله، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر 1981، ص496.

ركن أساسي في الشعر إذ تسهم في البنية الإيقاعية للقصيدة، وقد تنوعت في هذه التي بين أيدينا وتعددت حروف الروي فيها شأن كل قصائد سيدي لخضر.

3 . 2 الإيقاع الداخلي:

الإيقاع الداخلي للنص الشعري هو التعبير عن انفعالات وجدانية عميقة تعكس مجال الاهتمام، ومحط النظر عند الشاعر، بطريقة قد يعيها وقد لا يعيها، وفي هذه القصيدة وقفنا على مجالات ثلاث من الإيقاع:

أ . إيقاع الحب والرضى:

ومن أهم خصائص هذا الإيقاع الموسيقي بعث الهدوء في النفس وزرع الطمأنينة والثبات والرضى، ويلاحظ انتصار الشاعر في هذا الإيقاع لمعاني الحب والقبول ويشفعها في أكثر الأحيان بألفاظ : احسن، حبك، ما عزك، سيدي، سلم، ترحم، ارفق، نفخر، وغيرها من الألفاظ والتراكيب التي تصب في هذه المعاني.

ومن خصائص هذا الإيقاع أيضا تكرار البيت الأخير من المطلع:

يا محمد انت سيدي صلى الله عليك لبدا

في نهاية كل مقطع بهدف التأثير الذي ينسحب على جو القصيدة بأكمله، وقد أضفت هذه اللازمة على القصيدة روحا دينية لما تحمله من شحنات عاطفية موحية بالحب والرضى.

فتركيب " يا محمد انت سيدي" وتركيب " صلى الله عليك لبدا "، له هيمنة

على نفس كل مسلم، خاصة اقترانه بقافية الدال، فصدر البيت ينتهي بدال ومد، والقافية تنتهي بروي الدال مع المد، وهذا جرس ترتاح له النفس وتنتشي بموسيقاه الهادئة، وهكذا يتفشى هذا التأثير الموسيقي في هدوء ليشمل القصيدة كلها، كاسترجاع لصدى نغمات سالفة، ثم انبعاث الأمل بورود الجنة في البيت ما قبل الأخير:

يسرع بنا للخلودي الاخضر والأمة السعيدا

ب . إيقاع الحاجة والطلب:

ويصاحب إيقاع الحب والرضى، إيقاع الحاجة والطلب والدعاء:

نحتاجوك لهيه وهنا يا من بك اللساس مبني

اللهم صل وسلم طول الدهر على نبينا

ارفق بروحي وجسدي داوني نبرا من الدا

نرجي الله يدوم فرحي ونزهى بك وليك فارح

في هذه الأبيات ومن خلال حركات المد، التي تمتد معها الأنفاس، نبرة تولد التلهف والشوق والحيرة معا، فكانت فيه ألفاظ: نحتاجوك، اللساس، اللهم، مبني، صل وسلم، طول الدهر، نبرا، يدوم، فرحي، نزهى، فارح، كلها مجتمعة تفيد معنى الدعاء وطلب المدد والاستغاثة، قامت فيها حركات المدود بدور القافية الداخلية لتعضد حركات المد في القافية الخارجية.

والملاحظ في قصيدة الملحون عموماً كثرة المدود، إن على صعيد القافية، وإن على صعيد النبرة الداخلية للنص، ويكون ذلك، عادة، بوعي من الشاعر التماساً منه للغنائية.

ج - إيقاع التردّي والحسرة:

وفيه من النعي والحسرة نتيجة شعور ابن خلوف بالتقصير، ومن خصائص هذا الإيقاع كثرة حروف الأنين والأسف التي ينم جرسها الموسيقي عن الحزن و الأسى، يقول سيدي لخضر:

ما قدمت إلا ذنوبي هب لي يا مولاي توبا
نفرع من نقصان جهدي سيأتي تمو زيادا
يا قطعان يدي بيدي ما نقلت حتى بسجدا
من تدبير ابليس الاعور صهدتنا يا ناس فتنا
نستهزا والموت في اثري ماذا من سيا عليا

إن كثرة هذه الياءات وتوارد ألفاظ مثل: (نفرع، نقصان، سيأتي، زيادا، قطعان، صهدتنا، فتنا، تدبير ابليس الاعور، نستهزا، ماذا "بمعنى كم الخبرية"، ما، الا) تثير إيقاع الحزن والحيرة، أمام مصير مجهول، وتمتد ظلالها على جانب من القصيدة، هو جانب الخوف الذي يصاحبه الجانب الآخر الذي ألفينا في الإيقاع الأول والذي هو جانب الرجاء.

إن الخوف والرجاء يجتمعان في نفس ابن خلوف، الولي الصالح، فنتباين
معهما نبرتان، نبرة الهدوء والتوازن والطمأنينة ونبرة القلق على المصير والخوف
جرّاء التقصير.

3 . 3 الإيقاع الخارجي:

ثبت أن قصيدة الملحون لا تخضع للبحور الخليلية، لكنها لم تعدم الموسيقى الخارجية، إذ نلاحظ أن مادة الإيقاع الخارجي تمثلت في مقطعين صوتيين:

الأول: مادته الإيقاعية متمثلة في: نبدأ، واحدا، شهدا، لبدأ، نبرا، عبرا، نقرا، فنتا، خفنا، لعنا، توبا، عذبا، عجا، وما شاكلها.

الثاني: مادته الإيقاعية متمثلة في: عندي، جسدي، تسدي، سيدي، مسدي، بيدي، ثاني، تسني، مبني، والي، بحالي، تادي، تتادي، وما شاكلها.

وهو النبر الغالب على النص، وكلا المادتين الإيقاعيتين فيها مد، والمد يكسب النص إيقاعا تقبله وتطرب له الأذن، وترتاح له النفس.

أما القافية فقد اتخذت صورا عديدة، وتتوعدت حروف رويها على مدار القصيدة، وقد غلب عليها روي الدال الذي ارتضاه الشاعر لتفجير الموقف الشعوري الذي يعانيه.

إن عدم خضوع النص الشعري الملحون للبحور الخليلية لا يجعله خلو من الموسيقى الخارجية، وإيقاع بعض البحور الأقدر على تناول أكبر قدر من الأفكار، وتصوير أكبر قدر من العواطف، لا ينفي على الشعر الملحون وإيقاعاته من أن يحتوي قدرا كبيرا أيضا من الأفكار والعواطف.

خاتمة:

يتضح من هذه الدراسة، التي حاولنا أن نجمع فيها بين الإيجاز الذي لا يخل، والإسهاب الذي لا يمل، أننا كنا نرمي من خلاله التحقيق غايتين: أولهما التقرب من الموضوعات التي تناولها ابن خلوف في مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم والوقوف عندها، وكيف سعى فيها ليبوئ النبي المكانة التي تليق بمقامه كنبي كريم، وإنسان عظيم يحاكي الكمال.

والأخرى كشف النقاب عن بعض مستويات التعبير في شعره.

ومن ثمار هذه الدراسة ما توصلنا إليه من نتائج:

• لم يُعرف لابن خلوف شعر اللهو أو غيره في مرحلة الشباب كما هي

الحال لكثير من الشعراء.

• ارتبط اسم المديح النبوي في الشعر الملحون بالشاعر الأخضر بن

خلوف.

• انتقال ابن خلوف من موضوع إلى آخر في القصيدة الواحدة بل في البيت

الواحد أحيان كثيرة .

• كثرة المدائح في شعر ابن خلوف تعكس صورة المجتمع الدينية .

• التوسل والتشفع هي أكثر الموضوعات في شعر ابن خلوف، يأتي بعدها

موضوع الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم و الدعوة إليها.

• كل الموضوعات خدمت المديح النبوي، وارتقت بصورة النبي صلى الله

عليه وسلم إلى أسمى الدرجات.

• تعتبر مدائح ابن خلوف بمثابة قرابين للنبي صلى الله عليه وسلم لطلب

الشفاعة.

• تنوع الموضوعات خدم الغرض ودل على التجربة الشعرية الكبيرة

للشاعر .

• كثرة النعوت التي خص بها الشاعر النبي صلى الله عليه وسلم، وابتكار

نعوت جديدة تضاف إلى الموروث.

- تأثيرات الأسلوب القرآني بادية في هذه المدائح، خاصة أسلوب القص.
 - هيمنة النصوص الدينية على ثقافة الشاعر تتجلى من خلال شعره.
 - لغة ابن خلوف لغة شعرية ، وأكثر مفرداتها من القرآن الكريم.
 - تغليب الأسماء في لغة الشاعر .
 - غنى الإيقاع الداخلي للقصيدة المدحية الخلوفية وتنوعه.
- وبعد إيراد أهم نتائج الدراسة، نقول: إنه مهما يعتري هذه الدراسة من خلل ووهن، وذلك شأن الجهد البشري، إلا أننا نحسب أنفسنا قدّمنا دراسة تميّط اللثام عن وجه آخر لتراثنا الشعبي قد بذلنا فيها المستطاع، غير أن مجال البحث ما زال فيه متسع لمن يستطيع.
- بقي أن نتساءل: هل أعطت الدراسات المقدمة للشعر الملحون حقه؟ ثم هل يمكننا فعلا إخضاع النص الشعري الملحون للدراسة؟ وما هي المقاييس أو المعايير التي نقيس بها جودة، أو على الأقل شعرية نصوص الملحون، مع مراعاة خصوصياته؟
- ومع طرح المزيد من الأسئلة، يتبين لنا أن مجال البحث ما زال خصبا في الشعر الملحون، والتراث الشعبي عموما.
- والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

تلمسان في: 20/06/2011

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم: المصحف الشريف، برواية حفص عن نافع.

1 محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، موفم للنشر/دار

الهدى، الجزائر 1992.

2 أبو الحسن علي بن الجعد، مسند ابن الجعد، تحقيق عبد المهدي بن عبد

القادر بن عبد الهادي، مكتبة الفلاح ، ط1، الكويت 1985.

3 محمود بن الجميل، صحيح الأحاديث القدسية وشرحها، مكتبة الصفا،

القاهرة 2004 .

4 أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، عالم

الكتب، بيروت 2006.

5 عبد القادر بن دعماش، المهم في ديوان الشعر الملحون، موفم للنشر،

الجزائر 2008 .

6 الطاهر أحمد الزاوي، مختار القاموس، الدار العربية للكتاب، ليبيا 1983.

7 جار الله الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق عبد الرحيم محمود، دار

المعرفة، بيروت.

8 مجد الدين يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار العلم للملايين،

بيروت.

9 إسماعيل بن كثير، تفسير ابن كثير، دار الثقافة، ط1، الجزائر 1990.

10 مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الشروق،

القاهرة 1981.

11 أبو الحسن بن الحجاج مسلم، صحيح مسلم، مكتبة الصفا، ط1،

القاهرة 2004.

12 أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، دار الفكر، ط1، بيروت 2008.

- 13 - مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة 1981.
- 14 - شمس الدين بن الحسن النواجي، مقدمة في صناعة النظم و النثر، تحقيق محمد بن عبد الكريم، مكتبة الحياة، بيروت.
- 15 - يحيى بن شرف النووي، رياض الصالحين، دار ابن حزم، ط1، بيروت 2002.
- 16 - ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، دار القلم، بيروت.
- 17 - أبو القاسم الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق عمر الطباع، دار الأرقم، ط1، بيروت 1999.
- المراجع**
- 18 - آفاق، جمعية آفاق، سيدي لخضر بن خلوف، حياته وقصائده، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران 2006.
- 19 - عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت 1990.
- 20 - شيخ أمين بكري، التعبير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، ط4، بيروت 1980.
- 21 - ابن الشيخ التلي، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة، 1830-1945، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983.
- 22 - علي الجارم ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- 23 - إيليا حاوي، الأخطل، دار الثقافة، بيروت 1981.
- 24 - عثمان حشلاف، التراث والتجديد في شعر السياب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986.
- 25 - السعيد حوى، الرسول صلى الله عليه وسلم، الشهاب، الجزائر 1990.

- 26 - بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- 27 - العربي دحو، الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية الكبرى بمنطقة الأوراس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988.
- 28 - محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار اليمامة، دمشق/دار ابن كثير، ط3، بيروت 2003.
- 29 - عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- 30 - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1981.
- 31 - ناصر الدين سعيدوني والشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.
- 32 - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1830/1514م، دار هومه، ط2، الجزائر 2007.
- 33 - بدر الدين محمد الغزي، الزبدة في شرح البردة، تحقيق عمر موسى باشا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1972.
- 34 - صالح فركوس، تاريخ الجزائر، ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، دار العلوم، الجزائر 2005.
- 35 - زكي مبارك، المدائح النبوية عند العرب، دار الكتاب العربي، القاهرة 1967.
- 36 - صفي الرحمن المباركفوري، وإنك لعلی خلق عظیم، شركة كندة للإعلام والنشر، جدة 2006.
- 37 - أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر 1984.

38 - عبد الملك مرتاض:

- الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومه، الجزائر 2009.
- العامية الجزائرية وصلتها بالفصحى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.

39 - محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979.

40 - إحسان النص، حسان بن ثابت، حياته وشعره، دار الفكر، ط3، دمشق 1985.

41 - سعودي أبو زيد نواري، الدليل النظري في علم الدلالة، دار الهدى، الجزائر 2007.

42 - يحيى بن شرف النووي، كتاب الأذكار، مؤسسة الرسالة، ط1، د.ب. 2006.

43 - أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، مؤسسة المعارف، بيروت 2004.

44 - محمد بن علي الهرفي، مدائح الرسول ومراثيه في عصره، مؤسسة المختار للنشر، ط2، القاهرة 2005.

45 - غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت 1982.

دواوين الشعر:

46 - ديوان سيدي لخضر بن حلوف، جمع محمد بخوشة، نشر ابن خلدون، تلمسان، 2001.

47 - ديوان كعب بن زهير، أبو سعيد السكري، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965.

المذكرات الجامعية

1. عيسى أخضري، المديح النبوي في الشعر الشعبي، شعراء قصر الشلالة نموذجاً، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان، 2004/2003.
2. رحمونة دخيسي، شعر ابن شريف بلوفة الشعبي، دراسة تحليلية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الثقافة الشعبية، جامعة تلمسان، 2006/2005
3. جلول عبد القادر دواجي، الخطاب الشعري عند سيدي لخضر بن خلوف، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان، 2003/2002.
4. آمال ابن صافي، المديح النبوي في شعر أحمد بن تريكي، دراسة تحليلية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب الشعبي، جامعة تلمسان، 2008/2007.

فهرس الآيات القرآنية

« قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ

لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » الإسراء الآية: 88- ص02

« فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِكُمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ الأنبياء الآية: » 05 - ص 03

« وَيَقُولُونَ أَأَنْتَا لَتَأْتِكُنَا آهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ، بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ المرسلين »

الصفات الآية: 36-37 - ص 03.

« إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ البَرُّ الرَّحِيمُ، فَذَكَرْنَا فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ، أَمْ

يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَبُّبِ الْمُنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المرْتَبِصِينَ »

الطور الآية: 29-31 - ص03

« إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ »

الحاقة الآية 40-41- ص 03

« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، إِلَّا

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ »

الشعراء الآية: 224-227 - ص 03، 04

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » القلم الآية: 04 - ص 12، 201.

« أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ »

يونس الآية: 62-63

« فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » محمد الآية: 19- ص 76

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » الضحى الآية: 11- ص 79

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا »

الأحزاب الآية: 56- ص 82

« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » القلم الآية 04 - 92، 120 .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ

والتَّقْوَىٰ » المجادلة بعض الآية 09- ص 107

« قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنِ أَجَّأْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » الأنعام: الآية 63 - ص108

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »

المائدة الآية: 35- ص 113

« مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ » البقرة الآية: 255 - ص113.

« فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا » الأعراف الآية: 53- ص113

« وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى الْأَنْبِيَاءُ بَعْضُ » الآية: 28- ص 113.

« ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى » النجم الآية: 08,09- ص 116،203

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ الرَّحْمَنِ » الآية: 26 و27- ص145

« فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ " الشورى » بعض الآية: 07- ص 146.

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » الأعراف بعض الآية: 180- ص 156.

« ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ » الحج الآية: 32- ص163.

« وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيْنِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ » هود الآية: 120- ص 164

« قَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى » يوسف الآية: 111- ص164

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » الحجرات الآية: 02- ص184

« وَاللَّائِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ »

النساء بعض الآية: 34 - ص195

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » النحل الآية: 98 - ص198

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ » ياسين بعض الآية 65- ص 198

« وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » النمل الآية: 90-

ص198

« أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » البقرة بعض الآية 257- ص 198

« تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ » المعارج الآية 04- ص202

« يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ » الشعراء الآية: 88- ص202

« الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ »

الزمر الآية: 18- ص203

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ » المائدة بعض الآية:

105 - ص 203

فهرس الأحاديث النبوية

- " وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم. " ص 05
- " يا أبا هريرة، نشدتك الله، هل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يا حسان، أجب عن رسول الله، اللهم أيده بروح القدس. " ص 05
- " اهجم أو قال هاجهم وجبريل معك " ص 05
- " خذوا الشيطان أو امسكوا الشيطان، لأن يمتلئ جوف رجل قيحا، خير له من أن يمتلئ شعرا " ص 05
- " ما من أحد يسلم علي إلا رد الله عليّ روحي حتى أردد عليه السلام " ص 08
- " فو الذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده. " ص 09
- "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ص 10
- "كان خلقه القرآن" ص 10
- "ما بال أقوام يصنعون كذا". ص 11
- "أجود ما يكون في شهر رمضان"، ص 11
- " من رأني في المنام فسيراني في اليقظة، لا يتمثل الشيطان بي. " ص 64
- " أكثروا ذكر هادم اللذات " ص 66
- " من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء. " ص 78
- " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين " ص 81

"إنه أتاني جبريل (عليه السلام) آنفا فقال: يا محمد من صلى عليك مرة، أو قال واحدة، كتب الله، عزوجل، له بها عشر حسنات " ص 82

"إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة فأكثروا عليّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ " ص 88

من رأي في المنام فقد رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي " ص 96
"أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا" ص 96

"إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما". ص 99

"ولكن اتتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فيأتوني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تُشَفِّع. " ص 114، 198

" أنا عند ظن عبدي بي " ص 147

"الدعاء هو العبادة " ص 152

"إنه ليغانّ على قلبي، واني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة " ص 153

" إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة" ص 191

: "قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها الفقراء" ص 199

"ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره " ص 199

أ	ب
أبو الحسن المريني، 28.	ابن الشاهد، 47.
أبو الحكم، 18.	ابن الفارض، 23.
أبو القاسم سعد الله، 48، 45.	ابن جابر، 23.
أبو بكر الصديق، 104، 103.	ابن جني، 179، 174.
أبو زكريا يحيى بن أبي عمران المغيلي، 46.	ابن حجة الحموي، 23.
أبو سفيان بن حارث بن عبد المطلب، 17.	ابن حمادوش، 47.
أبو طالب، 18.	ابن خلوف،
	52، 51، 50، 49، 48، 43، 32، 31، 28، 26، 25، 10، 9
أبو عبد الله المغوفل، 48.	67، 66، 65، 64، 63، 62، 61، 60، 59، 58، 57، 55، 53
أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي المازوني،	82، 81، 80، 78، 77، 76، 75، 74، 72، 71، 70، 69، 68
46.	
أبو محمد عبد الله بن عمر البسكري، 47.	101، 100، 99، 98، 97، 96، 93، 90، 88، 87، 86، 84
أبو هريرة، 5.	114، 112، 111، 110، 109، 107، 105، 104، 102
أبوراس الناصر، 48، 46، 45.	124، 123، 122، 121، 120، 119، 118، 117، 116
أبو عزة عمر بن الجمح، 18.	138، 135، 133، 130، 129، 128، 127، 126، 125
الأتراك، 43، 42، 41، 38، 37، 36، 34، 33، 30، 28، 26، 24،	151، 150، 149، 148، 147، 145، 144، 143، 140
44، 45، 46، 54، 71، 74، 170، 182، 185.	
أحمد بن عليوة، 31.	160، 159، 158، 157، 156، 155، 154، 153، 152
أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي، 97.	182، 178، 177، 176، 174، 173، 167، 164، 162
الأسبان، 71، 62، 54، 48، 47، 45.	192، 191، 190، 189، 188، 187، 185، 184، 183
الأعشى، 15، 14.	207، 204، 203، 201، 200، 199، 197، 196، 193
	209.
آل البيت، 39.	ابن سحنون، 47.
أم معبد الخزاعية، 12.	ابن عربي، 24.
أمية بن أبي الصلت، 5.	ابن عروس، 48.
أنس بن زنيم، 16.	ابن عمار، 47.
أنس بن مالك، 13.	ابن مساييب، 25.
ابن نباتة المصري، 23.	

ابن هاشم،14.

البراء،5.

البربر،30.

بلقاسم بعسرية،57.

بنو حفص،42.

بني زيان،28،42،45.

بني مرين،28.

البوصيري،22،23.

بومدين شعيب،64.

ج

الجاحظ،185.

جبريل عليه السلام،5،100.

جعفر بن أبي طالب،103.

ح

حسان بن ثابت،4،5،19،21.

الحسن البصريين،4.

الحسن و الحسين،103،118،123،136.

حمزة بن عبد المطلب،103.

د

دالكادوت،62.

دعبل الخزاعي،21.

ز

زكي مبارك،14،23.

س- ش

سراقة بن مالك،18.

الشقران،28،49.

الشوشثري،24.

ك

الكميت بن زيد،21.

كعب بن زهير،15،16،21.

ضرار بن الخطاب،17.

طالب بن أبي طالب،18.

ع

عائشة رضي الله عنها،10،19.

العباس بن عبد المطلب،103.

عبد العزيز المغراوي،178.

عبد القادر الجيلاني،119.

عبد القادر بطبجي،178.

عبد القاهر الجرجاني،185.

عبد الله بن الزبير،17.

عبد الله بن رواحة،4،19،21.

عبد الله ركيبي،24.

عثمان بن عفان،103،136.

العرب،24،30.

العربي دحو،197.

عروج وخير الدين بربروس،32،61،72.

علي بن أبي

طالب،13،49،50،101،102،103،136،165.

علي بن الحسين،21.

عمر بن الخطاب،103.

ف- ق

فاطمة رضي الله عنها،21،103،118،123.

الفرزدق،21.

الفيروزآبادي،107.

قدامة بن جعفر،185.

قريش،2،18.

محمد بن محمد العطار الجزائري،48.

محمد لكحل،51.

محمد مصايف،186.

الموحدون،42.	كعب بن مالك،4،19،21.
المنداسي،25،47.	ل
مصطفى بوشلاغم،28،33.	لاباسي،31.
مغراوة،30،49،50،53،54،71.	لويس رين،40.
المقري،47.	م
مرحبا الخيبري،102.	المانجلاتي،47.
محمد صلى الله عليه وسلم،	108،111،114،115،118،119،120،124،128،143،
14،16،17،18،84،87،89،91،92،94،100،101،	144،
103،106،	
ن - ه - ي	161،162،163،169،170،171،172،173،178،181،
	191،
النضر بن الحارث،2.	208،198.
الهلاليون،24،25،30.	محمد بخوشة،53،69،70.
اليهود،38،40،44،100،119،148،173،182.	محمد بن شاعة،58.
يوسف بن تاشفين،28.	محمد الحبيب حشلاف،70.
	محمد الكبير،الباي،45،46.

فهرس الأماكن والمواقع

أ	ط - ظ
أرزيو، 40، 39.	طيبة، 47.
إشبيلية، 23.	الظهرة، 51.
الأندلس، 45، 44، 40، 30، 23.	ع - غ
ب	عناية، 39، 38، 35، 34.
البحر الأبيض المتوسط، 42، 31، 29.	غرناطة، 62.
بدر، 18.	ق
برج الأمحال، 28.	قالمة، 35.
بسكرة، 38.	قرطبة، 23.
البطحاء، 21.	قسنطينة، 42، 38، 37، 36، 35، 33.
البليدة، 61، 39، 38، 34.	قلعة بني راشد، 39، 38، 35، 34.
بجاية، 42، 40.	القليعة، 38، 34.
ت	م
تازقايت، بلدية، 31.	مازونة، 57، 45، 44، 38، 35، 33، 29.
تلمسان، 45، 44، 42، 39، 38، 37، 36، 35، 34، 33، 29.	المدية، 43، 38، 33.
تنس، 45، 40، 39، 34.	المدينة المنورة، 121، 108، 104.
تونس، 48، 37.	المرجى، 61.
ج - د	مزهران، 71، 62، 61، 60، 54، 48.
الجزائر، 43، 42، 38، 37، 36، 35، 33، 32، 28، 25، 24، 23.	مستغانم، 43، 39، 38، 36، 34، 33، 31، 30، 29، 28.
حجاج، بلدية، 31.	44، 46، 53، 57، 61، 62، 72، 175.
الحضنة، 35.	معسكر، 46، 45، 44، 38، 35، 33، 29.
دلّس، 40، 39، 34.	المغرب الأقصى، 45.
س - ش	مكة المكرمة، 110، 107، 105، 104.
سطيف، 35.	مليانة، 38.
السودان، 42.	ن - هـ - و
سيدي علي، بلدية، 31، 55.	ندرومة، 46، 45، 44.
سيدي لخضر، بلدية، 31.	وادي الزناتي، 35.
شرشال، 71، 61، 40، 39، 34.	وادي رهيو، 61.
الشلف، 61.	وهران، 45، 34، 33، 29.

الأشعار باللغة
العربية الرسمية

ء

الفداء 20

السماء 17

تشاء 21

سما 22

سنا 22

الوفاء 20

النساء 21

لجاء 17

ب

الترابا 18

صريا 18

د

يشهد 19

المسهدا 14

المهند 19

أهتدي 17

غدا 14

محمد 14

محمد 16، 17

ندى 14

حميد 18

تعبد 19

أنجدا 14

شهيد 18

نحمد 19

مهتدا 14

ل

واسل 112

مسلول 15

مكبول 15

الفواضل 19

بغاقل 18

المحاقل 18

التهازل 18

باطل 19

مكحول 15

م

إضم 22

بدم 22

مرحوم 17

العلم 21، 23

ختموا 21

الحرم 21

مختوم 17

هـ

ثراها 47

حلاها 47

تغشاها 47

ريهاها 47

ريهاها 47

ذكراها 47

قوائمه 18

يقاومه 18

فهرس قوافي الشعر الملحون

ب

تأيب 79، 127

توبا 60، 155، 149، 209، 195

نتوب 141

جداب 87، 125

الغراب 125، 138

غريب 81

حساب 124

كتاب 123، 125، 143

الكتيب 143

كتابه 145

العذاب 75، 120، 155

الجواب 139

حجاب 120، 124

حجابي 163

الثياب 67، 139

عجبا 156

العجيب 143

غاب 60، 125، 154

غابوا 145

شباب 132

طالب 60

نكذب 80

الارباب 145

عروب 142

العربي 86

ارتياب 66، 138

الثواب 127
اصحابه 145
راهب 159
غلبا 97
محسوب 52، 53
الانطراب 139
الاحتقاب 163
نحبو 81
الكراب 123
الموهب 124
صواب 142، 150، 155
أحاب 143
الحبيب 143
باب 76
الرقاب 87، 155
ذنبى 150
للتراب 67، 127، 139
حبه 160
العقاب 81، 152
للغروب 141
الزغبي 150
ربى 92، 150
الذهب 125
ذهاب 111
صبي 92
مجلوب 52

الضباب 120

الكلاب 145، 131 ، 125، 150

طيب 127، 124 ، 79

يثوب 124

خراب 142

اغضاب 139

عنب 124

ت - ث

الصلوات 93

الثبات 77

أنتا 111

رويت 100

هيئات 116

حتا 198، 119

ياتي 84

البتا 92

الهزرات 143

السادات 103

اسودت 148

البيت 200 ، 100

شاتي 84

شتا 191

الممات 77

السبوتي 84

تلطات 116

امانات 116

الستا 91، 92،

شمتا 119

خبانة 163

ج-ح-خ

النساج 121

الحاج 121

ازناجه 158

التاج 121

ناجي 200

الروح 67

الملاح 94

للصباح 84

فارح 208

الكلاخي 150

التراخي 150

أخي 150

د

للعباد 94 ، 128

جلدا 194

محمد 103 ، 118 ، 128 ، 119 ، 161

محمد 118 ، 120 ، 153

محمود 94

احمدا 115 ، 198

يفدا 106

البردة 105 البردة 157

بروده 79 ، 127

السعادة 107
أحد 77
وحدا 59، 191
شهد 100
تشهد 118 ، 153
شهيد 62
الاشهاد 156
الشهادة 107
الخد 89
اخذ 116
الاثمادي 119
عنده 127
الصمد 77 ، 120
البلاد 158
زادي 196
الدا 108 ، 208
اليزيد 166
وقادي 58 ، 119
اقتدى 87
العبد 154
غادي 131
دودا 187
البغدادي 149 ، 106 ، 118
العرادا 160
يوكد 127
الوكيد 93

الأجواد 124
اولاده 136
الأولاد 106
الأولادي 139
مفقودة 139
رقاد 105
المرمادي 128
تتهادي 161
الهادي 161
وردة 189
توجد 86
المهمودا 106
العباد 152
العبادا 189
زيادا 195، 209
غدا ، 59 ، 130
تريد 166
الموعودة 166
الخدود 102
دا ودا 160
الحصاد 158
أكباده 136
كبادي 161
الاسعد 116
الالحد 160
ابدا 95

الحادي60
وحدة 105، 157
بلادي133
ارتاد105
وجوده79
الواحد89
رمادا 160
افساده 136
الفساد 152
تكماذي 161
غادي 139
اللحود 103
الميعاد71، 128، 156
للوعاد 158
سجدا 115، 192، 198، 209
لبدا207
وجواد71
ينادي 138
السعيدا208
شديدا198، 192، 148، 114
الشدا95
الميعاد 128
سودا 148
مسدودة139
فريد166
عنده79

الهادي 103، 118:

ر

الصرصار 56

نشكر 80

الأخبار 123

الأوزار 117

أشهور 54

القهار 51

الطاهر 127

الظهرة 51

المختار 104، 85، 121، 119، 122، 148،

الأنصار 109، 123،

بكرا 130

المبرور 54

المدبر 80

المقتديره 59

عمره 112

نذكر 80

يسارا 135

جابر 154

الآخرا 144

الأخبار 86

بشرا 91

بالعشرة 51

العشرا 104، 155، 178،

عشاري 112

غير 148
الوقر 178
باري 112 ، 146
تكسر 152
الاسرار 110
المره 102
مظفور 66
الجهر 178
الكفار 50،123
الأسوار 123
البشير 56
قدره 112
شهور 53، 66
دينار 85
شاري 159
نهار 56
الاضرار 86
النصر 93، 178
البشر 178
الغير 164
لغيره 59
الصحرا 86
الزهرا 123
جرا 86، 91
حرا 86
أكبر 178

كبير 164
المستجيره 59
بالنار 109
الناري 146
غارا 106
سورة 162
اقرا 99، 111، 163
حضرة 51، 111، 178
ورا 111
الاخري 139
زيارة 106
خاسرة 151
ياسرا 151
جار 117
الجار 117
مرا 130
لسرور 131
الخير 56، 87
المبرور 69، 70
كثير 164
الواري 159
معمر 154
القصور 133، 144
الأقدار 51
الدار 117
داري 146

الغرور 133 ، 144
وانهاري 126
الأحرار 109
الزخار 109، 187
تُرّا 155
يعثر 152
تذكر 150
س - ش
السنداس 148
راسي 108
ناسي 108
الناس 137
يس 140
نحاس 148
شي 132
ص - ض
عاصي 108
المعاصي 87
رصاص 148
رُضا 134
الرضا 110، 147
فايضة 110
مغمضة 91، 111
فضا 142
قضا 131
المعرضا 134

يتقاضى 138

ط-ظ

يعطي 96

خاطي 96، 59

طا و ظا 110

تتعطي 138

تاظا 142

خافضة 111

ع

الشفاعة 56، 125، 114، 159

الشفيع 93، 82

المشفع 205، 124

تشفع 88

سميع 83، 82

بطابع 205، 124

الرضاعة 56

نضيع 124

تلمع 88

تمنع 88

الرفيع 76، 82، 93

المطيع 121

الربيع 83

يبيع 83

مجتمعة 119

للطاعة 125

جماعة 125

طباعة 100

اصبغة 100

دعاء 119

ولاعة 56

ف

الشوف 66

بالألوف 60، 63

صحوف 57

خوف 57، 67

الأعراف 120

بالخوف 60، 63

تكلاف 120

ملاطفا 200

الصوف 55

ق

الباقي 125 ، 161

الطريق 156

رماقي 97

الارماق 199، 91

الخالق 91

الاعروق 125

سوقي 125

الساق 91 ، 199

ترياق 97 ، 161

ك

مكة 122

بيك 109 ، 117

لبيك 109

معماك 137

تزكى 122

نراعيك 98

جاك 137

يرجاك 141

يجازيك 98

سلاك 137

هلاك 137 ، 143

تلكا 122

بالك 151

إليك 108

ل

الفضيل 128

عالي 94 ، 103 ، 188

علي 49

مسألة 50 ، 111 ، 140

يسؤل 127

سالوا 135

يسالوا 136

سوالي 106

القول 84

سهلا 97

جملا 78 ، 97

القبول 85

الشعيل 134
كلمة 50، 55
كلا 154
علة 166
الأصال 85
الرسول 85، 72، 110
المرسول 117
ارساله 135
الارسال 85، 116
الطويل 134
للرحيل 134
واعطى له 49، 136
زلة 132
جيل 72، 61، 134
مكياله 164
الأعلى 94
جلاله 92
خياله 161
تضوي لي 90
الرجالي 144
الجلالي 188
تغفرها له 153
الغالي 86
شباله 133
احوالي 203
الأصيل 72، 61

النجلة 91
قبله 55
فضلي 157
غسلا 97
الطفلة 166
رجيل 134
الاكل 126
أقوالي 202
احمالي 88
مالي 202
يميل 61، 72
يسغى لي 88
مشعاله 161
الكمال 93
المفضل 84 ، 94
مزمل 94
الارسالي 88
المولى 101
صلي 137
أحواله 196
نقوله 75
انجيله 162
علا 90
غلغاله 136
الرجلة 132
بحالي 60، 114، 149

حاله 133، 137، 156، 164

للحالة 111

زلالي 92

محلل 94

ماله 137

يهوؤه 76

الحملة 137

الحملا 132

الخليل 122

اطلاي 96

تالي 144

يلالوا 148

يتالوا 90، 136

زلة 153

حيلة 137

ليلة 137

له 147

جماله 148

صيلة 92، 196

تصيل 134

الحفيل 122

تقيل 122

المرسالي 86

عليل 128

عليلة 109

هوطة 111

والي 114

مقبول 110، 117

الهول 110

منزله 76

تصح له 76

الموالي 114

الانكال 115

م

العظيمة 99، 199، 109

العظيم 156 ، 201

عظامي 81

السلام 85

بوخاتم 119

ودما 80

بالغمامة 89

سهام 85

المزدحيم 155

الإسلامي 81

العلماء 79 ، 124

يعلم 120

همتكم 118

الظلام 134

طامي 202

ثما 63

الرسوم 72

رحيم 202

القاسم	129
النعيم	157
حليمة	109
غنموا	136
رخامة	159
هايم	119
الكريم	156
الدايم	118
من اما	81
التيسامة	95
كالما	80
يوم 84 ، 117	
الفهامة	124
العلوم	72
الظلامه	140
عدم	76
عادم	130
القدم	76
ندم	75
المنعمه	77
تسمى	77
لجام	134
المختوم	117
يعوم 62 ، 72	
الروم 62 ، 72	
القيامه 114 ، 124	

الجحيم	155
معلوم	87
متلايمة	126
همه	136
عبيدكم	118
معلومة	54،48،62
فطيمة	109
رمامي	110
نحشمكم	118
الأنام	110
في امه	136
جرايمي	202
كرامة	126
القوم	117
المتنعم	79
الوسيمة	106
التامة	141
الهادمة	141
ن	
نبينا	115،208
الزمان	134
الحنين	85
فيينا	115
العاطبين	115
المداني	79، 87، 128
مزگران	54

الثقلين 84 ، 136
عائشيين 82
دهين 90
يرحمنا 123
روائي 88
الوزين 103 ، 140
بارزين 140
عيانه 142
للغبنه 138
الأولين 94
السنة 100 ، 138
السنين 83 ، 85 ، 146
لساني 125 ، 196
الشيطان 144
شيطانه 142
سلطانه 142
علمنا 155
عمران 200
بخيانه 133
ثاني 79 ، 100 ، 154
حين 85
جايزين 140
العدناني 59 ، 125 ، 97 ، 127
مسلمين 67
الضالين 202
الذين 202

المشركين 87
العشران 54
اليدين 140 ، 136، 145
الرحمن 146
ادنى 100، 203
العرنين 90
الفرقان 64، 98 ، 163
الفرقاني 96
شطرين 200، 99
هابطين 140
النورين 136
إنساني 166
عنه 97
عطشاني 166
الياسمن 83
الفاني 143
جيراني 126
علينا 150
تسني 194
عيني 125
العينين 90
مكين 147
معينينا 150
راني 64، 96
معين 151 ، 102
اللبن 143

كاينين 82
فتتا 209
الخابين 115
مبني 189، 208
آمنين 142
الأبدان 143
يكفاني 125
سلطاني 88
الحسين 103
ودكان 134
الأمين 103
حايفين 115
بنون 202
اللعين 151
مرسلين 94
الدفين 140
الغفران 154
رباني 154
حينا 146
الحمان 127
يحرمنا 123
هـ
قالها 121
احياها 80
بعدها 135
فاه 197

جاه 153
منها 147،199
عليها 147
انعدھا 150 ، 131
عقوبتها 151
الله 50
مولاهها 55
اعيوبها 135 ، 160
احاط بها 147
كلها 121 ، 128
موالها 59
خلقها 80
رزقها 80
طولها 78 ، 151
هو 118 ، 135،157
احضيها 143
نارها 12
احل لها 150
البتها 93 ، 99 ، 162
زانها 145
احجرها 81
نورها 77
لأهلها 77 ، 150 ، 157،159
بغيرها 78
نقولها 157
عقولها 59

منتها 128
حملها 146، 151
يراها 55
يراه 97
تراه 153
سبولها 160
منها 151
نزولها 75
انهها 143
سواه 153
يومها 88
تقراها 55
ارسالها 93
شدادها 145
عليه 160
بها 143
و
القوة 135
هاوي 162
خاوي 162
الخواوا 135

ي
ليا 141
رقية 105
علي 102 ، 103

عليا 105 ، 149 ، 209

العناية 115

بيا 105 ، 106

منسيا 153

هي 104 ، 151

للدنيا 141

جاية 61

باكية 61

السعدية 104

ميا 106

غازية 61

فهرس الموضوعات

شكر وتقدير

إهداء

مقدمة

- 1 الفصل الأول: المديح النبوي: المفهوم و الرواد
- 2 1. موقف الإسلام من الشعر عامة
- 6 2. مفهوم المديح النبوي ومميزاته
- 9 3. أثر شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم في المديح
- 14 4. رواده ومؤسسه
- 24 5. ظهور المديح النبوي في الجزائر وملابساته
- 27 الفصل الثاني: حياة ابن خلوف من خلال شعره
- 28 1. مستغانم المكان والزمان
- 28 أ. المكان وطبيعته
- 32 ب. الزمان:
- 32 • الحياة السياسية
- 34 • الحياة الاقتصادية
- 37 • الحياة الاجتماعية
- 43 • الحياة الثقافية
- 49 2. الشاعر
- 49 أ. حياته
- 49 • أصله ونسبه
- 52 • مولده و نشأته
- 55 • أسرته
- 57 • تكوينه وثقافته

58	• ملامح من شخصيته
61	• جهاده
63	• الولي الصالح
66	• وفاته ووصياه
68	ب. شعره:
69	• الديوان
70	• أغراض شعره
73	الفصل الثالث: دراسة موضوعات مديح ابن خلوف
75	1. موضوع التوحيد
78	2. موضوع التحميد والتسبيح
81	3. موضوع الصلاة والسلام على النبي و الدعوة إليها
89	4. موضوع مدحه بصفاته الخلقية والخلقية
93	5. موضوع ذكر أسمائه ونعته بكل خير
96	6. موضوع رؤيته للنبي صلى الله عليه وسلم في المنام
98	7. موضوع ذكر معجزاته صلى الله عليه وسلم
101	8. موضوع ذكر أصحابه صلى الله عليه وسلم
104	9. موضوع ذكر مكة والمدينة وشوقه لزيارتها
107	10. موضوع المناجاة والتضرع
112	11. موضوع التوسل والتشفع
130	12. موضوع الحكم والمواعظ
144	13. موضوع ذكر الدنيا والآخرة، والجنة والنار
149	14. موضوع ذكر تقصيره
152	15. موضوع الدعاء
158	16. موضوع ذكر الشيب والهزم وقرب الأجل

160	17. موضوعات أخرى
160	أ. ذكر النسب النبوي
162	ب. ذكر القرآن الكريم
164	ج. ذكر بعض القصص الديني
168	الفصل الرابع: الدراسة الشكلية لمديح ابن خلوف
169	تحليل قصيدة: "أحسن ما يقال عندي"
174	1. المستوى الأول: شعرية اللغة
179	أ. شعرية النص من خلال المفردة
181	ب. الحقل الدلالية للقصيدة
183	ج. من خصائص اللغة الشعرية
185	2. المستوى الثاني: الصورة الشعرية
187	أ. الصور البيانية
187	1. التشبيه
190	2. الاستعارة
193	3. الكناية
196	ب. مصادر الصورة الشعرية:
197	1. الاقتباس
199	2. التضمين
201	3. التناص
204	3. المستوى الثالث: الإيقاع الشعري
205	1. شكل القصيدة
207	2. الإيقاع الداخلي
210	3. الإيقاع الخارجي
211	الخاتمة

214

قائمة المصادر والمراجع

221

الفهارس

تلخيص:

يعتبر المديح النبويّ من أهمّ أغراض الشعر الملحون، يبرز فيه الشاعر عاطفته الدنيّة الصادقة تجاه النبيّ محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ولكلّ شاعر شعبيّ سهم في هذا الغرض، لكنّ سيدي لخضر بن خلوف ارتبط اسمه بالمديح النبويّ فكان دالاً عليه، وقد وقفنا على موضوعات هذا المديح، وكيف ينتقل فيها ابن خلوف من موضوع إلى آخر في جودة حياكة وحسن سبك، كما وقفنا عند الأشكال التعبيريّة التي ارتضاها الشاعر في بناء نصّه الشعري. لقد التقت النّفاة الدنيّة مع قوّة الشاعريّة وصدق العاطفة في شخص ابن خلوف، فكان فعلاً مدّاح الرّسول صلّى الله عليه وسلّم.

الكلمات المفتاحيّة: المديح النبويّ . ابن خلوف . موضوعات المديح . شكل المديح .

Résumé :

Les louanges au prophète sont considérées parmi les thèmes les plus recherchés dans la poésie malhoun. Dans ce genre poétique le poète exprime ses sentasients religieux sincères envers le prophète Mohamed(Q.S.SL) .

Tous les poètes populaires ont participe quelque peu dans cet objectif. Mais le nom de sidi lakhdar benkhlof est fortement lié a ce genre poétique ou il passe d'un sujet a un autre avec beaucoup de maitrises. nous pouvons aussi évoquer les formes d'expression que le poète a choisi pour écrire son texte ou la culture religieuse se marie avec la beauté poétique, grâce a la sincérité et la foi de ce poète. A juste titre on peut le considérer parmi l'un des meilleurs de ceux qui ont loué le prophète.

Mots clé : _Les louanges au prophète – benkhlof – sujets de louanges - formes de louanges._

Resumen:

Alabanza al Profeta son considerados uno de los temas más buscados en la poesía Malhoun. En este tipo de poesía que el poeta expresa su sentimientos religioso sincero al profeta Mohamed(Q.S.SL)

Todos los poetas populares participado un poco en este objetivo. Sin embargo, el nombre de Sidi Lakhdar Benkhlof está fuertemente relacionada con este género poético o se mueve de un tema a otro con gran control. también podemos discutir las formas de expresión que el poeta eligió para escribir su texto o mezclas de cultura religiosa con la belleza poética, con una sinceridad y la fe del poeta. Razón se puede considerar uno de los mejores entre los que elogió el Profeta.

Palabras clave: Alabado sea el Profeta - Benkhlof - temas de alabanza - formas de alabanza.